{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم } [الأعراف : 182] سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم { مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 182] ما يراد بهم وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع إنهماكهم في الغي ، فكلما جدد الله عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجددوا معصية فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أن ترادف النعم أثره من الله تعالى وتقريب وإنما هو خذلان منه وتبعيد ، وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة { وَأُمْلِى لَهُمْ } [الأعراف : 183] عطف على { سَنَسْتَدْرِجُهُم } وهو غير داخل في حكم السين أي أمهلهم { إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 126

الأعراف : 183] أخذي شديد.

سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان.

ولما نسبوا النبي صلى الله عليه وسلّم إلى الجنون نزل { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم } [الأعراف : 184] محمد عليه السلام و " ما " نافية بعد وقف أي أولم يتفكروا في قولهم ، ثم نفى عنه الجنون بقوله ما بصاحبهم { مِّن جِنَّةٍ } [الأعراف : 184] جنون { إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [الأعراف : 184] منذر من الله موضع إنذاره { أَوَلَمْ يَنظُرُوا } [الأعراف : 185] نظر استدلال { فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } الملكوت الملك العظيم { وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ } [الأعراف : 185] وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد { وَأَنْ عَسَى } [الأعراف : 185] " أن " مخففة من الثقيلة وأصله " وأنه عسى " ، والضمير ضمير الشأن وهو في موضع الجر بالعطف على { مَلَكُوتَ } ، والمعنى أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى { أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ } [الأعراف : 185] ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مفاجأة الأجل وحلول العقاب { فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْدَهُ } [الأعراف : 185] بعد القرآن { يُؤْمِنُونَ } إذا لم يؤمنوا به ، وهو متعلق بـ { عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ } [الأعراف : 185] كأنه قيل : لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟ وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟ وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا؟

127

{ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ } [الأعراف : 186] أي يضلله الله { وَيَذَرُهُمْ } بالياء : عراقي ، وبالجزم : حمزة وعلي عطفاً على محل { فَلا هَادِيَ لَهُ } [الأعراف : 186] كأنه قيل : من يضلل الله لا يهده أحد { وَيَذَرُهُمْ } والرفع على الاستئناف أي وهو يذرهم.

الباقون : بالنون { فِي طُغْيَانِهِمْ } [البقرة : 15] كفرهم { يَعْمَهُونَ } يتحيرون.

ولما سألت اليهود أو قريش عن الساعة متى تكون نزل.

جزء : 2 رقم الصفحة : 126

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ } [الأعراف : 187] وهي من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا.
وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها ، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق { أَيَّانَ } متى واشتقاقه من " أي " فعلان منه لأن معناه أي وقت { مُرْسَاهَا } إرساؤها مصدر مثل المدخل بمعنى الإدخال ، أو وقت إرسائها أي إثباتها ، والمعنى متى يرسيها الله { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي } [الأعراف : 187] أي علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحداً من ملك مقرب ولا نبي مرسل ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك { لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلا هُوَ } [الأعراف : 187] لا يظهر أمرها لا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده { ثَقُلَتْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } أي كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ، ويتمنى أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها ، وثقل عليه أو ثقلت فيها لأن أهلها يخافون شدائدها وأهوالها { لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً } [الأعراف : 187] فجأة على غفلة منكم يسئلونك كأنّك خفيٌّ عنها } كأنك عالم بها وحقيقته كأنك بليغ في السؤال عنها ، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه استحكم علمه فيه.
وأصل هذا التركيب المبالغة ، ومنه إحفاء الشارب ، أو { عَنْهَا } متعلق بـ { يَسْأَلُونَكَ } أي يسألونك عنها كأنك حفي أي عالم بها { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ } [الأعراف : 187] وكرر { يَسْأَلُونَكَ } و { إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ } [الأعراف : 187] للتأكيد ولزيادة { كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا } [الأعراف : 187] وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة ، منهم محمد بن الحسن رحمه الله { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] أنه المختص بالعلم بها { قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَآءَ اللَّهُ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 126

الأعراف : 188] هو إظهار للعبودية

128

وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك إلا ما شاء مالكي من النفع لي والدفع عني { وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ اسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّواءُ } [الأعراف : 188] أي لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شيء منها ، ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب.
وقيل : الغيب الأجل ، والخير العمل ، والسوء الوجل.
وقيل : لاستكثرت لاعتددت من الخصب للجدب.
والسوء الفقر وقد رد.

{ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } [الأعراف : 188] إن أنا إلا عبد أرسلت نذيراً وبشيراً ، وما من شأني أن أعلم الغيب.

والسلام في { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 99] يتعلق بالنذير والبشير لأن النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم ، أو بالبشير وحده والمتعلق بالنذير محذوف أي إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

{ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } هي نفس آدم عليه السلام { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } [الأعراف : 189] حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه { لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } [الأعراف : 189] ليطمئن ويميل لأن الجنس إلى الجنس أميل خصوصاً إذا كان بعضاً منه ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه.

وذكر { لِيَسْكُنَ } بعدما أنث في قوله { وَاحِدَةٌ } منها زوجها ذهاباً إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم { فَلَمَّا تَغَشَّاهَا } [الأعراف : 189] جامعها { حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا } [الأعراف : 189] خف عليها ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالي من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه { فَمَرَّتْ بِهِ } [الأعراف : 189] فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق ، أو حملت حملاً خفيفاً يعني النطفة فمرت به فقامت به وقعدت.

(80/2)

{ فَلَمَّآ أَثْقَلَت } [الأعراف : 189] حان وقت ثقل حملها { دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا } [الأعراف : 189] دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعي وليتجأ إليه فقالا { لَـاإِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا } [الأعراف : 189] لئن وهبت لنا ولداً سوياً قد صلح بدنه أو ولداً ذكراً لأن الذكورة من الصلاح 129

{ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأنعام : 63] لك.

والضمير في { ءَاتَيْتَنَا } و { لَنَكُونَنَّ } لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما.

جزء : 2 رقم الصفحة : 126

{ فَلَمَّآ ءَاتَـاهُمَا صَالِحًا } [الأعراف : 190] أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوي { جَعَلا لَهُ شُرَكَآءَ } [الأعراف : 190] أي آتى أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وكذلك { فِيمَآ ءَاتَـاهُمَا } [الأعراف : 190] أي آتى أولادهما دليله { فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الأعراف : 190] حيث جمع الضمير ، وآدم وحواء بريئان من الشرك ، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزي وعبد مناف وعبد شمس ونحو ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم ، أو يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهم آل قصي أي هو الذي خلقكم من نفس واحدة قصي ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية

ليسكن إليها ، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزي وعبد قصي وعبد الدار.

والضمير في { أَيُشْرِكُونَ } لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك.

مدني وأبو بكر أي ذوي شرك وهم الشركاء.

{ يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شيئا } [الأعراف : 191] يعني الأصنام { وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [الأعراف : 191] أجريت الأصنام مجرى أولي العلم بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة ، والمعنى أيشركون مالاً يقدر على خلق شيء وهم يخلقون لأن الله خالقهم ، أو الضمير في { وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [الأعراف : 191] للعابدين أي أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم مخلوقو الله فليعبدوا خالقهم ، أو للعابدين والمعبودين وجمعهم كأولي العلم تغليباً للعابدين { وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ } [الأعراف : 192] لعبدتهم { نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ } [الأعراف : 192] فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث كالكسر وغيره بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم { وَإِن تَدْعُوهُمْ } [الأعراف : 193] وإن تدعوا هذه الأصنام { إِلَى الْهُدَى } [الأنعام : 71] إلى ما هو هدى ورشاد أو إلى أن يهدوكم أي وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى { لا يَتَّبِعُوكُمْ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 126

الأعراف : 193] إلى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله.

{ لا يَتَّبِعُوكُمْ } [الأعراف : 193] نافع

130

(81/2)

{ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ } [الأعراف : 193] عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم ولا يجيبونكم ، والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لرؤوس الآي { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [الأعراف : 194] أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة { عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } [الأعراف : 194] أي مخلوقون مملوكون أمثالكم { فَادْعُوهُمْ } لجلب نفع أو دفع ضر { فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ } [الأعراف : 194] فليجيبوا { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] في أنهم آلهة.

ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ } [الأعراف : 195] مشيكم { أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ } [الأعراف : 195] يتناولون بها { أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } [الأعراف : 195] أي فلم تعبدون ما هو دونكم { قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ } [الأعراف : 195] واستعينوا بهم في عدواتي { ثُمَّ كِيدُونِ } [الأعراف : 195] جميعاً أنتم وشركاؤكم.

وبالياء : يعقوب وافقه أبو عمرو في الوصل { فَلا تُنظِرُونِ } [الأعراف : 195] فإني لا أبالي بكم

وكانوا قد خافوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك.
وبالياء يعقوب { إِنَّ وَلِيِّۦَ } [الأعراف : 196] ناصري عليكم { اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ } [الأعراف : 196] أوحى إليّ وأعزني برسالته { وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } [الأعراف : 196] ومن سنته أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم.
جزء : 2 رقم الصفحة : 126
{ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ } [الأعراف : 197] من دون الله { لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ } يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه { وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [الأعراف : 198] المرئي.
{ خُذِ الْعَفْوَ } [الأعراف : 199] هو ضد الجهد أي ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله عليه السلام
131
" يسروا ولا تعسروا " { وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ } [الأعراف : 199] بالمعروف والجميل من الأفعال ، أو هو كل خصلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع { وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } [الأعراف : 199] ولا تكافيء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم ، وفسرها جبريل عليه السلام بقوله : صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك.
وعن الصادق أمر الله نبيه عليه السلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها
جزء : 2 رقم الصفحة : 131
{ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } [الأعراف : 200] وإما ينخسنك منه نخس أي بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } [الأعراف : 200] ولا تطعه.
والنزغ : والنخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي.
وجعل النزع نازغاً كما قيل جد جده ، أو أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب كقول أبي بكر رضي الله عنه : إن لي شيطاناً يعتريني إنّه سميعٌ } لنزغه { عَلِيمٌ } بدفعه { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ } [الأعراف : 201] مكي وبصري وعليّ أي لمة منه مصدر من قولهم " طاف به الخيال يطيف طيفاً " .
وعن أبي عمرو : هما واحد وهي الوسوسة.
وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان ، وأن عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته { الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا } [الأعراف : 201] ما أمر الله به ونهى عنه { فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ } [الأعراف : 201] فأبصروا السداد ودفعوا وسوسته.
وحقيقته أن يفروا منه إلى الله فيزدادوا بصيرة من الله بالله { وَإِخْوَانِهِمْ } وأما إخوان الشياطين من

شياطين الإنس فإن الشياطين { يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ } [الأعراف : 202] أي يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم { يَمُدُّونَهُمْ } من الإمداد : مدني { ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ } [الأعراف : 202] ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا ، وجاز

أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين والأول أوجه ، لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

وإنما جمع الضمير في { إِخْوَانَهُمْ } والشيطان مفرد لأن المراد به الجنس.

{ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَايَةٍ } [الأعراف : 203] مقترحة { قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا } [الأعراف : 203] هلا اخترتها أي اختلقتها كما اختلقت ما قبلها { قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَىَّ مِن رَّبِّى } [الأعراف : 203] ولست بمقترح لها { هَاذَا بَصَآ ئِرُ مِن رَّبِّكُمْ } [الأعراف : 203] هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق { وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف : 203] به.

{ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأعراف : 204] ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها.

وقيل : معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له.

وجمهور الصحابة رضي الله عنهم على أنه في استماع المؤتم.

وقيل : في استماع الخطبة.

وقيل : فيهما وهو الأصح { وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ } [الأعراف : 205] هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك { تَضَرُّعًا وَخِيفَةً } [الأعراف : 205] متضرعاً وخائفاً { وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } [الأعراف : 205] ومتكلماً كلاماً دون الجهر لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر { بِالْغُدُوِّ وَالاصَالِ } [الرعد : 15] لفضل هذين الوقتين.

وقيل : المراد إدامة الذكر باستقامة الفكر.

ومعنى بالغدو بأوقات الغدو وهي الغدوات ، والآصال جمع أصل والأصل جمع أصيل وهو العشي { وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ } [الأعراف : 205] من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه { إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ } [الأعراف : 206] مكانة ومنزلة لا مكاناً ومنزلاً يعني الملائكة { لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } [الأنبياء : 19] لا يتعظمون عنها { وَيُسَبِّحُونَهُ } وينزهونه عما لا يليق به { وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [الأعراف : 206] ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره .

سورة الأنفال

مدنية وهي خمس أو ست أو سبع وسبعون آية

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الانفَالِ قُلِ الانفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } النفل الغنيمة لأنها من فضل الله وعطائه ، والأنفال الغنائم.

ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله كيف تقسم ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ فقيل له : قل لهم هي لرسول الله وهو الحاكم فيها خاصة يحكم ما يشاء ليس لأحد غيره فيها حكم.

ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكمها مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد { فَاتَّقُوا اللَّهَ } [آل عمران : 123] في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله { وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } [الانفال : 1] أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال التي تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، وقال الزجاج : معنى { ذَاتَ بَيْنِكُمْ } [الانفال : 1] حقيقة وصلكم.

والبين الوصل أي فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله

لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فقسمه بين المسلمين على السواء { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [الانفال : 1] فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها { إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [البقرة : 91] كاملي الإيمان { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } [الحجرات : 10] إنما الكاملو الإيمان { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الانفال : 2] فزعت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله وعزه وسلطانه { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ } [الانفال : 2] أي القرآن { زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } [الانفال : 2] ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة ، لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه ، أو زادتهم إيماناً بتلك الآيات لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الانفال : 2] يعتمدون ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون إلا إياه { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَواةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } جمع بين أعمال القلوب من الوجل والإخلاص والتوكل ، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة { أُولَئك هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } [الانفال : 4] هو صفة مصدر محذوف أي أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً ، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي { أُولَئك هُمُ الْمُؤْمِنُونَ } [الانفال : 4] كقولك " هو عبد الله حقاً " أي حق ذلك حقاً.

وعن الحسن رحمه الله أن رجلاً سأله أمؤمن أنت؟ قال : إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قوله : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } [الحجرات : 10] الآية.

فلا أدري أنا منهم أم لا.

وعن الثوري : من زعم أنه مؤمن بالله حقاً ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية ، أي كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً ، وبهذا يتشبث من يقول أنا مؤمن إن شاء الله.

وكان أبو حنيفة رحمه الله لا يقول ذلك.

وقال لقتادة : لم تستثني في إيمانك؟ قال : اتباعاً لإبراهيم في قوله { وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيائَتِى يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء : 82] (الشعراء : 28) فقال له : هلا

اقتديت به في قوله { أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى } [البقرة : 260] (البقرة : 62) ، وعن إبراهيم التيمي : قل أنا مؤمن حقاً فإن صدقت أثبت عليه ، وإن كذبت فكفرك أشد من كذبك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقاً.

وقد احتج عبد الله على أحمد فقال : إيش اسمك؟ فقال : أحمد ، فقال : أتقول أنا أحمد حقاً أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال : أنا أحمد حقاً.

فقال : حيث سماك والداك لا تستثني وقد سماك الله في القرآن مؤمناً تستثني.

{ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ } [الانفال : 4] مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال { عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ } [الانفال : 4] وتجاوز لسيئاتهم { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الانفال : 4] صافٍ عن كد الاكتساب وخوف الحساب.

الكاف في { كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ } [الانفال : 5] في محل النصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر ، والتقدير : قل الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون { مِن بَيْتِكَ } [الانفال : 5] يريد بيته بالمدينة ، أو المدينة نفسها لأنها مهاجرة ومسكنة فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه { بِالْحَقِّ } إخراجاً متلبساً بالحكمة والصواب { وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ } [الانفال : 5] في موضع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم.

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان ، فأخبر جبريل النبي عليه السلام فأخبر أصحابه فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم ، فلما خرجوا علمت قريش بذلك فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهو النفير في المثل السائر : لا في العير ولا في النفير.

فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت ، فأبى وسار بمن
136

(84/2)

معه إلى بدر . وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة . ونزل جبريل عليه اللام فقال : يا محمد ، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين ، إما العير وإما قريشاً.

فاستشار النبي صلى الله عليه وسلّم أصحابه وقال العير أحب إليكم أم النفير " ؟ قالوا : بل العير أحب إلينا من لقاء العدو.

فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثم ردّد عليهم فقال : " إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل " فقالوا : يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو.

فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلّم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا ، ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض ، فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار.

ثم قال المقداد بن عمرو : امض لما أمرك الله فإنا معك حيث أحببت ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : { فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (المائدة : 42).

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

ما دامت عين منا تطرف ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقال سعد بن معاذ : امض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، فسر بنا على بركة الله.

ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلّم ونشطه قول سعد ثم قال : " سيروا على بركة الله أبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم " وكانت الكراهة من بعضهم لقوله { وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ } [الانفال : 5] قال الشيخ أبومنصور رحمه الله : يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقاداً ، ويحتمل أن يكونوا مخلصين ، وأن يكون ذلك كراهة طبع لأنهم غير متأهبين له.

137

جزء : 2 رقم الصفحة : 134

جزء : 2 رقم الصفحة : 138

{ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ } [الانفال : 6] الحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم تلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير { بَعْدَمَا تَبَيَّنَ } [الانفال : 6] بعد إعلام رسول الله صلى الله عليه

وسلّم بأنهم ينصرون وجدالهم قولهم ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلا قلت لنا لنستعد وذلك لكراهتهم القتال { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ } [الانفال : 6] شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعتل إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها.

وقيل : كان خوفهم لقلة العدد وإنهم كانوا رجالة وماكان فيهم إلا فارسان { وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآ ئِفَتَيْنِ } " إذ " منصوب بـ " اذكر " و { إِحْدَى } مفعول ثانٍ { أَنَّهَا لَكُمْ } [الانفال : 7] بدل من { إِحْدَى الطَّآ ئِفَتَيْنِ } [الانفال : 7] وهما العير والنفير والتقدير : وإذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم { وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ } [الانفال : 7] أي العير وذات الشوكة ذات السلاح ، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم أي تتمنون أن تكون لكم العير لأنها الطائفة التي لا سلاح لها ولا تريدون الطائفة الأخرى { وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ } [الانفال : 7] أي يثبته ويعليه { بِكَلِمَاتِهِ } بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى من قتلهم وطرحهم في قليب بدر { وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ } [الانفال : 7] آخرهم والدابر الآخر فاعل من دبر إذا أدبر.

وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة ، وسفساف الأمور ، والله تعالى يريد معالي الأمور ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وأعزكم وأذلهم { لِيُحِقَّ الْحَقَّ } [الانفال : 8] متعلق بـ أو بمحذوف تقديره ليحق الحق { الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ } [الانفال : 8] فعل ذلك والمقدر متأخر ليفيد الاختصاص أي ما فعله إلا لهما ، وهو إثبات الإسلام وإظهاره ، وإبطال الكفر ، ومحقه ، وليس هذا بتكرار لأن الأول تمييز بين

الإرادتين ، وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها { وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } [الانفال : 8] المشركون ذلك { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ } [الانفال : 9] بدل من { يَعِدُكُمُ } أو متعلق بقوله { لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ } [الانفال : 8] واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون أي ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا.

وهي طلب الغوث وهو التخليص من المكروه { فَاسْتَجَابَ لَكُمْ } [الانفال : 9] فأجاب.

وأصل { أَنِّي مُمِدُّكُم } [الانفال : 9] " بأني ممدكم " فحذف الجار وسلط عليه فنصب محله { مُمِدُّكُم

بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائكَةِ مُرْدِفِينَ } [الانفال : 9] . { مُرْدِفِينَ } . مدني.
غيره بكسر الدال.
فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم ، والفتح على أنه أردف كل ملك ملكاً آخر.
يقال : ردفه إذا تبعه ، وأردفته إياه إذا اتبعه { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ } [آل عمران : 126] أي الإمداد الذي دل عليه ممدكم { إِلا بُشْرَى } [آل عمران : 126] إلا بشارة لكم بالنصر { وَلِتَطْمَاِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ } [الانفال : 10] يعني أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكيناً منكم وربطاً على قلوبكم { وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِندِ اللَّهِ } [آل عمران : 126] أي ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة ، أو وما النصر من الملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله ، والمنصور من نصره الله.
واختلف في قتال الملائكة يوم بدر فقيل : نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضي الله عنه ، وميكائل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي رضي الله عنه في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود : من أين كان يأتينا الضرب ، ولا نرى الشخص ، قال : من قبل الملائكة.
قال : فهم غلبونا لا أنتم.
وقيل : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا.
جزء : 2 رقم الصفحة : 138
{ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } [البقرة : 209] بنصر أوليائه { حَكِيمٌ } بقهر أعدائه.
139
{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ } [الانفال : 11] بدل ثانٍ من { يَعِدُكُمُ } أو منصوب بالنصر أو بإضمار اذكر.
{ يُغَشِّيكُمُ } مدني { النُّعَاسَ } النوم والفاعل هو الله على القراءتين.
{ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ } مكي ، وأبو عمرو { ءَامِنَةً } مفعول له أي إذ تنعسون أمنة بمعنى أمناً أي لأمنكم ، أو مصدر أي فأمنتم أمنة فالنوم يزيح الرعب ويريح النفس { مِنْهُ } صفة لها أي أمنة حاصلة لكم من الله { وَيُنَزِّلُ } بالتخفيف : مكي وبصري ، وبالتشديد : وغيرهم { عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً } [الانفال : 11] مطراً { لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ } [الانفال : 11] بالماء من الحدث والجنابة { وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ } [الانفال : 11] وسوسته إليهم وتخويفه إياهم من العطش ، أو الجنابة من الاحتلام ، لأنه من الشيطان وقد وسوس إليهم أن لا نصرة مع الجنابة { وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ } [الانفال : 11] بالصبر { وَيُثَبِّتَ بِهِ الاقْدَامَ } [الانفال : 11] أي بالماء إذ الأقدام كانت تسوخ في الرمل ، أو بالربط لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال { إِذْ يُوحِى } [الانفال : 12] بدل ثالث من { يَعِدُكُمُ } أو منصوب بـ { يُثَبِّتُ } { رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ } [الانفال : 12] بالنصر { فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا } [الانفال : 12] بالبشرى وكان الملك يسير أمام الصف في

صورة رجل ويقول : أبشروا فإن الله ناصركم { سَأُلْقِى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } [الانفال : 12] هو امتلاء القلب من الخوف و { الرُّعْبَ } شامي وعلي { فَاضْرِبُوا } أمر للمؤمنين أو الملائكة ، وفيه دليل على أنهم قاتلوا

جزء : 2 رقم الصفحة : 138

(86/2)

{ فَوْقَ الاعْنَاقِ } [الانفال : 12] أي أعالي الأعناق التي هي المذابح تطييراً للرؤوس ، أو أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني ضرب الهام { وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [الانفال : 12] هي الأصابع يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المقاتل والشوي لأن الضرب إما أن يقع على مقتل أو غير مقتل ، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين { ذَالِكَ } إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو

140

مبتدأ خبره { بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [الانفال : 13] أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم أي مخالفتهم وهي مشتقة من الشق لأن كلا المتعاديين في شق خلاف شق صاحبه ، وكذا المعاداة والمخاصمة لأن هذا في عدوة وخصم أي جانب وذاك في عدوة وخصم { وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الانفال : 13] والكاف في ذلك لخطاب الرسول أو لكل أحد ، وفي { ذَالِكُمْ } للكفرة على طريقة الالتفات ، ومحله الرفع على " ذلكم العقاب أو العقاب " { ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ } [الانفال : 14].

والواو في { وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ } [الانفال : 14] بمعنى " مع " أي ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا } حال من { الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67].

والزحف الجيش الذي يرى لكثرته كأنه يزحف أي يدب دبيباً من زحف الصبي إذا دب على استه قليلاً قليلاً سمي بالمصدر { فَلا تُوَلُّوهُمُ الادْبَارَ } [الانفال : 15] فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أي إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل ، فلا تفروا فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم ، أو حال من المؤمنين أو من الفريقين أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم.

جزء : 2 رقم الصفحة : 138

{ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَاإِذٍ دُبُرَهُا إِلا مُتَحَرِّفًا } [الانفال : 16] مائلاً { لِّقِتَالٍ } هو الكر بعد الفر يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب { أَوْ مُتَحَيِّزًا } [الانفال : 16] منضماً { إِلَى فِئَةٍ } [الانفال : 16] إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها وهما حالان من ضمير الفاعل في

{ يُوَلِّهِمْ } { الْمَصِيرُ } ووزن متحيز " متفيعل " لا " متفعل " ، لأنه من حاز يحوز ، فبناء متفعل منه متحوز.

141

ولما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وكان القاتل منهم يقول تفاخراً قتلت وأسرت قيل لهم { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـاكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } [الانفال : 17] والفاء جواب لشرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم.

ولما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلّم : خذ قبضة من تراب فارمهم بها فرمى بها في وجوههم وقال " شاهت الوجوه " فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا قيل { وَمَا رَمَيْتَ } [الانفال : 17] يا محمد { إِذْ رَمَيْتَ وَلَـاكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الانفال : 17] يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسباً وإلى الله تعالى خلقاً لا كما تقول الجبرية والمعتزلة ، لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله { إِذْ رَمَيْتَ } [الانفال : 17] ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله { وَلَـاكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الانفال : 17] ، { وَلَـاكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } [الانفال : 17] ، { وَلَـاكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الانفال : 17] بتخفيف { لَـاكِنِ } شامي وحمزة وعلي { وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ } [الانفال : 17] وليعطيهم { مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا } [الانفال : 17] عطاء جميلاً ، والمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل وما فعل إلا لذلك { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 138

(87/2)

الحج : 75] لدعائهم { عَلِيمٌ } بأحوالهم { ذَالِكُمْ } إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع أي الأمر ذلكم { وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } [الانفال : 18] معطوف على { ذَالِكُمْ } أي المراد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين.

{ مُوهِنُ كَيْدِ } [الانفال : 18] شامي وكوفي غير حفص.

{ مُوهِنُ كَيْدِ } [الانفال : 18] حفص ، { مُوهِنُ } غيرهم.

{ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ } [الانفال : 19] إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لأهل مكة ، لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة

142

قالوا : اللهم إن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على الحق فانصرنا.

وقيل : { إِن تَسْتَفْتِحُوا } [الانفال : 19] خطاب للمؤمنين { وَإِن تَنتَهُوا } للكافرين أي { وَإِن تَنتَهُوا } أي

الانتهاء { تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ } [البقرة : 184] وأسلم { وَإِن تَعُودُوا } [الانفال : 19] لمحاربته { نَعُدْ } لنصرته عليكم { وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ } [الانفال : 19] جمعكم { شيئا وَلَوْ كَثُرَتْ } [الانفال : 19] عدداً { وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } [الانفال : 19] بالفتح مدني وشامي وحفص أي ولأن الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك ، وبالكسر غيرهم ويؤيده قراءة عبد الله و { اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } [الانفال : 19] { الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ } عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، لأن المعنى أطيعوا رسول الله كقوله : { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُا أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ } [التوبة : 62] (التوبة : 26) ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد { مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ } [النساء : 80] (النساء : 08) فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما كقوله " الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان " أو يرجع الضمير إلى الأمر بالطاعة أي ولا تولوا عن هذا الأمر وأمثاله ، وأصله ولا تتولوا فحذف إحدى التاءين تخفيفاً { وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ } [الانفال : 20] أي وأنتم تسمعونه ، أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أي تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة.

جزء : 2 رقم الصفحة : 138

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا } [الانفال : 21] أي ادعوا السماع وهم المنافقون وأهل الكتاب { وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } [الانفال : 21] لأنهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين ، والمعنى أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن.

ثم قال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ } [الانفال : 22] أي إن شر من يدب على وجه الأرض البهائم ، وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه ، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها لأنهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل

143

جزء : 2 رقم الصفحة : 143

{ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ } [الانفال : 23] في هؤلاء الصم والبكم { خَيْرًا } صدقاً ورغبة { لاسْمَعَهُمْ } لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين { وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا } [الانفال : 23] عنه أي ولو أسمعهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك ولم يستقيموا { وَّهُم مُّعْرِضُونَ } [آل عمران : 23] عن الإيمان. { مُّعْرِضُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ } وحد الضمير أيضاً كما وحده فيما قبله ، لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم كاستجابته ، والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالدعوة البعث والتحريض { لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الانفال : 24] من علوم الديانات والشرائع لأن العلم حياة كما أن الجهل موت قال الشاعر :

لا تعجبنّ الجهول حلته

فذاك ميت وثوبه كفن

أو لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم ، أو للشهادة لقوله تعالى { بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ } [آل عمران : 169] (آل عمران : 961) { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } [الانفال : 24] أي يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب ، فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله ، أو بينه وبين ما تمناه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه { وَأَنَّهُا إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الانفال : 24] واعلموا أنكم إليه تحشرون فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة { وَاتَّقُوا فِتْنَةً } [الانفال : 25] عذاباً { لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً } [الانفال : 25] هو جواب للأمر أي إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم ، وجاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر لأن فيه معنى النهي كما إذا قلت " انزل عن الدابة لا تطرحك " وجاز " لا تطرحنك " .

و " من " في { مِّنكُم } للتبعيض { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [البقرة : 196] إذا عاقب.

144

{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ } [الانفال : 26] " إذ " مفعول به لا ظرف أي واذكروا وقت كونكم أقلة أذلة { مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الارْضِ } [الانفال : 26] أرض مكة قبل الهجرة : يستضعفكم قريش { تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ } [الانفال : 26] لأن الناس كانوا لهم أعداء مضادين إلى المدينة { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ } [الانفال : 26] بمظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يوم بدر { وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } [النحل : 72] من الغنائم ولم تحل لأحد قبلكم { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة : 52] هذه النعم.

جزء : 2 رقم الصفحة : 143

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ } [الانفال : 27] بأن تعطلوا فرائضه { وَالرَّسُولِ } بأن لا تستنوا به { وَتَخُونُوا } جزم عطف على { لا تَخُونُوا } [الانفال : 27] أي ولا تخونوا { أَمَانَاتِكُمْ } فيما بينكم بأن لا تحفظوها { وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة : 22] تبعه ذلك ووباله ، أو وأنتم تعلمون أنكم تخونون يعني أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو ، أو وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح ، ومعنى الخون النقص كما أن معنى الإيفاء التمام ، ومنه تخوّنه إذا انتقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه { وَاعْلَمُوا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ } أي سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم والعذاب ، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده { وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُا أَجْرٌ عَظِيمٌ } [الانفال : 28] فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا } نصراً لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله ، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض من قولهم "

سطع الفرقان " أي طلع الفجر ، أو مخرجاً من الشبهات وشرحاً للصدور ، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة { وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } [الانفال : 29] أي الصغائر
145

(89/2)

{ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } [آل عمران : 31] ذنوبكم أي الكبائر { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [البقرة : 105] على عباده.

{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الانفال : 30] لما فتح الله عليه ذكّره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم.

والمعنى واذكر إذ يمكرون بك ، وذلك أن قريشاً لما أسلمت الأنصار فرقوا أن يتفاقم أمره فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال : أنا شيخ من نجد دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً.

فقال أبو البختري : رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون.

فقال إبليس : بئس الرأي ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم.

فقال هشام بن عمرو : رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم.

فقال إبليس : بئس الرأي ، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم.

فقال أبو جهل لعنه الله : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حربٍ قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا.

فقال اللعين : صدق هذا الفتى هو أجودكم رأياً ، فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله ، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن له الله في الهجرة ، فأمر علياً فنام في مضجعه وقال له : اتشح ببردتي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه.

وباتوا مترصدين ، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا علياً فبهتوا وخيب الله سعيهم واقتفوا أثره فأبطل الله مكرهم

جزء : 2 رقم الصفحة : 143

{ لِيُثْبِتُوكَ } ليحبسوك ويوثقوك { أَوْ يَقْتُلُوكَ } [الانفال : 30] بسيوفهم { أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الانفال :

30] من مكة { وَيَمْكُرُونَ } ويخفون المكايد له { وَيَمْكُرُ اللَّهُ } [الانفال : 30] ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة { وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران : 54] أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً.
146
كان عليه السلام يقرأ القرآن ويذكر أخبار القرون الماضي في قراءته فقال النضر بن الحارث : لو شئت لقلت مثل هذا.

وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأحاديث العجم فنزل { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا } [يونس : 15] أي القرآن { قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَاذَآ إِنْ هَاذَآ إِلا أَسَاطِيرُ الاوَّلِينَ } [الانفال : 31] وهذا صلف منهم ووقاحة ، لأنهم دعوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فلم يأتوا به.

جزء : 2 رقم الصفحة : 143

{ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَاذَا } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 147

(90/2)

الانفال : 32] أي القرآن { هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ } [الانفال : 32] هذا اسم " كان و " هو " فصل و { الْحَقّ } خبر " كان " .

روي أن النضر لما قال { إِنْ هَاذَآ إِلا أَسَاطِيرُ الاوَّلِينَ } [الأنعام : 25] قال له النبي عليه الصلاة والسلام " ويلك هذا كلام الله " فرفع النضر رأسه إلى السماء وقال { إِن كَانَ هَاذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ } [الانفال : 32] { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ } [الانفال : 32] أي إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل { أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الانفال : 32] بنوع آخر من جنس العذاب الأليم فقتل يوم بدر صبراً.

وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال : أجهل من قومي قومك ، قالوا لرسول الله عليه السلام حين دعاهم إلى الحق { إِن كَانَ هَاذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ } [الانفال : 32] ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ } [الانفال : 33] اللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم لأنك بعثت رحمة للعالمين وسنته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم ، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الانفال : 33] هو في موضع الحال ومعناه نفي الاستغفار عنهم أي ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما

147
عذبهم ، أو معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم من المستضعفين.
{ وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ } [الانفال : 34] أي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم إذا فارقتهم ، وما لهم ألا يعذبهم الله { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الانفال : 34] وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم عام الحديبية ، وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصد وكانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل
جزء : 2 رقم الصفحة : 147
{ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَهُا } [الانفال : 34] وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم { إِنْ أَوْلِيَآؤُهُا إِلا الْمُتَّقُونَ } [الانفال : 34] من المسلمين.
وقيل : الضميران راجعان إلى الله { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الأنعام : 37] ذلك كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند أو أردا بالأكثر الجميع كما يراد بالقلة العدم { وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَآءً } [الانفال : 35] صفيراً كصوت المكاء وهو طائر مليح الصوت ، وهو فعال من مكا يمكوا إذا صفر { وَتَصْدِيَةً } وتصفيقاً تفعلة من الصدى ، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم ويصفرون فيها ويصفقون ، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في صلاته يخلطون عليه { فَذُوقُوا الْعَذَابَ } [الأعراف : 39] عذاب القتل والأسر يوم بدر { بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } [آل عمران : 106] بسبب كفركم.
ونزل في المطعين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً وكلهم من قريش ، وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [الانفال : 36] أي كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلّم وهو سبيل الله
148
{ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً } [الانفال : 36] ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة ، فكأن ذاتها تصير ندماً وتنقلب حسرة { ثُمَّ يُغْلَبُونَ } [الانفال : 36] آخر الأمر وهو من دلائل النبوة لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر { وَالَّذِينَ كَفَرُوا } [النور : 39] والكافرون منهم { إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } [الانفال : 36] لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.
جزء : 2 رقم الصفحة : 147

واللام في { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ } [الانفال : 37] الفريق الخبيث من الكفار { مِنَ الطَّيِّبِ } [آل عمران : 179] أي من الفريق الطيب من المؤمنين ، متعلقة بـ { يُحْشَرُونَ } { لِيَمِيزَ } حمزة وعلي { وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ } [الانفال : 37] الفريق الخبيث { بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا } [الانفال : 37] فيجمعه { فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ } [الانفال : 37] أي الفريق الخبيث { أولئك } إشارة إلى الفريق الخبيث { هُمُ الْخَاسِرُونَ } [البقرة : 27] أنفسهم وأموالهم.

{ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا } [الانفال : 38] أي أبي سفيان وأصحابه { إِن يَنتَهُوا } [الانفال : 38] عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقتاله بالدخول في الإسلام { يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ } [الانفال : 38] لهم من العداوة { وَإِن يَعُودُوا } [الانفال : 38] لقتاله { فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الاوَّلِينَ } [الانفال : 38] بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى ، أو معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي ، وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ } [البقرة : 193] إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } [الانفال : 39] ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الإسلام وحده { فَإِنِ انتَهَوْا } [الانفال : 39] عن الكفر وأسلموا { فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الانفال : 39] يثيبهم على إسلامهم { وَإِن تَوَلَّوْا } [الانفال : 40] أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ } [الانفال : 40] ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته { نِعْمَ الْمَوْلَى } [الانفال : 40] لا يضيع من تولاه

149

{ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الانفال : 40] لا يغلب من نصره.

والمخصوص بالمدح محذوف.

جزء : 2 رقم الصفحة : 147

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم } [الانفال : 41] ما بمعنى الذي ، ولا يجوز أن يكتب إلا مفصولاً إذ لو كتب موصولاً لوجب أن تكون ما كافة و { غَنِمْتُمْ } صلته والعائد محذوف والتقدير : الذي غنمتموه { مِّن شَىْءٍ } [الذاريات : 42] بيانه قيل حتى الخيط والمخيط { فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ } [الانفال : 41] والفاء إنما دخلت لما في " الذي " من معنى المجازاة و " أن " وما عملت فيه في موضع رفع على أنه خبر مبدأ تقديره : فالحكم أن لله خمسة { وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } [الانفال : 41] فالخمس كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقسم على خمسة أسهم : سهم لرسول الله ، وسهم لذي قرابته من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم ، وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم فسهمه ساقط بموته ، وكذلك سهم ذوي القربى ، وإنما يعطون لفقرهم ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان على ستة : لله والرسول سهمان ، وسهم لأقاربه حتى

قبض فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة ، وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء رضي الله عنهم ، ومعنى { لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } [الانفال : 24] لرسول الله كقوله { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُا أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ } [التوبة : 62] (التوبة : 26) { إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ } [يونس : 84] فاعملوا به وارضوا بهذه القسمة فالإيمان يوجب الرضا بالحكم والعمل بالعلم { وَمَآ أَنزَلْنَا } [الانفال : 41] معطوف على { بِاللَّهِ } أي إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل { عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ } [الانفال : 41] يوم بدر { يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } [آل عمران : 155] الفريقان من المسلمين والكافرين ، والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ وهو بدل من { يَوْمَ الْفُرْقَانِ } [الانفال : 41] { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 147

البقرة : 284] يقدر على أن ينصر القليل على الكثير كما فعل بكم يومئذ.

150

(92/2)

{ إِذْ أَنتُم } [الانفال : 42] بدل من { يَوْمَ الْفُرْقَانِ } [الانفال : 41] والتقدير : اذكروا إذ أنتم { بِالْعُدْوَةِ } شط الوادي ، وبالكسر فيهما : مكي وأبو عمرو { الدُّنْيَا } القربى إلى جهة المدينة تأنيث الأدنى { وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى } [الانفال : 42] البعدى عن المدينية تأنيث الأقصى ، وكلتاهما فعلى من بنات الواو ، والقياس قلب الواو ياء كالعليا تأنيث الأعلى ، وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل { وَالرَّكْبُ } أي العير وهو جمع راكب في المعنى { أَسْفَلَ مِنكُمْ } [الأحزاب : 10] نصب على الظرف أي مكاناً أسفل من مكانكم يعني في أسفل الوادي بثلاثة أميال ، وهو مرفوع المحل لأنه خبر المبتدأ { وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ } [الانفال : 42] أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال { اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } [الانفال : 42] لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له { وَلَـاكِنَّ } جمع بينكم بلا ميعاد { لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا } [الانفال : 42] من إعزاز دينه وإعلاء كلمته ، أو اللام تتعلق بمحذوف أي ليقضي الله أمراً كان ينبغي أن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك.

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله : القضاء يحتمل الحكم أي ليحكم ما قد علم أنه يكون كائناً ، أو ليتم أمراً كان قد أراده ، وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة وهو عز الإسلام وأهله وذل الكفر وحزبه ويتعلق بـ { يُقْضَى } { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ } [الانفال : 42] نافع وأبو عمرو ، فالإدغام لالتقاء المثلين ، والإظهار لأن حركة الثاني غير لازمة ، لأنك تقول في المستقبل

" يحيا " والإدغام أكثر.

استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به ، وذلك أن وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها ، ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم مع أنهم قد علموا

151

ذلك كله مشاهدة ليعلم الخلق أن النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب بل بالله تعالى ، وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها ، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقة ، وكان العيروراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعدتهم وقلة المسلمين وضعفهم ثم كان ما كان { بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ } [الانفال : 42] لأقوالهم { عَلِيمٌ } بكفر من كفر وعقابه وبإيمان من آمن وثوابه.

جزء : 2 رقم الصفحة : 147

{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ } [الانفال : 43] نصب بإضمار " اذكر " ، أو هو متعلق بقوله { لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الانفال : 42] أي بعلم المصالح إذ يقللهم في عينك { فِى مَنَامِكَ قَلِيلا } [الانفال : 43] أي في رؤياك ، وذلك أن الله تعالى أراه إياهم في رؤياه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوهم { وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ } [الانفال : 43] لجبنتم وهبتم الإقدام { وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الامْرِ } [الانفال : 43] أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار { وَلَاكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ } [الانفال : 43] عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف { إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الانفال : 43] يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

جزء : 2 رقم الصفحة : 152

{ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ } [الانفال : 44] الضميران مفعولان أي وإذ يبصركم إياهم { إِذِ الْتَقَيْتُمْ } [الانفال : 44] وقت اللقاء { فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلا } [الانفال : 44] هو نصب على الحال.

وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال : أراهم مائة وكانوا ألفاً { وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ } [الانفال : 44] حتى قال قائل منهم : إنما هم أكلة

جزور.
قيل : قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيما بعده ليجترئوا عليه قلة مبالاة بهم ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ، ويجوز أن يبصروا
152
الكثير قليلاً بأن يستر الله بعضهم بساتر ، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين ، قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك واحد فقال : مالي لا أرى هذين الديكين أربعة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا } فيحكم فيها بما يريد { تُرْجَعُ } شامي وحمزة وعلي.
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً } [الانفال : 45] إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك وصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار ، واللقاء اسم غالب للقتال { فَاثْبُتُوا } لقتالهم ولا تفروا { وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا } [الانفال : 45] في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم : اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم { لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [البقرة : 189] تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة ، وفيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هماً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [الانفال : 1] في الأمر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما { وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا } [
جزء : 2 رقم الصفحة : 152
الانفال : 46] فتجبنوا وهو منصوب بإضمار " أن " ويدل عليه { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الانفال : 46] أي دولتكم يقال : " هبت رياح فلان " إذا دالت له الدولة ونفذ أمره ، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيته بالريح وهبوبها.
وقيل : لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله ، وفي الحديث " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " { وَاصْبِرُوا } في القتال مع العدو وغيره { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : 153] أي معينهم وحافظهم { وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ } [الانفال : 47] هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير فأتاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبى
153
أبو جهل وقال : حتى نقدم بدراً ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتعزف علينا القيان ونطعم بها العرب ، فذلك بطرهم ورياؤهم الناس بإطعامهم فوافوها فسقوا كأس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيام ، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم ، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله مخلصين أعمالهم لله.
والبطر أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها.
{ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة : 34] دين الله { وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [الانفال : 47] عالم

وهو وعيد.

جزء : 2 رقم الصفحة : 152

(94/2)

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ } [الانفال : 48] واذكر إذ زين لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون.

وغالب مبني نحو " لا رجل " و { لَكُمُ } في موضع رفع خبر " لا " .

تقديره : لا غالب كائن لكم { وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ } [الانفال : 48] أي مجير لكم أوهمهم أن طاعة الشيطان مما يجيرهم { فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ } [الانفال : 48] فلما تلاقى الفريقان { نَكَصَ } الشيطان هارباً { عَلَى عَقِبَيْهِ } [آل عمران : 144] أي رجع القهقري { وَقَالَ إِنِّي بَرِى ءٌ مِّنكُمْ } [الانفال : 48] أي رجعت عما ضمنت لكم من الأمان.

روي أن إبليس تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم في جند من الشياطين معه راية ، فلما رأى الملائكة تنزل نكص فقال له الحارث بن هشام : أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال : { إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ } [الانفال : 48] أي الملائكة وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة.

فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان { إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ } [المائدة : 28] أي عقوبته { وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [آل عمران : 11] 154

اذكروا { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ } [الانفال : 49] بالمدينة { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } [الانفال : 49] هو من صفة المنافقين ، أو أريد والذين هم على حرف ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام { غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ } [الانفال : 49] يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف.

ثم قال جواباً لهم { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [الانفال : 49] يكل إليه أمره { فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } [الانفال : 49] غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي { حَكِيمٌ } لا يسوي بين وليه عدوه.

جزء : 2 رقم الصفحة : 152

{ وَلَوْ تَرَى } [الأنعام : 93] ولو عاينت وشاهدت لأن " لو " ترد المضارع إلى معنى الماضي كما ترد " إن " الماضي إلى معنى الاستقبال { إِذِ } نصب على الظرف { يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا } [الانفال : 50] بقبض أرواحهم { الْمَلَائكَةِ } فاعل { يَضْرِبُونَ } حال منهم { وُجُوهَهُمْ } إذا أقبلوا { وَأَدْبَارَهُمْ } ظهورهم وأستاههم إذا أدبروا ، أو وجوههم عند الإقدام وأدبارهم عند الانهزام.

وقيل : في { يَتَوَفَّى } ضمير الله تعالى ، و { الْمَلَائكَةِ } مرفوعة بالابتداء و { يَضْرِبُونَ } خبر والأول الوجه ، لأن الكفار لا يستحقون أن يكون الله متوفيهم بلا واسطة دليلة قراءة ابن عامر بالتاء { وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا } [الانفال : 50] ويقولون لهم ذوقوا معطوف على { يَضْرِبُونَ } { عَذَابَ الْحَرِيقِ } [آل عمران : 181] أي مقدمة عذاب النار ، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به ، أو يقال لهم يوم القيامة : ذوقوا.

وجواب " لو " محذوف أي لرأيت أمراً فظيعاً.

جزء : 2 رقم الصفحة : 152

{ ذَالِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } [آل عمران : 182] أي كسبت وهو رد على الجبرية ، وهو من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة.

و { ذَالِكَ } رفع بالابتداء و { بِمَا قَدَّمَتْ } [آل عمران : 182] خبره { وَأَنَّ اللَّهَ } [المائدة : 97] عطف عليه أي ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم ، وبأن الله { لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } [آل عمران : 182] لأن تعذيب الكفار من العدل.

وقيل : ظلام للتكثير لأجل العبيد ، أو لنفي أنواع الظلم.

155

(95/2)

الكاف في { كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ } [آل عمران : 11] في محل الرفع أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ، ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي داوموا عليه { وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [الدخان : 37] من قبل قريش أو من قبل آل فرعون { كَفَرُوا } تفسير لدأب آل فرعون { بِـَايَـاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } والمعنى جروا على عادتهم في التكذيب فأجرى عليه مثل ما فعل بهم في التعذيب { ذَالِكَ } العذاب أو الانتقام { بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ } [الانفال : 53] بسبب أن الله لم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا مابهم من الحال ، نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكة حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة ، لكن لما تغيرت الحال المرضية إلى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة إلى أسخط منها ، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه وسعوا في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب { وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } [الحج : 61] لما يقولوا مكذبو الرسل { عَلِيمٌ } بما يفعلون { كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ } [آل عمران : 11] تكرير للتأكيد ، أو لأن في الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك ، وهنا بين أن ذلك هو الإهلاك والاستئصال { وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَايَـاتِ رَبِّهِمْ }

جزء : 2 رقم الصفحة : 152
وفي قوله { بِـاَايَاتِ رَبِّهِمْ } [الانفال : 54] زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق { فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَونَ } [الانفال : 54] بماء البحر { وَكُلٌّ } وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش { كَانُوا ظَالِمِينَ } [الانفال : 54] أنفسهم بالكفر والمعاصي.
{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ } [الانفال : 22] أي أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الإيمان { الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ } [الانفال : 56] بدل من { الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] أي الذين عاهدتهم من
156
الذين كفروا وجعلهم شر الدواب ، لأن شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون وشر المصرين الناكثون للعهود { ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ } [الانفال : 56] في كل معاهدة { وَهُمْ لا يَتَّقُونَ } [الانفال : 56] لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار.
جزء : 2 رقم الصفحة : 152
{ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ } [الانفال : 57] فإما تصادفنهم وتظفرن بهم { فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ } [الانفال : 57] ففرق من محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتباراً بهم واتعاظاً بحالهم.
وقال الزجاج : افعل بهم ما تفرق به جمعهم وتطرد به من عداهم { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [الأعراف : 26] لعل المشردين من ورائهم يتعظون
جزء : 2 رقم الصفحة : 157

(96/2)

{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ } [الانفال : 58] معاهدين { خِيَانَةً } نكثاً بأمارات تلوح لك { فَانابِذْ إِلَيْهِمْ } [الانفال : 58] فاطرح إليهم العهد { عَلَى سَوَآءٍ } [الانفال : 58] على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد وهو حال من النابذ والمنبوذ إليهم أي حاصلين على استواء في العلم { إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَا ائِنِينَ } [الانفال : 58] الناقضين للعهود { وَلا يَحْسَبَنَّ } [آل عمران : 178] بالياء وفتح السين : شامي وحمزة ويزيد وحفص ، وبالتاء وفتح السين : أبو كبر ، وبالتاء وكسر السين : غيرهم { الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا } [الانفال : 59] فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم { إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ } [الانفال : 59] إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم { إِنَّهُمْ } شامي أي لأنهم ، وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل غير أن المكسورة على طريقة الاستئناف ، والمفتوحة تعليل صريح ؛ فمن قرأ بالتاء فـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] مفعول أول والثاني { سَبَقُوا } ومن قرأ بالياء فـ { الَّذِينَ كَفَرُوا }

[النمل : 67] فاعل و { سَبَقُوا } مفعول تقديره أن سبقوا فحذف " أن " ، و " أن " مخففة من الثقيلة أي أنهم سبقوا فسد مسد المفعولين ، أو يكون الفاعل مضمراً أي ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين ومن ادعى.

تفرد حمزة بالقراءة ، ففيه نظر لما بيناه من عدم تفرده بها.

وعن الزهري أنها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

157

{ وَأَعِدُّوا } أيها المؤمنون { لَهُمْ } لناقضي العهد أو لجميع الكفار { مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ } [الانفال : 60] من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها وفي الحديث " ألا إن القوة الرمي " قالها ثلاثاً على المنبر.

وقيل : هي الحصون { وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ } [الانفال : 60] هو اسم للخيل التي تربط سبيل سبيل الله ، أو هو جمع ربيط كفصيل وفصال ، وخص الخيل من بين ما يتقوى به كقوله

جزء : 2 رقم الصفحة : 157

{ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } (البقرة : 89) { تُرْهِبُونَ بِهِ } [الانفال : 60] بما استطعتم { عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } [الانفال : 60] أي أهل مكة { وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ } [الانفال : 60] غيرهم وهم اليهود ، أو المنافقون ، أو أهل فارس ، أو كفرة الجن.

في الحديث " إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دارا فيها فرس عتيق " .

وروي أن صهيل الخيل يرهب الجن { لا تَعْلَمُونَهُمُ } [الانفال : 60] لا تعرفونهم بأعيانهم { اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ } [الانفال : 60] يوفر عليكم جزاؤه { وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ } [البقرة : 272] في الجزاء بل تعطون على التمام { وَإِن جَنَحُوا } [الانفال : 61] ما لوا جنح له وإليه مال { لِلسَّلْمِ } للصلح وبكسر السين : أبو بكر وهو مؤنث تأنيث ضدها وهو الحرب { فَاجْنَحْ لَهَا } [الانفال : 61] فمل إليها { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [الانفال : 61] ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } [الإسراء : 1] لأقوالك { الْعَلِيمُ } بأحوالك { وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ } [الانفال : 62] يمكروا ويغدروا { فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ } [الانفال : 62] كافيك الله { هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ } [الانفال : 62] قواك { بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [الانفال : 62] جميعاً أو بالأنصار.

158

{ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } [الانفال : 63] قلوب الأوس والخزرج بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة { لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الارْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } [الانفال : 63] أي بلغت عداوتهم مبلغاً لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر عليه { وَلَـاكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 157

الانفال : 63] بفضله ورحمته وجمع بين كلمتهم بقدرته ، فأحدث بينهم التوادّ والتحابّ وأماط عنهم التباغض والتماقت { إِنَّهُ عَزِيزٌ } يقهر من يخدعونك { حَكِيمٌ } ينصر من يتبعونك.

{ حَكِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } الواو بمعنى " مع " وما بعده منصوب ، والمعنى كفاك وكفى المؤمنين الله ناصراً.

ويجوز أن يكون في محل الرفع أي كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين.

قيل : أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلّم ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت { الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ } التحريض المبالغة في الحث على الأمر من الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفي على الموت { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِا ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّا ئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الانفال : 65] هذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده { بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [الانفال : 65] بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ، بخلاف من يقاتل على بصيرة وهو يرجو النصر من الله.

قيل : كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة ، ثم ثقل عليهم ذلك فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله

159

{ الْـَٰنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا } [الانفال : 66] { ضَعْفًا } عاصم وحمزة { فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا ئَةٌ صَابِرَةٌ } [الانفال : 66] بالياء فيهما : كوفي ، وافقه البصري في الأولى والمراد الضعف في البدن { يَغْلِبُوا مِا ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الانفال : 66] وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده ، للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت ، إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف ، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

جزء : 2 رقم الصفحة : 157

{ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ } [الانفال : 67] ما صح له ولا استقام { أَن يَكُونَ لَهُا أَسْرَى } [الانفال : 67] { أَن تَكُونَ } [النحل : 92] : بصري { حَتَّى يُثْخِنَ فِي الارْضِ } [الانفال : 67] الإثخان كثرة القتل والمبالغة فيه من الثخانة وهي الغلظ والكثافة حتى يذل الكفر بإشاعة القتل في أهله ، ويعز الإسلام بالاستيلاء والقهر ، ثم الأسر بعد ذلك.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أتى بسبعين أسيراً . فيهم العباس عمه وعقيل . فاستشار النبي عليه السلام أبا بكر فيهم فقال : قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك.

وقال عمر رضي الله عنه : كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء ، مكن علياً من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكني من فلان لنسيب له ، فلنضرب

(98/2)

أعناقهم.

فقال عليه السلام : " مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال { وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [إبراهيم : 36] (إبراهيم : 63) ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال { رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الارْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } [نوح : 26] (نوح : 62).

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لهم : " إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدّتهم " فقالوا : بل نأخذ الفداء فاستشهدوا بأحد فلما أخذوا الفداء نزلت الآية { تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا } [الانفال : 67] متاعها يعني الفداء سماه عرضاً لقلة بقائه وسرعة فنائه { وَاللَّهُ يُرِيدُ الاخِرَةَ } [الانفال : 67] أي ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل { وَاللَّهُ عَزِيزٌ } [البقرة : 228] يقهر الأعداء { حَكِيمٌ } في عتاب الأولياء.

{ لَّوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ } [الانفال : 68] لولا حكم من الله { سَبَقَ } أن لا يعذب أحداً على العمل بالاجتهاد وكان هذا اجتهاداً منهم لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم ، وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد ، وخفي عليهم إن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم ، أو ما كتب الله في اللوح أن لا يعذب أهل بدر ، أو ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار.

وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكري القياس.

{ كِتَابٍ } مبتدأ و { مِّنَ اللَّهِ } [الجن : 22] صفته أي لولا كتاب ثابت من الله و { سَبَقَ } صفة أخرى له ، وخبر المبتدأ محذوف أي لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود ، و { سَبَقَ } لا يجوز أن يكون خبراً لأن " لولا " أبداً { لَمَسَّكُمْ } لنالكم وأصابكم { فِيمَآ أَخَذْتُمْ } [الانفال : 68] من فداء الأسرى { عَذَابٌ عَظِيمٌ } [البقرة : 7] روي أن عمر رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال : يا رسول الله أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت.

فقال : " أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة " لشجرة قريبة منه.

وروي أنه عليه السلام قال : " لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ "
لقوله كان الإثخان في القتل أحب إليّ
جزء : 2 رقم الصفحة : 160
{ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ } [الانفال : 69] روي أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم
162

(99/2)

إليها فنزلت.
وقيل : هو إباحة للفداء لأنه من جملة الغنائم.
والفاء للتسبيب والسبب محذوف ، ومعناه قد أحللت لكم الغنائم فكلوا { حَلَالا } مطلقاً عن العتاب والعقاب من حل العقال وهو نصب على الحال من المغنوم ، أو صفة للمصدر أي أكلاً حلالاً { طَيِّبًا } لذيذاً هنيئاً أو حلالاً بالشرع طيباً بالطبع { وَاتَّقُوا اللَّهَ } [المائدة : 88] فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } [البقرة : 235] لما فعلتم من قبل { رَّحِيمٌ } بإحلال ما غنمتم.
{ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّمَن فِى أَيْدِيكُم } في ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم { مِّنَ الاسْرَى } [الانفال : 70] جمع أسير من الأساري أبو عمرو جمع أسرى { إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا } [الانفال : 70] خلوص إيمان وصحة نية { يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ } [الانفال : 70] من الفداء ، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه أو يثيبكم في الآخرة { وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الانفال : 70]
روي أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلّم مال البحرين ثمانون ألفاً ، فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه ، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول : هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة ، وكان له عشرون عبداً وإن أدناهم ليتجر في عشرين ألفاً وكان يقول : أنجز الله أحد الوعدين وأنا على ثقة من الآخر { وَإِن يُرِيدُوا } [الانفال : 62] أي الأسرى { خِيَانَتَكَ } نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة أو منع ما ضمنوه من الفداء { فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ } [الانفال : 71] في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه { فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ } [الانفال : 71] فأمكنك منهم أي أظفرك بهم كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوالخيانة { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } [البقرة : 95] بالمال { حَكِيمٌ } فيما أمر في الحال.
جزء : 2 رقم الصفحة : 160
{ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا } [الانفال : 72] من مكة حباً لله ورسوله { وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ } هم المهاجرون { وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا } [الانفال : 72] أي آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار { أُولَئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [الانفال : 72] أي يتولى بعضهم بعضاً

في الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة دون ذوي القرابات حتى نسخ ذلك بقوله { وَأُوْلُوا الارْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ } [الأحزاب : 6] وقيل : أراد به النصرة والمعاونة { وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا } [الانفال : 72] من مكة { مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم } [الانفال : 72] من توليهم في الميراث { وَلَايَتِهِم } حمزة.

وقيل : هما واحد { مِّن شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا } [الانفال : 72] فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر ممن آمن وهاجر ، ولما أبقى للذين لم يهاجروا اسم الإيمان وكانت الهجرة فريضة فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة ، دل على أن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان { وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ } [الانفال : 72] أي من أسلم ولم يهاجر { فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ } [الانفال : 72] أي إن وقع بينهم وبين الكفار قتال وطلبوا معونة فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين { إِلا عَلَى قَوْم بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ } [الانفال : 72] فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يبتدئون بالقتال ، إذ الميثاق مانع من ذلك { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [البقرة : 265] تحذير عن تعدي حد الشرع.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [الانفال : 73] ظاهره إثبات الموالاة بينهم ، ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الكفار ومواريثهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً.

ثم قال { إِلا تَفْعَلُوهُ } [الانفال : 73] أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضاً حتى في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ، ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة { تَكُن فِتْنَةٌ فِى الارْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [الانفال : 73] تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة ، لأن المسلمين ما لم يصيروا

(100/2)

يداً واحدة على الشرك كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً { وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أولئك هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } [الانفال : 74] لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى { لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الانفال : 74] لا منة فيه ولا تنغيص ولا تكرار ، لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم والأولى للأمر بالتواصل { وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ } [الانفال : 75] يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة { وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَائِكَ مِنكُمْ } [الانفال : 75] جعلهم منهم تفضلاً وترغيباً { وَأُوْلُوا الارْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ } [الانفال : 75] وأولوا القرابات أولى بالتوارث وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة { فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الانفال : 75] في حكمه وقسمته

أوفى اللوح ، أو في القرآن وهو آية المواريث وهو دليل لنا على توريث ذوي الأرحام { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُ } [البقرة : 231] فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه.

قسم الناس أربعة أقسام : قسم آمنوا وهاجروا ، وقسم آمنوا ونصروا ، وقسم آمنوا ولم يهاجروا ، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.

164

سورة التوبة

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية كوفي ومائة وثلاثون غيره

لها أسماء : براءة ، التوبة ، المقشقشة ، المبعثرة ، المشردة ، المخزية ، الفاضحة ، المثيرة ، الحافرة ، المنكلة ، المدمدمة ، لأن فيها التوبة على المؤمنين وهي تقشقش من النفاق أي تبرىء منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها ، وتفضحهم وتنكلهم وتشردهم وتخزيهم وتدمدم عليهم.

وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال ؛ فعن علي وابن عباس رضي الله عنهم ، أن بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان.

وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان إذا نزلت عليه سورة أو آية قال : اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولم يبين لنا أين نضعها ، وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال لأن فيها ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود ، فلذلك قرنت بينهما وكانتا تدعيان القرينتين وتعدان السابعة من الطوال وهي سبع.

وقيل : اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال بعضهم : الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت في القتال ، وقال بعضهم : هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان ، وتركت بسم الله لقول من قال هما سورة واحدة.

جزء : 2 رقم الصفحة : 165

{ بَرَآءَةٌ } خبر مبتدأ محذوف أي هذه براءة

165

{ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ } [التوبة : 1] من لابتداء الغاية متعلق بمحذوف ، أي هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم كما تقول " كتاب من فلان إلى فلان " ، أو مبتدأ لتخصصها بصفتها والخبر { إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم } [التوبة : 1] كقولك " رجل من بني تمم في الدار " والمعنى أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه منبوذ إليهم {

فَسِيحُوا فِى الارْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التوبة : 2] فسيروا في الأرض كيف شئتم.
والسيح : السير على مهل.
روي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا إلا ناساً منهم . وهم بنو ضمرة وبنو كنانة . فنبذ العهد إلى الناكثين وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاءوا لا يتعرض لهم ، وهي الأشهر الحرم في قوله { فَإِذَا انسَلَخَ الاشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [التوبة : 5] وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها.
وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان ، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد ، وأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلّم أبا بكر على موسم سنة تسع ، ثم أتبعه علياً راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له : لو بعثت بها إلى أبي بكر.
فقال : لا يؤدّي عني إلا رجل مني.
فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلّم.
فلما لحقه قال : أمير أو مأمور؟ قال : مأمور.
فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحثهم على مناسكهم وقال عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : يا أيها الناس ، إني رسول رسول الله إليكم فقالوا : بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ، ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده ، فقالوا عند ذلك : يا علي أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه

ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ؛ والأشهر الأربعة : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، أو عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر ، وكانت حرماً لأنهم أمنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم ، أو على التغليب لأن ذا الحجة والمحرم منها.
والجمهور على إباحة القتال في الأشهر الحرم وأن ذلك قد نسخ
جزء : 2 رقم الصفحة : 165
{ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ } [التوبة : 2] لا تفوتونه وإن أمهلكم { وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ } [التوبة : 2] مذلهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.
{ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ } ارتفاعه كارتفاع { بَرَآءَةٌ } على الوجهين ، ثم الجملة معطوفة على مثلها ، والأذان بمعنى الإيذان وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء ، والفرق بين الجملة الأولى والثانية أن الأولى إخبار بثبوت البراءة ، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.
وإنما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين ، وعلق الأذان بالناس ، لأن البراءة مختصة

بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث { يَوْمَ الْحَجِّ الاكْبَرِ } [التوبة : 3] يوم عرفة لأن الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج ، أو يوم النحر لأن فيه تمام الحج من الطواف ، والنحر ، والحلق ، والرمي ، ووصف الحج بالأكبر ، لأن العمرة تسمى الحج الأصغر { أَنَّ اللَّهَ بَرِى ءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ } [التوبة : 3] أي بأن الله حذفت صلة الأذان تخفيفاً { وَرَسُولُهُ } عطف على المنوي في { بَرِى ءٌ } أو على الابتداء وحذف الخبر أي ورسوله بريء ، وقرىء بالنصب عطفاً على إسم " إن " ، وبالجر على الجوار ، أو على القسم كقولك " لعمرك " .

وحكي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها فقال : إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء ، فلببه الرجل إلى عمر فحكى الأعرابي قراءته فعندها أمر عمر بتعلم العربية { فَإِن تُبْتُمْ } [التوبة : 3] من الكفر والغدر { فَهُوَ } أي التوبة { خَيْرٌ لَّكُمْ } [البقرة : 184] من الأصرار على الكفر

(102/2)

{ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ } [التوبة : 3] عن التوبة أو تبتم على التولي والإعراض عن الإسلام { فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ } [التوبة : 3] غير سابقين الله ولا فائتين أخذه وعقابه { وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 165

التوبة : 3] مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم { إِلا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ } [التوبة : 4] استثناء من قوله { فَسِيحُوا فِى الارْضِ } [التوبة : 2] والمعنى : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم { ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شيئا } [التوبة : 4] من شروط العهد أي وفوا بالعهد ولم ينقضوه.

وقرىء { لِمَ } أي عهدكم وهو أليق لكن المشهورة أبلغ لأنه في مقابلة التمام { شيئا وَلَمْ يُظَـاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا } [التوبة : 4] ولم يعاونوا عليكم عدواً { فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ } [التوبة : 4] فأدوه إليهم تاماً كملاً { إِلَى مُدَّتِهِمْ } [التوبة : 4] إلى تمام مدتهم ، والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين : لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة : 4] يعني أن قضية التقوى ألا يسوّي بين الفريقين فاتقوا الله في ذلك.

جزء : 2 رقم الصفحة : 165

{ فَإِذَا انسَلَخَ } [التوبة : 5] مضى أو خرج { الاشْهُرُ الْحُرُمُ } [التوبة : 5] التي أبيح فيها للناكثين أن

يسيحوا { فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [التوبة : 5] الذين نقضوكم وظاهروا عليكم { حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ } [التوبة : 5] من حل أو حرم { وَخُذُوهُمْ } وأسروهم ، والأخيذ : الأسير { وَاحْصُرُوهُمْ } وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد { وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } [التوبة : 5] كل ممر ومجتاز ترصدونهم به ، وانتصابه على الظرف.

{ فَإِن تَابُوا } [التوبة : 5] عن الكفر { فَإِذَا انسَلَخَ الاشْهُرُ } فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر ، أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } [البقرة : 235] بستر الكفر والغدر بالإسلام { رَّحِيمٌ } برفع القتل قبل الأداء بالإلتزام

168

{ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ } [التوبة : 6] { أَحَدٍ } مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر أي وإن استجارك أحد استجارك ، والمعنى وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن فأمّنه { حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } [التوبة : 6] ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر على أن المستأمن لا يؤذي وليس له الإقامة في دارنا ويمكن من العود { ذَالِكَ } أي الأمر بالإجارة في قوله { فَأَجِرْهُ } { بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ } [التوبة : 6] بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه ، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا أو يفهموا الحق { كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ } [التوبة : 7] { كَيْفَ } استفهام في معنى الاستنكار أي مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم.

ثم استدرك ذلك بقوله

جزء : 2 رقم الصفحة : 165

(103/2)

{ إِلا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ } [التوبة : 7] أي ولكن الذين عاهدتم منهم { عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة : 191] ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ } [التوبة : 7] ولم يظهر منهم نكث أي فما أقاموا على وفاء العهد { فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } [التوبة : 7] على الوفاء.

و " ما " شرطية أي فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة : 4] يعني أن التربص بهم من أعمال المتقين.

{ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ } [التوبة : 8] تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد ، وحذف الفعل لكونه معلوماً أي كيف يكون لهم عهد وحالهم أنهم إن يظهروا عليكم أي يظفروا بكم بعد ما سبق لهم

من تأكيد الأيمان والمواثيق { لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلا } [التوبة : 8] لا يراعوا حلفاً ولا قرابة { وَلا ذِمَّةً } [التوبة : 10] عهداً { يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ } [التوبة : 8] بالوعد
169
بالإيمان والوفاء بالعهد وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد { وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ } [التوبة : 8] الإيمان والوفاء بالعهد { وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة : 8] ناقضون العهد أو متمردون في الكفر ، لا مروة تزعهم عن الكذب ، ولا شمائل تردعهم عن النكث كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عنهما.

جزء : 2 رقم الصفحة : 165

{ اشْتَرَوْا } استبدلوا { بِآيَاتِ اللَّهِ } [الزمر : 63] بالقرآن { ثَمَنًا قَلِيلا } [النحل : 95] عرضاً يسيراً وهو إتباع الأهواء والشهوات { فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ } [التوبة : 9] فعدلوا عنه وصرفوا غيرهم { إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [التوبة : 9] أي بئس الصنيع صنيعهم { لا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً } [التوبة : 10] ولا تكرار ، لأن الأول على الخصوص حيث قال

جزء : 2 رقم الصفحة : 170

{ فِيكُمْ } والثاني على العموم لأنه قال { فِى مُؤْمِنٍ } [التوبة : 10] { وَأُولَائِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } [التوبة : 10] المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة { فَإِن تَابُوا } [التوبة : 5] عن الكفر { وَأَقَامُوا الصَّلَواةَ وَءَاتَوُا الزكاة فَإِخْوَانُكُمْ } فهم إخوانكم على حذف المبتدأ { فِى الدِّينِ } [الانفال : 72] لا في النسب { وَنُفَصِّلُ الايَاتِ } [التوبة : 11] ونبينها { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [البقرة : 230] يفهمون فيتفكرون فيها وهذا اعتراض ، كأنه قيل : وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم تحريصاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها { وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ } [التوبة : 12] أي نقضوا العهود المؤكد بالأيمان { وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ } [التوبة : 12] وعابوه { فَقَاتِلُوا أَاِمَّةَ الْكُفْرِ } [التوبة : 12] فقاتلوهم ، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم وهم رؤساء الشرك ، أو زعماء قريش الذين هموا بإخراج الرسول وقالوا : إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعناً ظاهراً جاز قتله لأن العهد معقود معه
170
على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة.

{ أَاِمَّةَ } بهمزتين : كوفي وشامي ، الباقون : بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسرورة ، أصلها " أأممة " لأنها جمع إمام كعماد وأعمدة ، فنقلت حركة الميم الأولى إلى الهمزة الساكنة وأدغمت في الميم الأخرى.

فمن حقق الهمزتين أخرجهما على الأصل ، ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها { وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ } وإنما أثبت لهم الإيمان في قوله { وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم } [التوبة : 12] لأنه أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال { لا أَيْمَانَ لَهُمْ } [التوبة : 12] على الحقيقة وهو دليل لنا على أن يمين الكافر لا

تكون يميناً ، ومعناه عند الشافعي رحمه الله أنهم لا يوفون بها لأن يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث.

{ لا أَيْمَانَ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 170

(104/2)

التوبة : 12] شامي أي لا إسلام { لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ } [التوبة : 12] متعلق بـ { فَقَاتِلُوا أَاِمَّةَ الْكُفْرِ } [التوبة : 12] وما بينها اعتراض أي ليكن غرضكم في مقاتلتهم انتهاءهم عما هم عليه بعدما وجد منهم من العظائم ، وهذا من غاية كرمه على المسي.

ثم حرض على القتال فقال : { أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ } [التوبة : 13] التي حلفوها في المعاهد { وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ } [التوبة : 13] من مكة { وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة : 13] بالقتال والبادىء أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم ، وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب { أَتَخْشَوْنَهُمْ } توبيخ على الخشية منهم { فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ } [التوبة : 13] بأن تخشوه فقاتلوا أعداءه { إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [البقرة : 91] فاخشوه أي إن قضية الإيمان الكامل أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه.

ولما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الأمر به بقوله :

{ قَاتِلُوهُمْ } ووعدهم النصر ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم بقوله { يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة : 14] قتلاً { وَيُخْزِهِمْ } أسراً { وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ } [التوبة : 14] يغلّبكم عليهم { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } [التوبة : 14] طائفة منهم وهم خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلّم

171

{ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ } [التوبة : 15] لما لقوا منهم من المكروه وقد حصل الله هذه المواعيد كلها فكان دليلاً على صحة نبوته { وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَآءُ } [التوبة : 15] ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره وكان ذلك أيضاً ، فقد أسلم ناس منهم كأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ، وهي ترد على المعتزلة قولهم " إن الله تعالى شاء أن يتوب على جميع الكفرة لكنهم لا يتوبون باحتيارهم " .

{ وَاللَّهُ عَلِيمُ } [البقرة : 95] يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان { حَكِيمٌ } في قبول التوبة { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ } [التوبة : 16] " أم " منقطعة والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان أي لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين المخلص منكم وهم الذين جاهدوا

في سبيل الله لوجه الله { وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً } [التوبة : 16] أي بطانة من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين ولما معناها التوقع ، وقد دلت على أن تبين ذلك متوقع كائن ، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين.

{ وَلَمْ يَتَّخِذُوا } [التوبة : 16] معطوف على { جَاهَدُوا } داخل في حيز الصلة كأنه قيل : ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله ، والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كقولك " ما علم الله مني ما قيل فيّ " .

تريد ما وجد ذلك مني ، والمعنى أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين { وَاللَّهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ } [آل عمران : 153] من خير أو شر فيجازيكم عليه.

172

(105/2)

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ } [التوبة : 17] ما صح لهم وما استقام { أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ } [التوبة : 17] { مَسَاجِدَ اللَّهِ } [البقرة : 114] مكي وبصري يعني المسجد الحرام ، وإنما جمع في القراءة بالجمع لأنه قبلة المساجد وإمامها فعامره كعامر جميع المساجد ، ولأن كل بقعة منه مسجد ، أو أريد جنس المساجد وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمرو المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ، وهو آكد إذ طريقه طريق الكناية كما تقول : " فلان لا يقرأ كتب الله " فإنه أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك { شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ } [التوبة : 17] باعترافهم بعبادة الأصنام وهو حال من الواو في { يَعْمُرُوا } والمعنى ما استقام لهم أن يجموا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته { أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ } [التوبة : 17] دائمون { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ } [التوبة : 18] عمارتهارمّ ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا ، لأنها بنيت للعبادة والذكر ومن الذكر درس العلم { مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ } [البقرة : 62] ولم يذكر الإيمان بالرسول عليه السلام لما علم أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول لاقترانهما في الأذان والإقامة وكلمة الشهادة وغيرها ، أو دل عليه بقوله { وَأَقَامَ الصَّلَواةَ وَءَاتَى الزكاة } [البقرة : 177] وفي قوله { وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ } [التوبة : 18] تنبيه على الإخلاص ، والمراد الخشية في أبواب الدين بأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف ، إذ المؤمن قد يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها.

وقيل : كانوا يخشون الأصنام ويرجونها : فأريد نفي تلك الخشية عنهم { فَعَسَى أُولئك أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [التوبة : 18] تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم لأن { عَسَى } كلمة إطماع ، والمعنى إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها عند الله

دون من سواهم.
173
جزء : 2 رقم الصفحة : 170
{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَآجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [التوبة : 19] السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ، ولا بد من مضاف محذوف تقديره : أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله.
وقيل : المصدر بمعنى الفاعل يصدقه قراءة ابن الزبير { أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }
جزء : 2 رقم الصفحة : 174
والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة وأن يسوي بينهم ، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر لأنهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما.
نزلت جواباً لقول العباس حين أسر فطفق علي رضي الله عنه يوبخه بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقطيعة الرحم تذكر مساوينا وتدع محاسننا.
فقيل : أولكم محاسن؟ فقال : نعمر المسجد ونسقي الحاج ونفك العاني.
وقيل : افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة ، وعلي رضي الله عنه بالإسلام والجهاد ، فصدق الله تعالى علياً { الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ } أولئك { أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ } [التوبة : 20] من أهل السقاية والعمارة { وَأُولَائِكَ هُمُ الْفَآ ئِزُونَ } [التوبة : 20] لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم } [التوبة : 21] { يُبَشِّرُهُمْ } حمزة { بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ } تنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف { لَّهُمْ فِيهَا } [النساء : 57] في الجنات { نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } [التوبة : 21] دائم { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [التوبة : 22] لا ينقطع.
174

(106/2)

لما أمر الله النبي عليه السلام بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه ولأخيه ولقرابته : إنا قد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من تتعلق به زوجته أو ولده فيقول تدعنا بلا شيء فنضيع فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَتَّخِذُوا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الايمَانِ } أي آثروه واختاروه { أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ } [المائدة : 51] أي ومن يتولى الكافرين { فَأُولَائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [البقرة : 229].

{ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ } [التوبة : 24] أقاربكم وعشيراتكم أبو بكر { وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا } [التوبة : 24] اكتسبتموها { وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا } [التوبة : 24] فوات وقت نفاقها { وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } [التوبة : 24] وهو عذاب عاجل أو عقاب آجل أو فتح مكة { وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [المائدة : 108] والآية تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين ، إذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والأموال والحظوظ.

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ } [التوبة : 25] كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة.

وقيل : إن المواطن التي نصر الله فيها النبي عليه السلام والمؤمنين ثمانون موطناً ، ومواطن الحرب مقاماتها ومواقفها { وَيَوْمَ } أي واذكروا يوم { حُنَيْنٍ } وادٍ بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً ، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين : لن نغلب

اليوم من قلة ، فساءت رسول الله عليه الصلاة والسلام { إِذْ } بدل من { يَوْمِ } { أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ } [التوبة : 25] فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود ، فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلّم وحده وهو ثابت في مركزه ليس معه إلا عمه العباس آخذاً بلجام دابته ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عمه آخذاً بركابه فقال للعباس : " صح بالناس " وكان صيّتاً ، فنادى : يا أصحاب الشجرة فاجتمعوا وهم يقولون : لبيك ، لبيك نزلت الملائكة عليهم الثياب البيض على خيول بلق ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلّم كفاً من تراب فرماهم بن ثم قال : " انهزموا ورب الكعبة " فانهزموا وكان من دعائه عليه السلام يومئذ " اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان " وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر { فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شيئا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الارْضُ بِمَا رَحُبَتْ } [التوبة : 25] " ما " مصدرية والباء بمعنى " مع " أي مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور في موضع الحال كقولك " دخلت عليه بثياب السفر " أي متلبساً بها ، والمعنى لم تجدوا موضعاً لفراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم { ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ } [التوبة : 25] ثم انهزمتم { ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ } [التوبة : 26] رحمته التي سكنوا بها وأمنوا { عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا } [التوبة : 26] يعني الملائكة وكانوا ثمانية آلاف أو خمسة أو ستة عشر ألفاً { وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [التوبة : 26] بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري.

{ وَذَالِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ } [التوبة : 26].

{ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَالِكَ عَلَى مَن يَشَآءُ } [التوبة : 27] وهم الذين أسلموا منهم { وَاللَّهُ غَفُورٌ } [البقرة : 225] بستر كفر العدو بالإسلام { رَّحِيمٌ } بنصر الولي بعد الانهزام.
176

(107/2)

{ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } أي ذوو نجس وهو مصدر ، يقال نجس نجساً وقذر قذراً لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم ، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها
جزء : 2 رقم الصفحة : 176
{ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ } [التوبة : 28] فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية { بَعْدَ عَامِهِمْ هَاذَا } [التوبة : 28] وهو عام تسع من الهجرة حين أمّر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم ، وهو مذهبنا ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا ، وعند الشافعي رحمه الله يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون منه ومن غيره.
وقيل : نهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } [التوبة : 28] أي فقراً بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الإرفاق والمكاسب { فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } [التوبة : 28] من الغنائم أو المطر والنبات أو من متاجر حجيج الإسلام { إِن شَآءَ } [يوسف : 99] هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال إليه { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ } [آل عمران : 119] بأحوالكم { حَكِيمٌ } في تحقيق آمالكم ، أو عليم بمصالح العباد حكيم فيما حكم وأراد ونزل في أهل الكتاب { قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [التوبة : 29] لأن اليهود مثنيّة والنصارى مثلثة { وَلا بِالْيَوْمِ الاخِرِ } [التوبة : 29] لأنهم فيه على خلاف ما يجب حيث يزعمون أن لا أكل في الجنة ولا شرب { وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } [التوبة : 29] لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة ، أو لا يعملون بما في التوراة والإنجيل { وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ } [التوبة : 29] ولا يعتقدون دين الإسلام الذي هو الحق.
يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده
177
{ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } [التوبة : 29] بيان للذين قبله ، وأما المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية ، وكذا الترك والهنود وغيرهما بخلاف مشركي العرب لما روي الزهري أن النبي عليه السلام صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب { حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ } [التوبة : 29] إلى أن يقبلوها ، وسميت جزية لأنه مما يجب على أهلها أن يجزوه أي يقضوه ، أو هي جزاء على

الكفر على التحميل في تذليل
جزء : 2 رقم الصفحة : 176
{ عَن يَدٍ } [التوبة : 29] أي عن يدٍ مواتية غير ممتنعة ولذا قالوا : أعطى بيده إذا انقاد ، وقالوا : نزع يده عن الطاعة.
أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة لا مبعوثاً على يدٍ أحد ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ { وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة : 29] أي تؤخذ منهم على الصغار والذل وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب ، ويسلمها وهو قائم ، والمتسلم جالس ، وأن يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أدّ الجزية يا ذمي وإن كان يؤديها ويزخ في قفاه وتسقط بالإسلام.
{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ } [التوبة : 30] كلهم أو بعضهم { عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة : 30] مبتدأ وخبر كقوله { الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة : 30] وعزير اسم أعجمي ، ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه ، ومن نون.
وهم عاصم وعلي . فقد جعله عربياً { وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَالِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ } أي قول لا يعضده برهان ولا يستند إلى بيان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ عن معنى تحته كالألفاظ المهملة { يُضَاهِ ُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ } [التوبة : 30] لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم ، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً يعني أن الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم
178

(108/2)

من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم ، يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث ، أو الضمير للنصارى أي يضاهي قولهم { الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة : 30] قول اليهود { عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة : 30] لأنهم أقدم منهم { يُضَاهِ ُونَ } : عاصم.
وأصل المضاهاة المشابهة ، والأكثر ترك الهمز واشتقاقه من قولهم " امرأة ضهياء " وهي التي أشبهت الرجال بأنها لا تحيض كذا قاله الزجاج ، { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ } [التوبة : 30] أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا { أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المائدة : 75] كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان.
جزء : 2 رقم الصفحة : 176
{ اتَّخَذُوا } أي أهل الكتاب { أَحْبَارَهُمْ } علماءهم { وَرُهْبَانَهُمْ } نساكهم { أَرْبَابًا } آلهة { مِّن دُونِ اللَّهِ } [يس : 74] حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله كما يطاع الأرباب في أوامرهم ونواهيهم { وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [التوبة : 31] عطف على { أَحْبَارَهُمْ } أي اتخذوه رباً حيث جعلوه ابن الله { وَمَآ أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَـاهًا وَاحِدًا } [التوبة : 31] يجوز الوقف عليه لأن ما بعده

يصلح ابتداء يصلح وصفاً لواحداً { لا إِلَاهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التوبة : 31] تنزيه له عن الإشراك { يُرِيدُونَ أَن يُطْفِأُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [التوبة : 32] مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلّم بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق ، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الإشراق ليطفئه بنفخه.

أجرى { وَيَأْبَى اللَّهُ } [التوبة : 32] مجرى { لا يُرِيدُونَ } ولذا وقع في مقابله { يُرِيدُونَ } وإلا فلا يقال : كرهت أو أبغضت إلا زيداً.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ } [التوبة : 33] محمداً عليه السلام { بِالْهُدَى } بالقرآن { وَدِينِ الْحَقِّ } [التوبة : 33] الإسلام { لِيُظْهِرَهُ } ليعليه { عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } [الفتح : 28] على أهل الأديان كلهم ، أو

179

ليظهر دين الحق على كل دين { وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } استعار الأكل للأخذ { أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ } [النساء : 29] أي بالرشا في الأحكام { وَيَصُدُّونَ } سفلتهم { عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [محمد : 1] دينه { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ } [التوبة : 34] يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم : أخذ الرشا وكنز الأموال والضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير.

ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ، ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظاً.

وعن النبي صلى الله عليه وسلّم " ما أدي زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً ، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً " ولقد كان كثير من الصحابة رضي الله عنهم كعبد الرحمن بن عوف وطلحة يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية ، لأن الإعراض اختيار للأفضل والاقتناء مباح لا يذم صاحبه { وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة : 34] الضمير راجع إلى المعنى لأن كل واحد منهما دنانير ودراهم ، فهو كقوله : { وَإِن طَآ ئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا } [الحجرات : 9] (الحجرات : 9).

أو أريد الكنوز واوموال ، أو معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله :

جزء : 2 رقم الصفحة : 176

فإني وقيار بها لغريب وقيار كذلك.

وخصا بالذكر من بين سائر الأموال لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء.

وذكر كنزهما دليل على ما سواهما { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [آل عمران : 21].

جزء : 2 رقم الصفحة : 176

ومعنى قوله { يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ } [التوبة : 35] أن النار تحمي عليها أي توقد ، وإنما

ذكر الفعل لأنه مسند إلى الجار والمجرور ، أصله يوم تحمي النار عليها ،
180

(109/2)

فلما حذفت النار قيل { يُحْمَى } لانتقاد الإسناد عن النار إلى عليها كما تقول " رفعت القصة إلى الأمير " فإن لم تذكر القصة قلت " رفع إلى الأمير " { فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُم } [جزء : 2 رقم الصفحة : 180
التوبة : 35] وخصت هذه الأعضاء لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم ، أو معناه يكوون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم { هَاذَا مَا كَنَزْتُمْ لانفُسِكُمْ } [التوبة : 35] يقال لهم هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وهو توبيخ { فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } [التوبة : 35] أي وبال المال الذي كنتم تكنزونه ، أو وبال كونكم كانزين.
{ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا } [التوبة : 36] من غير زيادة ، والمراد بيان أن أحكام الشرع تبتني على الشهور القمري المحسوبة بالأهلة دون الشمسية { فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الانفال : 75] فيما أثبته وأوجبه من حكمته أو في اللوح { يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } [التوبة : 36] ثلاثة سرد : ذو القعدة للقعود عن القتال ، وذو الحجة للحج ، والمحرم لتحريم القتال فيه ، وواحد فرد وهو رجب لترجيب العرب إياه أي لتعظيمه { ذَالِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } [التوبة : 36] أي الدين المستقيم لا ما يفعله أهل الجاهلية يعني أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم ودين إبراهيم وإسماعيل ، وكانت العرب تمسكت به فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسيء فغيروا { فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ } [التوبة : 36] في الحرم أو في الاثني عشر { أَنفُسِكُمْ } بارتكاب المعاصي { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً } [التوبة : 36] حال من الفاعل أو المفعول { كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً } [التوبة : 36] جميعاً { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [البقرة : 194] أي ناصر لهم حثهم على التقوى بضمان النصرة لأهلها { إِنَّمَا النَّسِى ءُ } [التوبة : 37] بالهمزة مصدر نسأه إذا أخره ، وهو تأخير حرمة الشهر إلى
181
شهر آخر.
وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر

جزء : 2 رقم الصفحة : 180
{ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ } [التوبة : 37] أي هذا الفعل منهم زيادة في كفرهم { يُضَلُّ } كوفي غير أبي بكر { بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا } [التوبة : 37] بالنسيء.
والضمير في { يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا } [التوبة : 37] للنسيء أي إذا أحلوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً رجعوا فحرموه في العام القابل { لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ } [التوبة : 37] ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين.
واللام تتعلق بـ { يُحِلُّونَهُ } و أو بـ فحسب وهو الظاهر { اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ } [التوبة : 37] أي فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال ، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها { زُيِّنَ لَهُمْ سُواءُ أَعْمَالِهِمْ } [التوبة : 37] زين الشيطان لهم ذلك فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة { وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [البقرة : 264] حال اختيارهم الثبات على الباطل.
جزء : 2 رقم الصفحة : 180

(110/2)

{ الْكَافِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا } اخرجوا { فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ } [التوبة : 38] تثاقلتم وهو أصله إلا أن التاء أدغمت في الثاء فصارت التاء ساكنة ، فدخلت ألف الوصل لئلا يبتدأ بالساكن أي تباطأتم { إِلَى الارْضِ } [التوبة : 38] ضمن معنى الميل والإخلاد فعدي بـ " إلى " أي ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم وديياركم ، وكان ذلك في غزوة تبوك استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك.
وقيل : ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلّم في غزوة إلاّ ورّي عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة { أَرَضِيتُم بِالْحَيَواةِ الدُّنْيَا مِنَ الاخِرَةِ } [التوبة : 38] بدل الآخرة { فَمَا مَتَاعُ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا فِى الاخِرَةِ } في جنب الآخر { إِلا قَلِيلٌ * إِلا تَنفِرُوا } إلى الحرب { يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شيئا } [التوبة : 39] سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين ، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم
182
وأطوع ، وأنه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً.
وقيل : الضمير في { وَلا تَضُرُّوهُ } [التوبة : 39] للرسول عليه السلام لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره ووعده كائن لا محالة { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ } [المجادلة : 6] من التبديل والتعذيب وغيرهما { قَدِيرٌ * إِلا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ } إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا

رجل واحد ، فدل بقوله { فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ } [التوبة : 40] على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت { إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [التوبة : 40] أسند الإخراج إلى الكفار لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه

جزء : 2 رقم الصفحة : 180

{ ثَانِيَ اثْنَيْنِ } [التوبة : 40] أحد اثنين كقوله " ثالث ثلاثة " وهما رسول الله وأبو بكر ، وانتصابه على الحال { إِذْ هُمَا } [التوبة : 40] بدل من { إِذْ أَخْرَجَهُ } [التوبة : 40] { فِى الْغَارِ } [التوبة : 40] هو نقب في أعلى ثور وهو جبل في يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثاً { إِذْ يَقُولُ } [طه : 104] بدل ثانٍ { لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة : 40] بالنصرة والحفظ.

قيل : طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : إن تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه السلام : " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " .

وقيل : لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : " اللهم أعم أبصارهم " فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بأبصارهم عنه وقالوا : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة { فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ } [الفتح : 26] ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه { عَلَيْهِ } على النبي صلى الله عليه وسلّم أو على أبي بكر لأنه كان يخاف وكان عليه السلام ساكن القلب { وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا } [التوبة : 40] هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه ، أو أيده بالملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين

183

{ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [التوبة : 40] أي دعوتهم إلى الكفر { السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ } [التوبة : 40] دعوته إلى الإسلام { هِىَ } فصل { الْعُلْيَا } { وَكَلِمَةُ اللَّهِ } [التوبة : 40] بالنصب : يعقوب بالعطف ، والرفع على الاستئناف أوجه إذ هي كانت ولم تزل عالية { وَاللَّهُ عَزِيزٌ } [البقرة : 228] يعز بنصره أهل كلمته { حَكِيمٌ } يذل أهل الشرك بحكمته.

جزء : 2 رقم الصفحة : 180

{ انْفِرُوا خِفَافًا } [التوبة : 41] في النفور لنشاطكم له { وَثِقَالا } عنه لمشقته عليكم ، أو خفافاً لقلة عيالكم وثقالاً لكثرتها ، أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه ، أو ركباناً ومشاة أو شباباً وشيوخاً ، أو مهازيل وسماناً ، أو صحاحاً ومراضاً { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ } إيجاب للجهاد بهما إن إمكن ، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة { فِى سَبِيلِ اللَّهِ ذَالِكُمْ } [التوبة : 41] الجهاد { خَيْرٌ لَّكُمْ }

[البقرة : 184] من تركه { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة : 184] كون ذلك خيراً فبادروا إليه.
ونزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين { لَوْ كَانَ عَرَضًا } [
جزء : 2 رقم الصفحة : 184
التوبة : 42] هو ما عرض لك من منافع الدنيا ، يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أي لو كان ما دعوا إليه مغنماً { قَرِيبًا } سهل المأخذ { وَسَفَرًا قَاصِدًا } [التوبة : 42] وسطاً مقارباً ، والقاصد والقصد المعتدل { اتَّبَعُوكَ } لوافقوك في الخروج { وَلَاكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ } [التوبة : 42] المسافة الشاطة الشاقة { وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ } [التوبة : 42].
من دلائل النبوة لأنه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر ، و { بِاللَّهِ } متعلق بـ { سَيَحْلِفُونَ } ، أو هو من جملة كلامهم ، والقول مراد في الوجهين أي سيحلفون . يعني المتخلفين . عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، أو سيحلفون بالله يقولون لو استطعنا.
وقوله سد مسد جوابي القسم و { عَلَيْهِمْ لَوْ } [النساء : 39] جميعاً.
ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا { يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ } [التوبة : 42] بدل من { سَيَحْلِفُونَ } أو حال منه أي مهلكين ، والمعنى أنهم يهلكونها بالحلف الكاذب ، أو حال من { لَخَرَجْنَا } أي لخرجنا معكم وإن أهلكنا
184
أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها على المسير في تلك الشقة { وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [التوبة : 42] فيما يقولون.
{ عَفَا اللَّهُ عَنكَ } [التوبة : 43] كناية عن الزلة لأن العفو رادف لها وهو من لطف العتاب بتصدير العفو في الخطاب ، وفيه دلالة فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء عليهم السلام { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } [التوبة : 43] بيان لما كنى عنه بالعفو ، ومعناه مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلّوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن { حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } [التوبة : 43] يتبين لك الصادق في العذر من الكاذب فيه.
وقيل : شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين ، وأخذه الفدية من الأساري ، فعاتبه الله.
وفيه دليل جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام لأنه عليه السلام إنما فعل ذلك بالاجتهاد ، وإنما عوتب مع أن له ذلك لتركه الأفضل وهم يعاتبون على ترك الأفضل { لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ أَن يُجَاهِدُوا } ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا { بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالْمُتَّقِينَ } [التوبة : 44] عدة لهم بأجزل الثواب.
جزء : 2 رقم الصفحة : 184
{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ } يعني المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً {

وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ } [التوبة : 45] شكوا في دينهم واضطربوا في عقيدتهم { فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ } [التوبة : 45] يتحيرون لأن التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المتبصر { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لاعَدُّوا لَهُ } [التوبة : 46] للخروج أو للجهاد { عِدَّةَ } أهبة لأنهم كانوا مياسير ، ولما كان { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ } [التوبة : 46] معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل : { وَلَـاكِن كَرِهَ اللَّهُ انابِعَاثَهُمْ } [التوبة : 46] نهوضهم للخروج كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم { فَثَبَّطَهُمْ } فكسلهم وضعف

185

(112/2)

رغبتهم في الانبعاث والتثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه { وَقِيلَ اقْعُدُوا } [التوبة : 46] أي قال بعضهم لبعض ، أو قاله الرسول عليه السلام غضباً عليهم ، أو قاله الشيطان بالوسوسة { مَعَ الْقَاعِدِينَ } [التوبة : 46] هو ذم لهم وإلحاق بالنساء والصبيان والزمني الذين شأنهم القعود في البيوت.

{ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ } [التوبة : 47] بخروجهم معكم { إِلا خَبَالا } [التوبة : 47] إلا فساداً وشراً ، والاستثناء متصل لأن المعنى ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً ، والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك " ما زداوكم خيراً إلا خبالاً والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور ، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء فكان استثناء متصلاً لأن الخبال بعضه { وَلاوْضَعُوا خِلَالَكُمْ } [التوبة : 47] ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وإفساد ذات البين.

يقال : وضع البعير وضعاً إذا أسرع.

وأوضعته أنا.

والمعنى ولأوضعوا ركائبهم بينكم ، والمراد الإسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشي.

وخط في المصحف { وَلا } بزيادة الألف لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي ، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن وقد بقي من تلك

الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ونحوه { أَوْ لا } (النمل : 12) { خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ } [التوبة : 47] حال من الضمير في { إِلَى الْفِتْنَةِ } [النساء : 91] أي يطلبون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم { وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ } [التوبة : 47] أي نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم { وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ } [البقرة : 95] بالمنافقين { لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ } [التوبة : 48] بصد الناس أو بأن يفتكوا به عليه السلام ليلة العقبة ، أو بالرجوع

يوم أحد { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] من قبل غزوة تبوك { وَقَلَّبُوا لَكَ الامُورَ } [التوبة : 48] ودبروا لك الحيل والمكايد ودوّروا الآراء في إبطال أمرك { حَتَّى جَآءَ الْحَقُّ } [التوبة : 48] وهو تأييدك ونصرك { وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ } [التوبة : 48] وغلب دينه وعلا شرعه { وَهُمْ كَارِهُونَ } [التوبة : 48] أي على رغم منهم.

186

جزء : 2 رقم الصفحة : 184

جزء : 2 رقم الصفحة : 187

(113/2)

{ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّى } [التوبة : 49] ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت ، أولا تلقني في الهلكة فإني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي.

وقيل : قال الجد بن قيس المنافق : قد علمت الأنصار إني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر . يعني نساء الروم . ولكني أعينك بمالي فاتركني { أَلا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا } [التوبة : 49] يعني أن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُ بِالْكَافِرِينَ } [التوبة : 49] الآن لأن أسباب الإحاطة معهم أو هي تحيط بهم يوم القيامة { إِن تُصِبْكَ } [التوبة : 50] في بعض الغزوات { حَسَنَةٌ } ظفر وغنيمة { تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ } [التوبة : 50] نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى يوم أحد { يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا } [التوبة : 50] الذي نحن متسمون به من الحذ والتيقظ والعمل بالحزم { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] من قبل ما وقع { وَيَتَوَلَّوا } عن مقام التحدث بذلك إلى أهاليهم { وَّهُمْ فَرِحُونَ } [التوبة : 50] مسرورون { قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } [التوبة : 51] أي قضي من خير أو شر { هُوَ مَوْلَانَا } [التوبة : 51] أي الذي يتولانا ونتولاه { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [آل عمران : 122] وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ } [التوبة : 52] تنتظرون بنا { إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ } [التوبة : 52] وهما النصرة والشهادة { وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ } [التوبة : 52] إحدى السوءيين إما { أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ } [التوبة : 52] وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود { أَوْ } بعذاب { بِأَيْدِينَا } وهو القتل على الكفر { فَتَرَبَّصُوا } بنا ما ذكرنا { إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ } [التوبة : 52] ما هو عاقبتكم

187

{ قُلْ أَنفِقُوا } [التوبة : 53] في وجوه البر { طَوْعًا أَوْ كَرْهًا } [فصلت : 11] طائعين أو مكرهين نصب على الحال.

{ كَرْهًا } حمزة وعلي وهو أمر في معنى الخبر ومعناه { لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ } [التوبة : 53] أنفقتم طوعاً

أو كرهاً ونحوه { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } [التوبة : 80] (التوبة : 08) وقوله :
جزء : 2 رقم الصفحة : 187
أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة
لدينا ولا مقلية إن تقلت
أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، ولا نلومك أسأت إلينا أو أحسنت ، وقد جاز عكسه في قولك " رحم الله زيداً " ، ومعنى عدم القبول أنه عليه السلام يردها عليهم ولا يقبلها أو لا يثيبها الله.
وقوله { طَوْعًا } أي من غير إلزام من الله ورسوله و { كَرْهًا } أي ملزمين ، وسمي الإلزام إكراهاً لأنهم منافقون فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه { إِنَّكُمْ } تعليل لرد إنفاقهم { كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ } [التوبة : 53] متمردين عاتين.
{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ } [التوبة : 54] وبالياء : حمزة وعلي { إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا } [التوبة : 54] أنهم فاعل " منع " وهم و { أَن تُقْبَلَ } [التوبة : 54] مفعولاه أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم { بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلَواةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى } [التوبة : 54] جمع كسلان { وَلا يُنفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ } [التوبة : 54] لأنهم لا يريدون بها وجه الله تعالى ، وصفهم بالطوع في قوله { طَوْعًا } وسلبه عنهم ههنا لأن المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذلك إلا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار.
{ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا } الإعجاب بالشيء أن تسر به سرور راضٍ به متعجب من حسنه ، والمعنى فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا فإن الله إنما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها ، أو بالإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له ، أو بنهب أموالهم وسبي
188

(114/2)

أولادهم ، أو بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والخوف عليها وكل هذا عذاب { وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 55] وتخرج أرواحهم ، وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ، ودلت الآية على بطلان القول بالأصلح لأنه أخبر أن إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر وعلى إرادة الله تعالى المعاصي ، لأن إرادة العذاب بإرادة ما يعذب عليه ، وكذا إرادة الإماتة على الكفر
جزء : 2 رقم الصفحة : 187
{ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ } [التوبة : 56] لمن جملة المسلمين { وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَاكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ } [التوبة : 56] يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالإسلام تقية { لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا }

[التوبة : 57] مكاناً يلجئون إليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة { أَوْ مَغَارَاتٍ } [التوبة : 57] أو غيراناً { أَوْ مُدَّخَلا } [التوبة : 57] أو نفقاً يندسون فيه وهو مفتعل من الدخول { ءَاوَى إِلَيْهِ } لأقبلوا نحوه { وَهُمْ يَجْمَحُونَ } [التوبة : 57] يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء من الفرس الجموح { وَمِنْهُمُ } ومن المنافقين { مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } [التوبة : 58] يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك { فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } [التوبة : 58] " إذا " للمفاجأة أي وإن لم يعطوا منها فاجئوا السخط ، وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله ، لأنه عليه السلام استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه.

جزء : 2 رقم الصفحة : 187

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُا إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } [التوبة : 59] جواب " لو " محذوف تقديره : ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم ، والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قل نصيبهم وقالوا : كفانا فضل الله وصنعه ، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أكثر مما آتانا اليوم إنا إلى الله في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون ثم بين مواضعها التي توضع فيها فقال :

189

{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ } [التوبة : 60] قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة أي هي مختصة بهم لا تتجاوز إلى غيرهم كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم كقولك " إنما الخلافة لقريش " تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم ، فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها ، وأن تصرف إلى بعضها كما هو مذهبنا ، وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين أنهم قالوا : في أي صنف منها وضعتها أجزأك.

وعند الشافعي رحمه الله : لا بد من صرفها إلى الأصناف وهو المروي عن عكرمة.

ثم الفقير الذي لا يسأل لأن عنده ما يكفيه للحال والمسكين الذي يسأل لأنه لا يجد شيئاً فهو أضعف حالاً منه ، وعند الشافعي رحمه الله على العكس { وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا } [التوبة : 60] هم السعادة الذين يقبضونها { وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ } [التوبة : 60] على الإسلام أشراف من العرب ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يتألفهم على أن يسلموا وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريراً لهم على الإسلام { وَفِى الرِّقَابِ } [البقرة : 177] هم المكاتبون يعانون منها { وَالْغَارِمِينَ } الذين ركبتهم الديون { وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة : 60] فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم { وَابْنِ السَّبِيلِ } [الانفال : 41] المسافر المنقطع عن ماله ، وعدل عن اللام إلى " في " في الأربعة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن " في " للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها.

وتكرير " في " في قوله
جزء : 2 رقم الصفحة : 187

(115/2)

{ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ } [التوبة : 60] فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.
وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات حاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم ، حسماً لأطماعهم وإشعاراً بأنهم بعداء عنها وعن مصارفها ، فما لهم وما لها ، وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها وسهم المؤلفة قلوبهم سقط بإجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأن الله أعز الإسلام وأغنى عنهم ، والحكم متى ثبت معقولاً لمعنى خاص يرتفع وينتهي بذهاب ذلك المعنى { فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ } [النساء : 11] في معنى المصدر المؤكد لأن قوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ } [التوبة : 60] معناه فرض الله الصدقات لهم { وَاللَّهُ عَلِيمُ } [البقرة : 95] بالمصلحة { حَكِيمٌ } في القسمة.
190
{ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ } [التوبة : 61] الأذن الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد ، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته أذن سامعة ، وإيذاؤهم له هو قولهم فيه { هُوَ أُذُنٌ } [التوبة : 61] قصدوا به المذمة وأنه من أهل سلامة القلوب والعزة ، ففسره الله تعالى بما هو مدح له وثناء عليه فقال { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } [التوبة : 61] كقولك " رجل صدق " تريد الجودة والصلاح كأنه قيل : نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ، ويجوز أن يريد هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بأذن في غير ذلك.
ثم فسر كونه أذن خير بأنه { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ } [الحاقة : 33] أي يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } [التوبة : 61] ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار ، وعدي فعل الإيمان بالباء إلى الله ، لأنه قصد به التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به ، وإلى المؤمنين باللام لأنه قصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده ، ألا ترى إلى قوله { وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا } [يوسف : 17] (يوسف : 71) كيف ينبو عن الباء { وَرَحْمَةٌ } بالعطف على { أُذُنٌ } { وَرَحْمَةٌ } : حمزة عطف على { خَيْرٌ } أي هو أذن خير وأذن رحمة لا يسمع غيرها ولا يقبله { لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ } [التوبة : 61] أي وهو رحمة الذين آمنوا منكم أي أظهروا الإيمان أيها المنافقون حيث يقبل إيمانكم الظاهر ولا يكشف أسراركم ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، أو هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان ويشفع لهم في الآخرة بإيمانهم في الدنيا { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة : 61] في الدارين.

جزء : 2 رقم الصفحة : 187

جزء : 2 رقم الصفحة : 191

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } [التوبة : 62] الخطاب للمسلمين ، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم فقيل لهم { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُا أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ } [التوبة : 62] أي إن كنتم مؤمنين كما تزعمون ، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق.

وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله

191

(116/2)

فكانا في حكم شيء واحد كقولك " إحسان زيد وإجماله رفعني " أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ } [التوبة : 63] أن الأمر والشأن { مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [التوبة : 63] يجاوز الحد بالخلاف وهي مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق { فَأَنَّ لَهُ } [طه : 74] على حذف الخبر أي فحق أن له { نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَالِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ * يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ } خبر بمعنى الأمر أي ليحذر المنافقون { أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ } [التوبة : 64] { تُنَزَّلَ } بالتخفيف : مكي وبصري { تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ } [التوبة : 64] من الكفر والنفاق ، والضمائر للمنافقين لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم دليله { قُلِ اسْتَهْزِءُوا } [التوبة : 64] ، أو الأولان للمؤمنين ، والثالث للمنافقين ، وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه { قُلِ اسْتَهْزِءُوا } [التوبة : 64] أمر تهديد { إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ } [التوبة : 64] مظهر ما كنتم تحذرونه أي تحذرون إظهاره من نفاقكم ، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم وفي استهزائهم بالإسلام وأهله حتى قال بعضهم : وددت أنى قدّمت فجلدت مائة وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا { وَلَاإِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } [التوبة : 65] بينا رسول الله يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيهات هيهات.

فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : احبسوا عليّ الركب فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا.

فقالوا : يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر ، أي ولئن سألتهم وقلت لهم لم قلتم ذلك؟ لقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب

جزء : 2 رقم الصفحة : 191

{ قُلْ } يا محمد
192
{ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ } لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه ، فجعلوا كأنهم معترفون ، باستهزائهم وبأنه موجود فيهم حتى وبخوا بإخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير ، وذلك إنما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء { لا تَعْتَذِرُوا } [التوبة : 66] لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم { قَدْ كَفَرْتُم } [التوبة : 66] قد أظهرتم كفركم باستهزائكم { بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } [التوبة : 66] بعد إظهاركم الإيمان { إِن نَّعْفُ عَن طَآ ئِفَةٍ مِّنكُمْ } بتوبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق { نُعَذِّبْ طَآ ئِفَةَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } [التوبة : 66] مصرين على النفاق غير تائبين منه { أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ } غير عاصم.
{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ } [التوبة : 67] الرجال المنافقون كانوا ثلثمائة والنساء المنافقات مائة وسبعين { بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ } [التوبة : 67] أي كأنهم نفس واحدة ، وفيه نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في قولهم { وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ } [التوبة : 56] وتقرير لقوله { وَمَا هُم مِّنكُمْ } [التوبة : 56] ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال { يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ } [التوبة : 67] بالكفر والعصيان { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ } [التوبة : 67] عن الطاعة والإيمان { وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ } [التوبة : 67] شحاً بالمبارّ والصدقات والإنفاق في سبيل الله { نَسُوا اللَّهَ } [الحشر : 19] تركوا أمره أو أغفلوا ذكره { فَنَسِيَهُمْ } فتركهم من رحمته وفضله { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [التوبة : 67] هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير ، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم

(117/2)

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا } [التوبة : 68] مقدرين الخلود فيها { هِيَ } أي النار { حَسْبُهُمْ } فيه دلالة على عظم عذابها وأنه بحيث لا يزاد عليه { وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ } [التوبة : 68] وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين { وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } [المائدة : 37] دائم معهم في العاجل لا ينفكون عنه وهو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.
193
الكاف في { كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم

بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ } محلها رفع أي أنتم مثل الذين من قبلكم ، أو نصب على فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا بخلاقهم أي تلذذوا بملاذ الدنيا.

والخلاق النصيب مشتق من الخلق وهو التقدير أي ما خلق للإنسان بمعنى قدر من خير { وَخُضْتُمْ } في الباطل { كَالَّذِي خَاضُوا } [التوبة : 69] كالفوج الذي خاضوا ، أو كالخوض الذي خاضوا. والخوض الدخول في الباطل واللهو ، وإنما قدم { فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ } [التوبة : 69] وقوله (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم } مغن عنه ليذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم { أُولَائِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُّدنْيَا وَالاخِرَةِ } [التوبة : 69] في مقابلة قوله { وَوَهَبْنَا لَهُا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } [العنكبوت : 27] { وَأُولَائِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [التوبة : 69] ثم ذكر نبأ من قبلهم فقال :

جزء : 2 رقم الصفحة : 191

{ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ } [التوبة : 70] هو بدل من { الَّذِينَ } { وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ } [التوبة : 70] وأهل مدين وهم قوم شعيب { وَالْمُؤْتَفِكَاتِ } مدائن قوم لوط ، وائتفاكهن انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر { أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ } [التوبة : 70] فما صح منه أن يظلمهم بإهلاكهم لأنه حكيم فلا يعاقبهم بغير جرم { وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57] بالكفر وتكذيب الرسل { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [التوبة : 71] في التناصر والتراحم

194

{ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } [التوبة : 71] بالطاعة والإيمان { وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران : 104] عن الشرك والعصيان { وَيُقِيمُونَ الصَّلَواةَ وَيُؤْتُونَ الزكاة وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُا أُولَائِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ } [التوبة : 71] السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في " سأنتقم منك يوماً " { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } غالب على كل شيء قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب { حَكِيمٌ } واضع كلا موضعه { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً } [التوبة : 72] يطيب فيها العيش وعن الحسن رحمه الله : قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد { فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ } [الصف : 12] هو علم بدليل قوله { جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَانُ } [مريم : 61] (مريم : 16) وقد عرفت أن " الذي " و " التي " وضعا لوصف المعارف بالجمل وهي مدينة في الجنة { وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ } [التوبة : 72] وشيء من رضوان الله { أَكْبَرُ } من ذلك كله لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة { ذَالِكَ } إشارة إلى ما وعد أو إلى الرضوان { هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة : 72] وحده دون ما يعده الناس فوزاً.

جزء : 2 رقم الصفحة : 191

{ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ } بالسيف { وَالْمُنَافِقِينَ } بالحجة { وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التوبة : 73] في الجهادين جميعاً ولا تحابهم ، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها

جزء : 2 رقم الصفحة : 195

{ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } جهنم.

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه.

منهم الجلاس بن سويد فقال : والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لأخواننا الذين خلّفناهم وهم سادتنا فنحن شر من الحمير.

فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس : أجل والله إن محمداً صادق وأنت شر من الحمار.

195

وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم فاستحضر فحلف بالله ما قال ، فرفع عامر يده فقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ } [التوبة : 74] يعني إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير ، أو هي استهزاؤهم فقال الجلاس : يا رسول الله والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته { وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ } [التوبة : 74] وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام ، وفيه دلالة على أن الإيمان والإسلام واحد لأنه قال { وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ } [التوبة : 74] { وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا } [التوبة : 74] من قتل محمد عليه السلام أو قتل عامر لرده على الجلاس.

وقيل : أرادوا أن يتوجوا ابن أبي وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلّم { وَمَا نَقَمُوا } [التوبة : 74] وما أنكروا وما عابوا { إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ } [التوبة : 74] وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، فآثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى { فَإِن يَتُوبُوا } [التوبة : 74] عن النفاق { يَكُ } التوب { خَيْرًا لَّهُمْ } [محمد : 21] وهي الآية التي تاب عندها الجلاس { وَإِن يَتَوَلَّوْا } [التوبة : 74] يصروا على النفاق { يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ } [التوبة : 74] بالقتل والنار

جزء : 2 رقم الصفحة : 195

{ وَمَا لَهُمْ فِى الارْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [التوبة : 74] ينجيهم من العذاب.

{ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ } [التوبة : 75] روي أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ادع الله يرزقني مالاً فقال عليه السلام : " يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه " فراجعه وقال : والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالاً لأعطين كل حق حقه.

فدعا له فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل وادياً

(119/2)

وانقطع عن الجمعة والجماعة ، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ فقال : " يا ويح ثعلبة " فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم مصدّقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : ما هذه إلا جزية وقال : ارجعا حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم قبل أن يكلماه : " يا ويح ثعلبة " مرتين ، فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال : إن الله منعني أن أقبل منك فجعل التراب على رأسه ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه { لَاإِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ } [التوبة : 75] أي المال { لَنَصَّدَّقَنَّ } لنخرجن الصدقة والأصل " لنتصدقن " ولكن التاء أدغمت في الصاد لقربها منها { وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } [التوبة : 75] بإخراج الصدقة { فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ } [التوبة : 76] أعطاهم الله المال ونالوا مناهم { بَخِلُوا بِهِ } [التوبة : 76] منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد { وَتَوَلَّوا } عن طاعة الله { وَّهُم مُّعْرِضُونَ } [آل عمران : 23] مصرون على الإعراض.

{ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ } [التوبة : 77] فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم لأنه كان سبباً فيه { إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ } [التوبة : 77] أي جزاء فعلهم وهو يوم القيامة { بِمَآ أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [التوبة : 77] بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدق والصلاح وكونهم كاذبين ، ومنه جعل خلف الوعد ثلث النفاق.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا } [التوبة : 104] يعني المنافقين { أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ } [التوبة : 78] ما أسروه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعدوه { وَنَجْوَاهُم } وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها { وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [التوبة : 78] فلا يخفى عليه شيء

{ الَّذِينَ } محله النصب أو الرفع على الذم ، أو الجر على البدل من الضمير في { سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم } [الزخرف : 80] { يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ } [التوبة : 79] يعيبون المطوعين المتبرعين { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

فِي الصَّدَقَاتِ } [التوبة : 79] متعلق بـ { يَلْمِزُونَ } .
روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي فقال عليه السلام : " بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت " فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً ، وتصدق عاصم بمائة وسق من تمر { وَالَّذِينَ } عطف على { الْمُطَّوِّعِينَ } { لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ } [التوبة : 79] طاقتهم.
وعن نافع { جُهْدَهُمْ } وهما واحد.
وقيل : الجهد الطاقة والجهد المشقة وجاء أبو عقيل بصاعٍ من تمر فقال : بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لعيالي ، وجئت بصاع فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وأما صاع أبي عقيل فالله غني عنه { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ } [التوبة : 79] فيهزءون { سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } [التوبة : 79] جازاهم على سخريتهم وهو خبر غير دعاء { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة : 174] مؤلم.
ولما سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يستغفر لأبيه في مرضه نزل { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } [التوبة : 80] وقد مر أن هذا الأمر في معنى الخبر كأنه قيل : لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم

{ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [التوبة : 80] والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير وليس على التحديد والغاية ، إذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر لهم لأنهم كفار والله لا يغفر لمن كفر به ، والمعنى وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم.
وقد وردت الأخبار بذكر السبعين وكلها تدل على الكثرة لا على التحديد والغاية ، ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد أن العدد قليل وكثير ، فالقليل ما دون الثلاث ، والكثير الثلاث فما فوقها ، وأدنى الكثير الثلاث وليس لأقصاه غاية.
والعدد أيضاً نوعان : شفع ووتر ، وأول الإشفاع اثنان ، وأول الأوتار ثلاثة ، والواحد ليس بعدد ، والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين لأن فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة ، والعشرة كمال الحساب لأن ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة كقولك " اثنا عشر وثلاثة عشرة " إلى " عشرين " ، والعشرون تكرير العشرة مرتين ، والثلاثون تكريرها ثلاث مرات وكذلك إلى مائة ، فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه ، وكمال الحساب والكثرة منه ، فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من

كل وجه ولا غاية لأقصاه فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى والله أعلم { ذَالِكَ } إشارة إلى اليأس من المغفرة { بِأَنَّهُمْ } بسبب أنهم { كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [التوبة : 80] ولا غفران لكافرين { وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [المائدة : 108] الخارجين عن الإيمان ما داموا مختارين للكفر والطغيان { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ } [التوبة : 81] المنافقون الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأذن لهم وخلّفهم بالمدينة في غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان { بِمَقْعَدِهِمْ } بقعودهم عن الغزو { خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ } [التوبة : 81] مخالفة له وهو مفعول له ، أو حال أي قعدوا لمخالفته أو مخالفين له { وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ } أي لم يفعلوا ما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله ، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان { وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِى الْحَرّ } [التوبة : 81] قال بعضهم لبعض أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } [التوبة : 81] استجهال لهم لأن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل.

199

جزء : 2 رقم الصفحة : 195

{ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا } [التوبة : 82] أي فيضحكون قليلاً على فرحهم بتخلفهم في الدنيا ويبكون كثيراً جزاء في العقبى ، إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره.

أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم

جزء : 2 رقم الصفحة : 200

(121/2)

{ جَزَآءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [التوبة : 82] من النفاق { فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ } [التوبة : 83] أي ردك من تبوك.

وإنما قال { إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ } [التوبة : 83] لأن منهم من تاب من النفاق ومنهم من هلك { فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ } إلى غزوة بدر غزوة تبوك { فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا } [التوبة : 83] وبسكون الياء : حمزة وعلي وأبو بكر { وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا } [التوبة : 83] { مَعِىَ } حفص { إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة : 83] أول ما دعيتم إلى غزوة تبوك { فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } [التوبة : 83] مع من تخلف بعد.

وسأل ابن عبد الله بن أبي وكان مؤمناً أن يكفن النبي صلى الله عليه وسلّم أباه في قميصه ويصلي عليه فقبل ، فاعترض عمر رضي الله عنه في ذلك فقال عليه السلام : " ذلك لا لا ينفعه وإني أرجو

أن يؤمن به ألف من قومه " فنزل { وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم } [التوبة : 84] من المنافقين يعني صلاة الجنازة.

روي أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبي صلى الله عليه وسلّم { مَّاتَ } صفة لـ { أَحَدٍ } { أَبَدًا } ظرف لـ { تُصَلِّ } وكان عليه السلام إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فقيل : { وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة : 84] تعليل للنهي أي أنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم لأنهم كفروا بالله ورسوله { وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } التكرير للمبالغة والتأكيد وأن يكون على بال من المخاطب لا ينساه وأن يعتقد أنه مهم ، ولأن كل آية في فرقة غير الفرقة الأخرى.

200

{ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ } [التوبة : 86] يجوز أن يراد سورة بتمامها وأن يراد بعضها كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه

جزء : 2 رقم الصفحة : 200

{ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ } [التوبة : 86] بأن آمنوا أو هي " أن " المفسرة { وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ } ذوو الفضل والسعة { وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ } [التوبة : 86] مع الذين لهم عذر في التخلف كالمرضى والزمنى { رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ } [التوبة : 87] أي النساء جمع " خالفة " { وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [التوبة : 87] ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق { فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ } [التوبة : 87] ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الهلاك والشقاوة { لَاكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ } أي إن تخلف هؤلاء فقد نهض إلى الغزو من هو خير منهم { وَأُولَائِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ } [التوبة : 88] تناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ.

وقيل : الحور لقوله { فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ } [الرحمن : 70] (الرحمن : 07) { وَأُولَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة : 5] الفائزون بكل مطلوب { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة : 89] قوله { أَعَدَّ } دليل على أنها مخلوقة.

جزء : 2 رقم الصفحة : 200

{ وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الاعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ } [التوبة : 90] هو من عذّر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما فعل ولا عذر له ، أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين وهم الذين يعتذرون بالباطل قيل : هم أسد وغطفان قالوا : إن لنا عيالاً وإن بنا جهداً فأذن لنا في التخلف { وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [التوبة : 90] هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان { سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ } [التوبة : 90] من الأعراب

201

{ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة : 104] في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار { لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ } [التوبة : 91] الهرمى والزمنى { وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ } [التوبة : 91] هم الفقراء من مزينة وجهينة وبني عذرة { حَرَجٌ } إثم وضيق في التأخر { إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا كما يفعل الناصح بصاحبه { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ } [التوبة : 91] المعذورين النّاصحين { مِن سَبِيلٍ } [غافر : 11] أي لا جناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم { وَاللَّهُ غَفُورٌ } [البقرة : 225] يغفر تخلفهم { رَّحِيمٌ } بهم { وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ } لتعطيهم الحمولة { قُلْتَ } حال من الكاف في { أَتَوْكَ } و " قد " قبله مضمرة أي إذا ما أتوك قائلاً { لا أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا } [التوبة : 92] هو جواب " إذا " { وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ } [التوبة : 92] أي تسيل كقولك " تفيض دمعاً " وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض و " من " للبيان كقولك " أفديك من رجل " ، ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز ، ويجوز أن يكون { قُلْتَ لا أَجِدُ } [التوبة : 92] استئنافاً كأنه قيل : إذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل : ما لهم تولوا باكين؟ فقيل : { قُلْتَ لا أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ } [التوبة : 92] إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض { حَزَنًا } مفعول له { أَلا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ } [التوبة : 92] لئلا يجدوا ما ينفقون ومحله نصب على أنه مفعول له ، وناصبة { حَزَنًا } والمستحملون أبو موسى الأشعري وأصحابه ، أو البكاؤن وهم ستة نفر من الأنصار.

جزء : 2 رقم الصفحة : 200

{ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ } في التخلف { يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ } [التوبة : 93] وقوله { رَضُوا } استئناف كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل : رضوا

202

{ بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ } [التوبة : 87] أي بالانتظام في جملة الخوالف { إِلَيْكُمْ }

جزء : 2 رقم الصفحة : 202

يقيمون لأنفسهم عذراً باطلاً { إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ } [التوبة : 94] من هذه السفرة { قُل لا تَعْتَذِرُوا } [التوبة : 94] بالباطل { لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ } [التوبة : 94] لن نصدقكم وهو علة للنهي عن الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به { قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ } [التوبة : 94] علة لانتفاء تصديقهم لأنه تعالى إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم { وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ } [التوبة : 94] أتتيبون أم تثبتون على كفركم { ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } [التوبة : 94] أي تردون إليه وهو عالم كل سر وعلانية { فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [المائدة : 105] فيجازيكم على حسب ذلك.

{ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ } [التوبة : 95] لتتركوهم ولا توبخوهم { فَأَعْرِضُوا

عَنْهُمْ } [التوبة : 95] فأعطوهم طلبتهم { إِنَّهُمْ رِجْسٌ } [التوبة : 95] تعليل لترك معاتبتهم أي أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم لأنهم أرجاسٍ لا سبيل إلى تطهيرهم { لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ } ومصيرهم النار يعني وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً فلا تتكلفوا عتابهم { جَزَآءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [التوبة : 82] أي يجزون جزاء كسبهم { يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ } [التوبة : 96] أي غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم { فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [التوبة : 96] أي فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها ، وإنما قيل ذلك لئلا يتوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم.

جزء : 2 رقم الصفحة : 202

{ الاعْرَابُ } أهل البدو { أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا } [التوبة : 97] من أهل الحضر لجفائهم

203

(123/2)

وقسوتهم وبعدهم عن العلم والعلماء { وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا } [التوبة : 97] وأحق بأن لا يعلموا { حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ } [التوبة : 97] يعني حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام ومنه قوله عليه السلام : " إن الجفاء والقسوة في الفدادين " يعني الأكرة لأنهم يفدون أي يصيحون في حروثهم والفديد الصياح { وَاللَّهُ عَلِيمُ } [البقرة : 95] بأحوالهم { حَكِيمٌ } في إمهالهم { وَمِنَ الاعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ } [التوبة : 98] أي يتصدق { مَغْرَمًا } غرامة وخسراناً لأنه لا ينفق إلا تقيّة من المسلمين ورياء لا لوجه الله وابتاء المثوبة عنده { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآ ئِرَ } [التوبة : 98] أي دوائر الزمان وتبدل الأحوال بدور الأيام لتذهب غلبتكم عليه فيتخلص من إعطاء الصدقة { عَلَيْهِمْ دَآ ئِرَةُ السَّوْءِ } [التوبة : 98] أي عليهم تدور المصائب والحروب التي يتوقعون وقوعها في المسلمين.

{ السَّوْءِ } مكي وأبو عمرو وهو العذاب ، و { السَّوْءِ } بالفتح ذم للدائرة كقولك " رجل سوء " في مقابلة قولك " رجل صدق " { وَاللَّهُ سَمِيعٌ } [البقرة : 224] لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة { عَلِيمٌ } بما يضمرون.

{ وَمِنَ الاعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ } [التوبة : 99] في الجهاد والصدقات { قُرُبَاتٍ } أسباباً للقبة { عِندَ اللَّهِ } [الحجرات : 13] وهو مفعول ثان لـ { يَتَّخِذُ } { وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ } [التوبة : 99] أي دعاءه لأنه عليه السلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله " اللهم صل على آل أبي أوفى " { أَلا إِنَّهَا } [التوبة : 99] أي النفقة أو صلوات الرسول

جزء : 2 رقم الصفحة : 202

{ قُرْبَةٌ لَّهُمْ } [التوبة : 99] { قُرْبَةٌ } نافع.

وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات ، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه ، والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه ، وكذلك { سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ } [التوبة : 99] أي جنته وما في السين من تحقيق الوعد ، وما أدل هذا الكلام على رضا الله من المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها
204
{ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } [البقرة : 235] يستر عيب المخل { رَّحِيمٌ } يقبل جهد المقل { وَالسَّابِقُونَ } مبتدأ { الاوَّلُونَ } صفة لهم { مِنَ الْمُهَاجِرِينَ } [التوبة : 100] تبيين لهم وهم الذين صلوا إلى القبلتين ، أو الذين شهدوا بدراً أو بيعة الرضوان { وَالانصَارِ } عطف على { الْمُهَاجِرِينَ } أي ومن الأنصار وهم أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين { وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ } [التوبة : 100] من المهاجرين والأنصار فكانوا سائر الصحابة.
وقيل : هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة والخبر { رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ } [المائدة : 119] بأعمالهم الحسنة { وَرَضُوا عَنْهُ } [المجادلة : 22] بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية { وَأَعَدَّ لَهُمْ } [الأحزاب : 44] عطف على { رَّضِىَ } { جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الانْهَارُ } [التوبة : 100] { مِن تَحْتِهَا } [مريم : 24] : مكي { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } .
جزء : 2 رقم الصفحة : 202
{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم } [التوبة : 101] يعني حول بلدتكم وهي المدينة { مِّنَ الاعْرَابِ مُنَافِقُونَ } [التوبة : 101] وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار وكانوا نازلين حولها { وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ } [التوبة : 101] عطف على خبر المبتدأ الذي هو { وَمِمَّنْ حَوْلَكُم } والمبتدأ { مُنَافِقُونَ } ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت " ومن أهل المدينة قوم " { مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } [التوبة : 101] أي تمهروا فيه على أن مردوا صفة موصوف محذوف ، وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ ، أو صفة لـ
جزء : 2 رقم الصفحة : 205

{ مُنَافِقُونَ } فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ، ودل على مهارتهم فيه بقوله { لا تَعْلَمُهُمْ } [التوبة : 101] أي يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم في تحامي ما يشككك في أمرهم.
ثم قال { نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ } [التوبة : 101] أي لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره ، لأنهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين { سَنُعَذِّبُهُم

مَّرَّتَيْنِ } [التوبة : 101] هما القتل وعذاب القبر ، أو الفضيحة وعذاب القبر ، أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم { ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } [التوبة : 101] أي عذاب النار.
205
{ وَءَاخَرُونَ } أي قوم آخرون سوى المذكورين { اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ } [التوبة : 102] أي لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا نادمين وكانوا عشرة ، فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم فدخل المسجد فصلى ركعتين ، كانت عادته كلما قدم من سفر فرآهم موثقين فسأل عنهم ، ففذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو الذي يحلهم فقال : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت ، فأطلقهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فنزل { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً } [التوبة : 103] { خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا } [التوبة : 102] خروجاً إلى الجهاد { وَءَاخَرَ سَيِّئًا } [التوبة : 102] تخلفاً عنه ، أو التوبة والإثم وهو من قولهم " بعت الشاء شاة ودرهما " أي شاة بدرهم ، فالواو بمعنى الباء لأن الواو للجمع والباء للإلصاق فيتناسبان ، أو المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به كقولك " خلطت الماء واللبن " تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه بخلاف قولك " خلطت الماء باللبن " لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به.
وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما كأنك قلت " خلطت الماء باللبن واللبن بالماء "
جزء : 2 رقم الصفحة : 205
{ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ولم يذكر توبتهم لأنه ذكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً } [التوبة : 103] كفارة لذنوبهم.
وقيل : هي الزكاة { تُطَهِّرُهُمْ } عن الذنوب وهو صفة لـ { صَدَقَةً } والتاء للخطاب أو لغيبة المؤنث. والتاء في { وَتُزَكِّيهِم } للخطاب لا محالة { بِهَا } بالصدقة والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ } [التوبة : 103] واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم ، والسنة أن يدعو المصدق لصاحب الصدقة إذا أخدها { إِنَّ صَلَواتَكَ } [التوبة : 103] كوفي غير أبي بكر.
قيل : الصلاة أكثر من الصلوات لأنها للجنس { صَلَواتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ } [التوبة : 103]
206
يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم { وَاللَّهُ سَمِيعٌ } [البقرة : 224] لدعائك أو سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم { عَلِيمٌ } بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم.
{ أَلَمْ يَعْلَمُوا } [التوبة : 104] المراد المتوب عليهم أي ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم

{ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [التوبة : 104] إذا صحت { وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ } [التوبة : 104] ويقبلها إذا صدرت على خلوص النية وهو للتخصيص أي إن ذلك ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم إنما الله هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها ووجهوها إليها { وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ } [التوبة : 104] كثير قبول التوبة { الرَّحِيمُ } يعفو الحوبة.

جزء : 2 رقم الصفحة : 205

(125/2)

{ وَقُلِ } لهؤلاء التائبين { اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } [التوبة : 105] أي فإن عملكم لا يخفى . خيراً كان أو شراً . على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم ، أو غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة ، فقد روي أنه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا : هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت.

وقوله تعالى { فَسَيَرَى اللَّهُ } [التوبة : 105].

وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة { وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ } [التوبة : 105] ما يغيب عن الناس { وَالشَّهَادَةِ } ما يشاهدونه { فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [المائدة : 105] تنبئة تذكير ومجازاة عليه { وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لامْرِ اللَّهِ } [التوبة : 106] بغير همز : مدني وكوفي غير أبي بكر.

غيرهم من أرجيته وأرجأته إذا أخرته ، ومنه المرجئة أي وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهر أمر الله فيهم { اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ } [التوبة : 106] إن أصروا ولم يتوبوا { وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ } [التوبة : 106] إن تابوا وهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ومرارة

207

بن الربيع ، تخلفوا عن غزوة تبوك وهم الذين ذكروا في قوله : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا } [التوبة : 118] { وَاللَّهُ عَلِيمُ } [البقرة : 95] برجائهم { حَكِيمٌ } في إرجائهم ، وإما للشك وهو راجع إلى العباد أي خافوا عليهم العذاب وارجو لهم الرحمة.

وروي أنه عليه السلام أمر أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا } [التوبة : 107] تقديره : ومنهم الذين اتخذوا.

{ الَّذِينَ } بغير واو.

مدني وشامي ، وهو مبتدأ خبره محذوف أي جازيناهم.

روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوانهم . بنو غنم بن عوف . وقالوا : نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله يصلي فيه ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام وهو الذي قال لرسول الله عليه السلام يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلّم : بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ونحن نحب أن تصلي لنا فيه فقال : " إني على جناح سفر وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه " .

فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت عليه فقال لوحشي . حمزة . ومعن بن عدي وغيرهما : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام

جزء : 2 رقم الصفحة : 205

{ ضِرَارًا } مفعول له وكذا ما بعد أي مضارة

208

(126/2)

لإخوانهم أصحاب مسجد قباء { وَكُفْرًا } وتقوية للنفاق { وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ } [التوبة : 107] لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم { وَإِرْصَادًا لِّمَنْ } [التوبة : 107] وإعداداً لأجل من { حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [التوبة : 107] وهو الراهب أعدوه له ليصلي فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

وقيل : كل مسجد بني مباهاة أو رياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] متعلق بـ { حَارَبَ } أي من قبل بناء هذا المسجد يعني يوم الخندق { وَلَيَحْلِفُنَّ } كاذبين { إِنْ أَرَدْنَآ إِلا الْحُسْنَى } [التوبة : 107] ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [التوبة : 107] في حلفهم { لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا } [التوبة : 108] للصلاة { لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى } [التوبة : 108] اللام للابتداء و { أَسَّاسَ } نعت له وهو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وصلى فيه أيام مقامه بقباء أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالمدينة { مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ } [التوبة : 108] من أيام وجوده.

قيل : القياس فيه منذ لأنه لابتداء الغاية في الزمان ، و " من " لابتداء الغاية في المكان ، والجواب إن من عام في الزمان والمكان { أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ } [التوبة : 108] مصلياً { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ } [التوبة : 108] قيل : لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلّم

ومعه المهاجرون حتى وقفوا على باب مسجد قباء ، فإذا لأنصار جلوس فقال : أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم.

ثم أعادها فقال عمر : يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال عليه السلام : " أترضون بالقضاء " ؟ قالوا : نعم.

قال : " أتصبرون على البلاء " ؟ قالوا : نعم.

قال : " أتشكرون في الرخاء " ؟ قالوا : نعم.

قال عليه السلام : " مؤمنون أنتم ورب الكعبة " .

فجلس ثم قال : " يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط " ؟ فقالوا : يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبي عليه السلام : { رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا } [التوبة : 108].

قيل : هو عام في التطهر عن النجاسات كلها.

وقيل : هو التطهر من الذنوب بالتوبة.

209

ومعنى محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء ، ومعنى محبة الله إياهم أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

جزء : 2 رقم الصفحة : 205

{ أَفَمَنْ أَسَّاسَ بُنْيَانَهُ } [التوبة : 109] وضع أساس ما يبنيه { أَفَمَنْ أَسَّاسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّاسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ } هذا سؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه ، والمعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وهي تقوى الله ورضوانه ، خير أم من أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك ، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى.

والشفا : الحرف والشفير ، وجرف الوادي : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً ، والهار الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط ، ووزنه فعل قصر عن فاعل كخلف من خالف ، وألفه ليس فاعل إنما هي عينه وأصله " هور " فقلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره

جزء : 2 رقم الصفحة : 210

{ أَفَمَنْ أَسَّاسَ بُنْيَانَهُ } [التوبة : 109] شامي ونافع { جُرُفٍ } شامي وحمزة ويحيى بالإمالة : أبو عمرو وحمزة في رواية ويحيى { هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ } [التوبة : 109] فطاح به الباطل في نار جهنم.

ولما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها.

قال جابر : رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار { وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة : 258] لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم { لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ } [التوبة : 110] لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم { إِلا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ } [التوبة : 110] شامي وحمزة وحفص أي تتقطع.

غيرهم { تَقَطَّعَ } أي إلا أن تقطع قلوبهم

قطعاً وتفر أجزاء فحينئذ يسلون عنه ، وأما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة ، ثم يجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة عنها ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار ، أو معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم { وَاللَّهُ عَلِيمُ } [البقرة : 95] بعزائمهم { حَكِيمٌ } في جزاء جرائمهم.

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } [التوبة : 111] مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء.

وروي : تاجرهم ، فأغلى لهم الثمن.

وعن الحسن : أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها.

ومر برسول الله صلى الله عليه وسلّم أعرابي وهو يقرؤها فقال : بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو واستشهد { يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ } [المزمل : 20] بيان محل التسليم { فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ } [التوبة : 111] أي تارة يقتلون العدو وطوراً يقتلهم العدو.

{ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ } [التوبة : 111] حمزة وعلي { وَعْدًا عَلَيْهِ } [التوبة : 111] مصدر أي وعدهم بذلك وعداً { حَقًّا } صفته ، أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته { فِي التَّوْرَاةِ وَالانجِيلِ وَالْقُرْءَانِ } [التوبة : 111] وهو دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه.

ثم قال { وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ } [التوبة : 111] لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكريم منا فكيف بأكرم الأكرمين ، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ { فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ } [التوبة : 111] فافرحوا غاية الفرح فإنكم تبيعون فانياً بباقٍ { وَذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة : 111] قال الصادق : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها.

جزء : 2 رقم الصفحة : 210
{ التَّائِبُونَ } رفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين ، أو هو مبتدأ خبره { الْعَابِدُونَ } أي الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة ، وما بعده خبر بعد خبر أي التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال.
وعن الحسن : هم الذين تابوا من الشرك وتبرءوا من النفاق { الْحَامِدُونَ }
211

(128/2)

على نعمة الإسلام { السَّائِحُونَ } الصائمون لقوله عليه السلام " سياحة أمتي الصيام " ، أو طلبة العلم لأنهم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه ، أو السائرون في الأرض للاعتبار { الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ } [التوبة : 112] المحافظون على الصلوات { الامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } [التوبة : 112] بالإيمان والطاعة { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ } [التوبة : 112] عن الشرك والمعاصي ودخلت الواو للإشعار بأن السبعة عقد تام ، أو للتضاد بين الأمر والنهي كما في قوله : { ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا } [التحريم : 5] (التحريم : 5) { وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ } [التوبة : 112] أوامره ونواهيه ، أو معالم الشرع { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [البقرة : 223] المتصفين بهذه الصفات.
وهمّ عليه السلام أن يستغفر لأبي طالب فنزل { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ } أي ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته { مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [التوبة : 113] من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك ، ثم ذكر عذر إبراهيم فقال { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لابِيهِ إِلا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ } [التوبة : 114] أي وعد أبوه إياه أن يسلم أو هو وعد أباه أن يستغفر وهو قوله { لاسْتَغْفِرَنَّ لَكَ } [الممتحنة : 4] (الممتحنة : 4) دليله قراءة الحسن { وَعَدَهَآ إِيَّاهُ } ومعنى استغفاره سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم أو سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له { فَلَمَّا تَبَيَّنَ } [
جزء : 2 رقم الصفحة : 210
التوبة : 114] من جهة الوحي { لَهُ } لإبرهيم { إِنَّهُ } أن أباه { عَدُوٌّ لِّلَّهِ } [التوبة : 114] بأن يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه { تَبَرَّأَ مِنْهُ } [التوبة : 114] وقطع استغفاره { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ } هو المتأوه شفقاً وفرقاً ، ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر { غَفُورٌ حَلِيمٌ } [البقرة : 225] هو الصبور على البلاء الصفوح عن الأذى ، لأنه كان يستغفر لأبيه وهو يقول لأرجمنك
212
{ يَتَّقُونَ } أي ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور ، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره

وعلمهم بأنه واجب الإمتثال ، وأما قبل العلم والبيان فلا ، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين ، والمراد بـ { مَّا يَتَّقُونَ } [التوبة : 115] ما يجب اتقاؤه للنهي ، فأما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف { أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة : 231].

جزء : 2 رقم الصفحة : 210

جزء : 2 رقم الصفحة : 213

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [البقرة : 107].

{ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ } [التوبة : 117] أي تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه كقوله { عَفَا اللَّهُ عَنكَ } [التوبة : 43] (التوبة : 34) { وَالْمُهَاجِرِينَ وَالانصَارِ } [التوبة : 117] فيه بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي صلى الله عليه وسلّم والمهاجرين والأنصار { الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ } [التوبة : 117] في غزوة تبوك ومعناه في وقتها.

والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق وكانوا في عسرة من الظهر يتعاقب العشرة على بعير واحد ، ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والإهالة الزنخة ، وبلغت بهم الشدة حتى اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء ، ومن الماء حتى نحروا الإبل وعصروا كرشها وشربوه ، وفي شدة زمان من حارّة القيظ ومن الجدب والقحط

213

(129/2)

{ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ } [التوبة : 117] عن الثبات على الإيمان أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه.

وفي { كَادَ } ضمير الشأن والجملة بعده في موضع النصب وهو كقولهم " ليس خلق الله مثله " أي ليس الشأن خلق الله مثله { يَزِيغُ } حمزة وحفص { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ } [التوبة : 117] تكرير للتوكيد { إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ } أي وتاب على الثلاثة وهم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وهو عطف على { النَّبِىُّ } { الَّذِينَ خُلِّفُوا } [التوبة : 118] عن الغزو { حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الارْضُ بِمَا رَحُبَتْ } [التوبة : 118] برحبها أي مع سعتها وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً { وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ } [التوبة : 118] أي قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لأنها حرجت من فرط الوحشة والغم { وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ } [التوبة : 118] وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ } [التوبة :

117] بعد خمسين يوماً { لِيَتُوبُوا } ليكونوا من جملة التوابين { إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة : 118] عن أبي بكر الوراق أنه قال : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة.

جزء : 2 رقم الصفحة : 213

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } في إيمانهم دون المنافقين ، أو مع الذين لم يتخلفوا ، أو مع الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً.

والآية تدل على أن الاجماع حجة لأنه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم { مَا كَانَ لاهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الاعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ } [التوبة : 120] المراد بهذا النفي النهي وخص هؤلاء بالذكر وإن استوى كل الناس في ذلك ،

214

لقربهم منه ولا يخفى عليه خروجه { وَلا يَرْغَبُوا } [التوبة : 120] ولا أن يضنوا { بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ } [التوبة : 120] عما يصيب نفسه أي لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شدة { ذَالِكَ } النهي عن التخلف { بِأَنَّهُمْ } بسبب أنهم { لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ } [التوبة : 120] عطش { وَلا نَصَبٌ } [التوبة : 120] تعب { وَلا مَخْمَصَةٌ } [التوبة : 120] مجاعة { فِى سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة : 38] في الجهاد { مَا كَانَ } ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم { يَغِيظُ الْكُفَّارَ } [التوبة : 120] يغضبهم ويضيق صدورهم { وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلا } [التوبة : 120] ولا يصيبون منهم إصابة بقتل أو أسر أو جرح أو كسر أو هزيمة { إِلا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ } [التوبة : 120] عن ابن عباس رضي الله عنهما : لكل روعة سبعون ألف حسنة.

يقال : نال منه إذا رزأه ونقصه وهو عام في كل ما يسوؤهم.

وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك ، وعلى أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، وقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلّم لا بني عامر وقد قدما بعد تقضي الحرب.

والموطىء إما مصدر كالمورد ، وإما مكان.

فإن كان مكاناً فمعنى

جزء : 2 رقم الصفحة : 213

{ يَغِيظُ الْكُفَّارَ } [التوبة : 120] يغيظهم وطؤه { إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [التوبة : 120] أي أنهم محسنون والله لا يبطل ثوابهم { وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً } [التوبة : 121] في سبيل الله { صَغِيرَةً } ولو تمرة { وَلا كَبِيرَةً } [الكهف : 49] مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة { وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا } [التوبة : 121] أي أرضاً في ذهابهم ومجيئهم وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل ، وهو في الأصل فاعل من " ودى " إذا سال ومنه الودي ، وقد شاع في الاستعمال بمعنى الأرض { إِلا كُتِبَ لَهُم } [التوبة : 120] من الإنفاق وقطع الوادي { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ } [النور : 38] متعلق بـ { كَتَبَ } أي أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء { أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [التوبة : 121] أي يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيراً لأجرهم.

جزء : 2 رقم الصفحة : 213

{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً } [التوبة : 122] اللام لتأكيد النفي أي أن نفير

215

الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للإفضاء إلى المفسدة { فَلَوْلا نَفَرَ } [التوبة : 122] فحين لم يكن نفير الكافة فهلا نفر { مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } [التوبة : 122] أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير { لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ } [التوبة : 122] ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق في تحصيلها { وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ } [التوبة : 122] وليجعلوا مرمى همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم { إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ } [التوبة : 122] دون الأغراض الخسيسة من التصدر والترؤس والتشبه بالظلمة في المراكب والملابس { لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } [التوبة : 122] ما يجب اجتنابه.

وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك بعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعاً عن التفقه في الدين ، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ، ويبقى سائرهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، إذ الجهاد بالحجاج أعظم أثراً من الجهاد بالنصال.

والضمير في { لِّيَتَفَقَّهُوا } للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم { وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ } [التوبة : 122] ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصّلوا في أيام غيبتهم من العلوم.

وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه { يَحْذَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم } يقربون منكم { مِّنَ الْكُفَّارِ } [التوبة : 123].

القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم ، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب.

وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلّم قومه ، ثم غيرهم من عرب الحجاز ، ثم الشام والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم { وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً } [التوبة : 123] شدة وعنفاً في المقال قبل القتال { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [البقرة : 194] بالنصرة والغلبة.

{ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ } [التوبة : 124] " ما " صلة مؤكدة { فَمِنْهُم } فمن المنافقين { مَّن يَقُولُ }

[العنكبوت : 10] بعضهم لبعض { أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَاذِهِ } [التوبة : 124] السورة { إِيمَانًا } إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين و { أَيُّكُمْ } مرفوع بالابتداء وقيل : هو قول المؤمنين للحث والتنبيه { فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا } [التوبة : 124] يقيناً وثباتاً أو خشية أ و إيماناً بالسورة لأنهم لم يكونوا
216
آمنوا بها تفصيلاً { وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [التوبة : 124] يعدون زيادة التكليف بشارة التشريف.
جزء : 2 رقم الصفحة : 213

(131/2)

{ وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } [التوبة : 125] شك ونفاق فهو فساد يحتاج إلى علاج كالفساد في البدن { فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } [التوبة : 125] كفراً مضموماً إلى كفرهم { وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 125] هو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت { أَوَلا يَرَوْنَ } يعني المنافقين وبالتاء : حمزة خطاب للمؤمنين { أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ } [التوبة : 126] يبتلون بالقحط والمرض وغيرهما { فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ } [التوبة : 126] عن نفاقهم { وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } [التوبة : 126] لا يعتبرون.
أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم لا يتوبون بما يرون من دولة الإسلام ، ولا هم يذكرون بما يقع بهم من الاستسلام { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ } تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخرية به قائلين { هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ } [التوبة : 127] من المسلمين لننصرف فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم ، أو إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين أشار بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد إن قمتم من حضرته عليه السلام { ثُمَّ انصَرَفُوا } [التوبة : 127] عن حضرة النبي عليه السلام مخافة الفضيحة { صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم } [التوبة : 127] عن فهم القرآن { بِأَنَّهُمْ } بسبب أنهم { قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [الانفال : 65] لا يتدبرون حتى يفقهوا { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ } [التوبة : 128] محمد عليه السلام { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } [الروم : 21] من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم { عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } شديد عليه شاق . لكونه بعضاً منكم . عنتكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب { حَرِيصٌ عَلَيْكُم } [التوبة : 128] على إيمانكم { بِالْمُؤْمِنِينَ } منكم ومن غيركم
217
{ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 117] قيل : لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلّم { فَإِن تَوَلَّوْا } [المائدة : 49] فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك { فَقُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ } [التوبة : 129] فاستعن بالله وفوض إليه أمورك فهو كافيك معرتهم وناصرك عليهم { لا إِلَاهَ إِلا

هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } [التوبة : 129] فوضت أمري إليه { وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ } [التوبة : 129] هو أعظم ، خلق الله مطافاً لأهل السماء وقبلة للدعاء { الْعَظِيمُ } بالجر وقرىء بالرفع على نعت الرب جل وعز.

عن أبيّ : آخر آية نزلت { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ } [التوبة : 128] الآية.

218

سورة يونس

عليه السلام مائة وتسع آيات مكية

(وكذا ما بعدها إلى سورة النور)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

{ الار } ونحوه ممال حمزة وعلي وأبو عمرو وهو تعديد للحروف على طريق التحدي { تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ } [يونس : 1] إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة { الْحَكِيمِ } ذي الحكمة لاشتماله عليها أن المحكم عن الكذب والافتراء والهمزة في { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا } [يونس : 2] لأنكار التعجب والتعجب منه { أَنْ أَوْحَيْنَآ } [يونس : 2] اسم كان وعجباً خبره واللام في للناس متعلق بمحذوف هو صفة لعجباً فلما تقدم صار حالاً { إِلَى رَجُلٍ مّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ } [يونس : 2] بأن أنذر أو هي مفسرة إذ الإيحاء فيه معنى القول { وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ } [يونس : 2] بأن لهم ومعنى اللام في للناس أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منه والذي تعجبوا منه أن يوحي إلى بشر وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم فقد كانوا يقولون العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب وأن يذكر لهم العبث وينذر بالنيران ويبشر بالجنان وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب لأن الرسل المبعوثين

219

(132/2)

إلى الأمم لم يكونوا إلابشراً مثلهم وإرسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أيضاً لأن الله تعالى إنما يختار للنبوة من جمع أسبابها والغنى والتقدم في الدنيا ليس من أسبابها والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجباً إنما العجب والنكر في العقول تعطيل الجزاء { قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبّهِمْ } [يونس : 2] أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة ولما كان السعي ولاسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما كما سميت النعمة يدا لأنها تعطي باليد وباعاً لأن صاحبها يبوع بها فقيل لفلان قدم في الخبر وإضافتها إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة أو مقام صدق أو سبق السعادة { قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَاذَا } [يونس : 2] الكتاب لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ مدني

وبصري وشامي.
ومن قرأ لساحر فهذه إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً
جزء : 2 رقم الصفحة : 219
{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف : 54] أي استولى فقد يقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود { يُدَبّرُ } يقضي ويقدر على مقتضى المحكمة { الامْرَ } أي أمر الخلق كله وأمر ملكوت السماوات والأرض والعرش.
ولما ذكر ما يدل على عظمته وملكه من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة عل العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه وتقديره وكذلك قوله : { مَا مِن شَفِيعٍ إِلا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ } [يونس : 3] دليل على عزته وكبريائه { ذَالِكُمُ } العظيم الموصوف بما وصف به { اللَّهُ رَبُّكُمُ } [يونس : 32] وهو الذي يستحق العبادة { فَاعْبُدُوهُ } وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من إنسان أو ملك فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع { أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [يونس : 3] أفلا تتدبرون فتستدلون بوجوب المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا } [يونس : 4] حال أي لا ترجعون لي العاقبة إلا إليه فاستعدوا
220
للقائه والمرجع الرجوع أو مكان الرجوع { وَعْدَ اللَّهِ } [النور : 55] مصدر مؤكد لقوله إليه مرجعكم { حَقًّا } مصدر مؤكد لقوله : وعد الله { إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [يونس : 4] استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ } [يونس : 4] أي الحكمة بإبداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم { بِالْقِسْطِ } بالعدل وهو متعلق بيجزي أي ليجزيهم يقسطه ويوفيهم أجورهم أو بقسطهم أي بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا إذ الشرك ظلم { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] وهذا أوجه لمقابلة قوله : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [يونس : 4] ولوجه كلامي
جزء : 2 رقم الصفحة : 220
{ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً } [يونس : 5] الياء فيه منقلبة عن واو ضواء لكسرة ما قبلها وقلبها قنبل همزة لأنها للحركة أجمل { وَالْقَمَرَ نُورًا } [يونس : 5] والضياء أقوى من النور فلذا جعله للشمس { وَقَدَّرَهُ } وقدر القمر أي وقدر مسيره { مَنَازِلَ } أو وقدره ذا منازل كقوله والقمر قدرناه منازل من
{ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السّنِينَ } [يونس : 5] أي عدد السنين والشهور فاكتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور { وَالْحِسَابَ } وحساب الآجال والمواقيت المقدرة بالسنين والشهور { مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَالِكَ } [يونس : 5] المذكور ملتبساً { ءَادَمَ بِالْحَقّ } [المائدة : 27] الذي هو الحكمة البالغة لم يخلقه عبثاً { يُفَصّلُ الايَاتِ } [الرعد : 2] مكي وبصري وحفص وبالنون غيرهم { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [البقرة : 230] فينتفعون

بالتأمل فيها { إِنَّ فِى اخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ } [يونس : 6] في مجيء كل واحد منهما خلف الآخر أو في اختلاف لونيهما { وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [يونس : 6] من الخلائف { لايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ } [يونس : 6] خصهم بالذكر لأنهم يحذرون الآخر فيدعوهم الحذر إلى النظر
221

(133/2)

جزء : 2 رقم الصفحة : 221

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا } [يونس : 7] لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطرونه ببالهم لغفلهم عن التفطن للحقائق أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف { وَرَضُوا بِالْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [يونس : 7] من الآخرة وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي { وَاطْمَأَنُّوا بِهَا } [يونس : 7] وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديداً وأملوا بعيداً { وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ } [يونس : 7] لا يتفكرون فيها ولا وقف عليه لأن خبر إن { أُولئك مَأْوَاهُمُ النَّارُ } [يونس : 8] فأولئك مبتدأ ومأواهم مبتدأ ثان والنار خبره والجملة خبر أولئك والباء في { بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأنعام : 129] يتعلق بمحذوف دل عليه الكلام وهو جوزوا { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ } [يونس : 9] يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدي إلى الثواب ولذا جعل { تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الانْهَارُ } [يونس : 9] بياناً له وتفسيراً إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها أو يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ومنه الحديث " إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له : أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول له : أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار " وهذا دليل على أن الإيمان المجرد منج حيث قال : بإيمانهم ولم يضم إليه العمل الصالح { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [يونس : 9] متعلق بتجري أو حال من الأنهار { دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ } [يونس : 10] أي دعاؤهم لأن اللهم نداء لله ومعناه : اللهم إنا نسبحك أي يدعون الله بقولهم سبحانك اللهم تلذذا بذكره لا عبادة { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } [يونس : 10] أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام أو هي تحية الملائكة إياهم وأضيف
222
المصدر إلى المفعول أو تحية الله لهم { وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ } [يونس : 10] وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح { أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [يونس : 10] أن يقولوا الحمد الله رب العالمين أن مخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد لله رب العالمين والضمير للشأن قيل أو كلامهم التسبيح وآخره التحميد

فيبتدئون بتنظيم الله وتنزيهه ويختمون بالشكر والثناء عليه ويتكلمون بينهما بما أرادوا
جزء : 2 رقم الصفحة : 222

(134/2)

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ } [يونس : 11] أصله ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم والمراد أهل مكة وقولهم { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ } [الانفال : 32] أي ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه { لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } [يونس : 11] لأميتوا وأهلكوا.

لقضى إليهم أجلهم شامي على البناء للفاعل وهو الله عز وجل { فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ } [يونس : 11] شركهم وضلالهم { يَعْمَهُونَ } يترددون ووجه اتصاله بما قبله أن قوله ولو يعجل الله متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم في طغيانهم أي فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم { وَإِذَا مَسَّ الانسَانَ } [الزمر : 8] أصابه والمراد به الكافر { الضُّرُّ دَعَانَا } [يونس : 12] أي دعا الله لإزالته { لِجَنابِهِ } في موضع الحال بدليل عطف الحالين أي { أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا } [يونس : 12] عليه أي دعانا مضطجعاً وفائدة ذكر هذه الأحوال أن معناه أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى تزول عنه الضر فهو يدعونا في حالاته كلها سواء كان مضطجعاً عاجزاً عن النهوض أو قاعداً لا يقدر على القيام أو قائماً لا يطيق المشي { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ } [يونس : 12] أزلنا ما به { مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ } [يونس : 12] أي مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسى حال الجهد أو مر عن موقف الابتهال
223
والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به والأصل كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن { كَذَالِكَ } مثل ذلك التزيين { زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ } [يونس : 12] للمجاوزين الحد في الكفر زين الشيطان بوسوسته { مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [المائدة : 62] من الإعراض عن الذكر واتباع الكفر
جزء : 2 رقم الصفحة : 223
{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ } [يونس : 13] يا أهل مكة { لَمَّا ظَلَمُوا } [يونس : 13] أشركوا وهو ظرف لأهلكنا والواو في { وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم } [الروم : 9] للحال أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم { بِالْبَيِّنَاتِ } بالمعجزات { وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا } [يونس : 13] إن بقوا ولم يهلكوا لأن الله علم منهم أنهم يصرون على كفرهم وهو عطف على ظلموا أو اعتراض واللام لتأكيد النفي يعني أن

السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل { كَذَالِكَ } مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك { نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } [يونس : 13] وهو عيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلّم { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خلائف فِى الارْضِ مِن بَعْدِهِمْ } [يونس : 14] الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلّم أي استخلفنا كم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها { لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [يونس : 14] أي لننظر أتعملون خيراً أو شراً فنعاملكم على حسب عملكم وكيف في محل النصب بتعملون لا بننظر لأن معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله والمعنى أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعلمون أبالاعتبار بماضيكم أم الاغترار بما فيكم؟ قال عليه السلام : " الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون " { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 224

يونس : 15] حال { قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ } لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبارة الأوثان والوعيد لأهل الطغيان { لِقَآءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَاذَآ } [يونس : 15] ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك { أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس : 15] بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها فأمر بأن يجيب عن التبديل لأنه داخل تحت

224

(135/2)

قدرة الإنسان وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله : { قُلْ مَا يَكُونُ لِى } [يونس : 15] ما يحل لي { أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآىِ نَفْسِى } [يونس : 15] من قبل نفسي { إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَىَّ } [الأنعام : 50] لا أتبع إلا وحي الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل لأن الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدله { إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى } [الأنعام : 15] بالتبديل من عند نفسي { عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأنعام : 15] أي يوم القيامة وأما الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان وقد ظهر لهم العجز عنه إلا أنهم كانو لا يعترفون بالعجز ويقولون { لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَاذَآ } [الانفال : 31] ولا يحتمل أن يريدوا بقوله أئت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحي لقوله : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وغرضهم في هذا الاقتراح الكيد أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله فأبدل مكانه آخر وأما اقتراح التبديل فلاختبار الحال وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه أولا يهلكه فيسخروا منه فيجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لإفترائه على الله

جزء : 2 رقم الصفحة : 224

{ قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ } [يونس : 16] يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإظهاره أمراً عجيباً خارجاً عن العادات وهو أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً يغلب كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم مشحوناً بعلوم الأصول والفروع والإخبار عن الغيوب التي لا يعلمها إلا الله { وَلا أَدْرَاكُم بِهِ } [يونس : 16] ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ } [يونس : 16] من قبل نزول القرآن أي فقد أقمت فيما بينكم أربعين سنة ولم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت موصوفاً بعلم وبيان فتتهموني بإختراعه { أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] فتعلموا أنه ليس إلا من عند الله لا من مثلي وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم أئت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [الأنعام : 144] يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك وذو ولد وأن يكون تفادياً مما أضافوه إليه من الافتراء

225

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ } [الأنعام : 21] بالقرآن فيه بيان أن الكاذب على الله والمكذب بآياته في الكفر سواء { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ }

جزء : 2 رقم الصفحة : 225

(136/2)

{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ } إن تركوا عبادتها { وَلا يَنفَعُهُمْ } [البقرة : 102] إن عبدوها { وَيَقُولُونَ هؤلاء } [يونس : 18] أي الأصنام { شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ } [يونس : 18] أي في أمر الدنيا ومعيشتها لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت أو يوم القيامة أن يكن بعث ونشور { قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ } [يونس : 18] أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو أنباء بما ليس بمعلوم لله وإذا لم يكن معلوماً له وهو عالم بجميع المعلومات لم يكن شيئاً وقوله { فِى السَّمَاوَاتِ وَلا فِى الارْضِ } [يونس : 18] تأكيد لنفيه لأن ما لم يوجد فيها فهو معدوم { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [يونس : 18] نزَّه ذاته عن أن يكون له شريك وبالتاء حمزة وعلي ما موصولة أو مصدرية ، أي عن الشركاء الذي يشركونهم به أو عن إشراكهم { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً } [يونس : 19] حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً { فَاخْتَلَفُوا } فصاروا مللاً { وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ } [يونس : 19] وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة { لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } [يونس : 19]عاجلاً { فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس : 19] فيما اختلفوا فيه وليميز المحق من المبطل وسبق كلمته لحكمة وهي أن هذه الدار دار تكليف وتلك الدار دار ثواب وعقاب {

وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ } [يونس : 20] أي آية من الآيات التي اقترحوها { فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ } [يونس : 20] أي هو المختص بعلم الغيب فهو العالم بالمصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير { فَانتَظِرُوا } نزول ما اقترحتموه { إِنّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ } لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات

226

جزء : 2 رقم الصفحة : 226

{ وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ } [الروم : 36] أهل مكة { رَحْمَةً } خصباً وسعة { مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ } [يونس : 21] يعني القحط والجوع { وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن } [يونس : 21] أي مكروا بآياتنا بدفعها وإنكارها.

روى أنه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحياة فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلّم ويكيدونه فإذا الأولى للشرط والثانية جوابها وهي للمفاجأة وهو كقوله { وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } [الروم : 36] أي وإن تصبهم سيئة قنطوا وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا والمكر إخفاء الكيد وطيه من الجارية الممكورة المطوية الخلق ومعنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم وإنما قال : { قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا } [يونس : 21] ولم يصفهم بسرعة المكر لأن كلمة المفاجأة دلت على ذلك كأنه قال : وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجأوا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء { إِنَّ رُسُلَنَا } [يونس : 21] يعني الحفظة { يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } [يونس : 21] إعلام بأن ما تظنونه خافياً لا يخفى على الله وهو منتقم منكم وبالياء سهل { هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [يونس : 22] يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالأرجل والدواب والفلك الجارية في البحار أو يخلق فيكم السير ينشرُكم شامي

جزء : 2 رقم الصفحة : 227

{ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ } [يونس : 22] أي السفن { وَجَرَيْنَ } أي السفن { بِهِم } بمن فيها رجوع من الخطاب إلى الغيبة للمبالغة { بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } [يونس : 22] لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة { وَفَرِحُوا بِهَا } [يونس : 22] بتلك الريح للينها واستقامتها { جَآءَتْهَا } أي الفلك أو الريح الطيبة أي تلقتها { رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس : 22] ذات عصف أي شديدة الهبوب { وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ } [يونس : 22] هو ماعلى على الماء { مِن كُلِّ مَكَانٍ } [النحل : 112] من البحر أو من جميع أمكنة الموج

227

{ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } [يونس : 22] أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الإهلاك { دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [يونس : 22] من غير إشراك به لأنهم لا يدعونه حينئذ معه غيره يقولون : { لَـاإِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَاذِهِ } [يونس : 22] الأهوال أو من هذه الريح { لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأنعام : 63] لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ولم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن بالهلاك والدعاء بالإنجاء وجواب إذا جاءتها ودعوا بدل من ظنوا لأن دعاءهم من لوازم ظنهم للهلاك فهو ملتبس به

جزء : 2 رقم الصفحة : 227

{ فَلَمَّآ أَنجَـاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ } [يونس : 23] يفسدون فيها { بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الشورى : 42] باطلاً أي مبطلين { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم } [يونس : 23] أي ظلمكم يرجع إليكم كقوله { مَّنْ عَمِلَ صَـالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا } [فصلت : 46] { مَتَـاعَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [القصص : 61] حفص أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر لبغيكم.

غيره بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته كقوله فبغى عليهم ومعناه إنما بغيكم على أمثالكم أو هو خبر ومتاع خبر بعد خبر أو متاع خبر مبتدأ مضمر أي هو متاع الحياة الدنيا وفي الحديث " أسرع الخير ثواباً صلة الرحم وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة " وروى " ثنتان يعجلهما الله في الدنيا البغي وعقوق الوالدين " وعن ابن عباس رضي الله عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغين وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث المكر.

قال الله تعالى :

228

{ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم } [يونس : 23] { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ } [فاطر : 43] { فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ } [الأنعام : 87-10] { ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 228

يونس : 23] فنخبركم به ونجازيكم عليه { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـاهُ مِنَ السَّمَآءِ } [يونس : 24] من السحاب { فَاخْتَلَطَ بِهِ } [الكهف : 45] بالماء { نَبَاتُ الارْضِ } [الكهف : 45] أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً { مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ } [يونس : 24] يعني الحبوبِ والثمار والبقول { وَالانْعَامُ } يعني الحشيش { حَتَّى إِذَآ أَخَذَتِ الارْضُ زُخْرُفَهَا } [يونس : 24] زينتها بالنبات واختلاف ألوانه { وَازَّيَّنَتْ } وتزينت به وهو أصله فأدغمت التاء في الزاي وهو كلام فصيح جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينب بغيرها من ألوان الزين { وَظَنَّ أَهْلُهَآ } [يونس : 24] أهل الأرض { أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ } [يونس : 24] متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها { أَتَـاهَآ أَمْرُنَا } [يونس : 24] عذابنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم { لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـاهَا } [يونس :

24] فجعلنا زرعاً { حَصِيدًا } شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله { كَأَن لَّمْ تَغْنَ } [يونس : 24] كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه ليستقيم المعنى { بِالامْسِ } هو مثل في الوقت القريب كأنه قيل كأن لم تغن آنفاً { كَذَالِكَ نُفَصِّلُ الايَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [يونس : 24] فينتفعون بضرب الأمثال وهذا من التشبه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها كما أن صفو الماء في أعلى الإناء قال :

جزء : 2 رقم الصفحة : 228

ألم تر أن العمر كأس سلافة

فأوله صفو وآخره كدْر

229

(138/2)

وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلف وثمام الإثم وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده فتزايله الحياة مغتراً كما يهيج النبات مصفراً فتغيب جثة في الرمس كأن لم تغن بالأمس إلى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث ، وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولا بد من ترك ما زاد كما لا بد من أخذ الزاد وآخذ المال لا يصيفو من زلة ، كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه فما دون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز.

والجواز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة وعمارتها بذل الصلات فمتى اختلت القنطرة غرّقته أمواج القناطير المقنطرة وعن هذا قال عليه السلام : " الزكاة قنطرة الإسلام " وكذا المال يساعد الأوغاد دون الأمجاد كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد وكذلك الماء لا يجتمع إلا بكد البخيل كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف

جزء : 2 رقم الصفحة : 228

{ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ } هي الجنة أضافها إلى اسمه تعظيماً لها أو السلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه وقيل لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم إلا قيلا سلاماً سلاماً { وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ } [فاطر : 8] ويوفق من يشاء { إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [البقرة : 142] إلى الإسلام

أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية والمعنى يدعو العباد كلهم إلى دار الإسلام ولا يدخلها إلا المهديون
230
جزء : 2 رقم الصفحة : 230
{ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا } [يونس : 26] آمنوا بالله ورسله { الْحُسْنَى } المثوبة الحسنى وهي الجنة { وَزِيَادَةٌ } رؤية الرب عز وجل كذا عن أبي بكر وحذيفة وابن عباس وأبي موسى الأشعري وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم وفي بعض التفاسير أجمع المفسرون على أن الزيادة النظر إلى الله تعالى وعن صهيب أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : " إذا دخل أهل الجنة يقول الله تبارك وتعالى : أتريدون شيئاً أزيدكم فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ـ قال : ـ فيرفع الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم " ثم تلا للذين أحسنوا الحسنى وزيادة والعجب من صاحب الكشف أنه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة وقال : إنه حديث مدفوع مع أنه مرفوع قد أورده صاحب المصابيح في الصحاح وقيل الزيادة المحبة في قلوب العباد وقيل : الزيادة مغفرة من الله ورضوان { وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ } [يونس : 26] ولا يغشى وجوههم { قَتَرٌ } غبرة فيها سواد { وَلا ذِلَّةٌ } [يونس : 26] ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار { أُوْلئك أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 82] { وَالَّذِينَ كَسَبُوا } [يونس : 27] عطف على للذين أحسنوا أي وللذين كسبوا { السَّيِّئَاتِ } فنون الشرك { جَزَآءُ سَيِّئَة بِمِثْلِهَا } [يونس : 27] الباء زائدة كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أو التقدير جزاء سيئة مقدر بمثلها { وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ } [يونس : 27] ذل وهوان
231
{ يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ } [الجن : 22] من عقابه { مِنْ عَاصِمٍ } [يونس : 27] أي لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه { وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَة بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ } [يونس : 27] أي جعل عليها غطاء من سواد الليل أي هم سود الوجوه وقطعاً جمع قطعة وهو مفعول ثان لأغشيت.
قِطْعاً مكي وعلى من قوله { بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ } [الحجر : 65] وعلى هذه القراءة مظلماً صفة لقطع وعلى الأول حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأن من الليل صفة لقطعا فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة أو معنى الفعل من الليل { أُوْلئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 39]

جزء : 2 رقم الصفحة : 231
{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ } [الأنعام : 22] أي الكفار وغيرهم { جَمِيعًا } حال { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ } [يونس : 28] أي الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم { أَنتُم } أكد به الضمير في مكانكم لسد مسد قوله الزموا { وَشُرَكَآؤُكُمْ } عطف عليه { فَزَيَّلْنَا } ففرَّقنا { بَيْنَهُم } وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا { وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم } [يونس : 28] من عبدوه من دون الله من أولي العقل أو الأصنام ينطقها الله عز وجل { مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ } [يونس : 28] إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا الله أنداداً فأطعتموهم وهو قوله : { إِيَّاكُمْ } إلى قوله : { بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ } [سبأ : 41]
{ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } [يونس : 29] أي كفى الله شهيداً وهو تمييز { إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ } [يونس : 29] إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية { هُنَالِكَ } في ذلك المكان أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان { تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ } [يونس : 30] تختبر وتذوق { مَّآ أَسْلَفَتْ } [يونس : 30] من العمل فتعرف كيف هو أقبح أم حسن أنافع أم ضار أمقبول أم مردود وقال الزجاج : تعلم كل نفس ما
232
قدمت.
تتلو حمزة وعلي أي تتبع ما أسلفت لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو النار أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر كذا على الأخفش { وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ } [يونس : 30] ربهم الصادق في ربوبيته لأنهم كانوا يتلون ما ليس لربوبيته حقيقة أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذي لا يظلم { وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [الأنعام : 24] وضاع عنهم ما كانوا يدّعون أنهم شركاء لله أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة
جزء : 2 رقم الصفحة : 232
{ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ } [يونس : 31] بالمطر { وَالارْضِ } بالنبات { أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالابْصَارَ } [يونس : 31] من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة أومن يحميها من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء { وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ } [يونس : 31] أي الحيوان والفرخ والزرع والمؤمن والعالم من النطفة والبيضة والحب والكافر والجاهل وعكسها { وَمَن يُدَبِّرُ الامْرَ } [يونس : 31] ومن يلي تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الخصوص { فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ } [يونس : 31] فسيجيبونك عند سؤالك إن القادر على هذه هو الله { فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } [يونس : 31] الشرك في العبودية إذ اعترفتم بالربوبية { فَذَالِكُمُ اللَّهُ } [يونس : 32] أي من هذه قدرته هو الله { رَبُّكُمُ الْحَقُّ } [يونس : 32] الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر { فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ } أي لا واسطة بين الحق والضلال فمن تخطى الحق وقع في الضلال { فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [يونس : 32]

عن الحق إلى الضلال وعن التوحيد إلى الشرك { كَذَالِكَ } مثل ذلك الحق { حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } كلمات شامي ومدني أي كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق
233
فكذلك حقت كلمة ربك { عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا } [يونس : 33] تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه { أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [يونس : 33] بدل من الكلمة أي حق عليهم انتفاء الإيمان أو حق عليهم كلمة الله أن إيمانم غير كائن أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب وأنهم لا يؤمنون تعليل أي لأنهم لا يؤمنون
جزء : 2 رقم الصفحة : 233

(140/2)

{ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآ ئِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [يونس : 34] إنما ذكر ثم يعيده وهم غير مقرين بالإعادة لأنه لظهور برهانها جعل أمراً مسلماً على أن فيهم من يقر بالإعادة أو يحتمل إعادة غير البشر كإعادة الليل والنهار وإعادة الإنزال والنبات { قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [يونس : 34] أمر نبيه بأن ينوب عنهم في الجواب يعني أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلهم عنهم { فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [الأنعام : 95] فكيف تصرفون عن قصد السبيل { قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآ ئِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ } [يونس : 35] يرشد إليه { قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّى إِلا أَن يُهْدَى } [يونس : 35] يقال هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين ويقال هدى بنفسه بمعنى اهتدى كما يقال شرى بمعنى اشترى ومنه قراءة حمزة وعلي أمن لا يهدي بمعنى يهتدي لا يهتدى بفتح الياء والهاء وتشديد الدال مكي وشامي وورش وبإشمام الهاء فتحة أبو عمرو ، وبكسر الهاء وفتح الياء عاصم غير يحيى والأصل يهتدي وهي قراءة عبد الله فأدغمت التاء في الدال وفتحت الهاء بحركة التاء وكسرت لالتقاء الساكنين وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال يحيى لأتباع ما بعدها وبسكون الهاء وتشديد الدال مدني غير ورش والمعنى أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم وبما وفقهم وألهمهم ووقفهم على الشرائع بإرسال الرسل فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد يهدي إلى الحق مثل هداية الله ثم قال : أفمن يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي لا يهتدي بنفسه أولا يهدي غيره إلا أن يهديه الله وقيل معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدي إلا أن ينقل أولا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حياً ناطقاً فيهديه { فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [يونس : 35] بالباطل حيث تزعمون أنهم

جزء : 2 رقم الصفحة : 234
{ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ } [يونس : 36] في قولهم للأصنام إنها آلهة وإنها شفعاء عند الله والمراد بالأكثر الجميع { إلا ظَنًّا } [يونس : 36] بغير دليل وهو اقتداؤهم بأسلافهم ظناً منهم إنهم مصيبون { إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقّ } [يونس : 36] وهو العلم { شيئا } في موضع المصدر أي إغناء { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } [يونس : 36] من أتباع الظن وترك الحق { وَمَا كَانَ هَاذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ } أي افتراء من دون الله والمعنى وما صح وما استقام أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى { وَلَاكِنْ } كان { تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ } [يونس : 37] وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة { وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ } [يونس : 37] وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع من قوله كتاب الله عليكم { لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } [يونس : 37] داخل في حيز الاستدراك كأنه قال ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب كائناً من رب العالمين ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك فيكون من رب العالمين متعلقاً بتصديق وتفصيل ويكون لا ريب فيه اعتراضاً كما تقول زيد لا شك فيه كريم { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } [
جزء : 2 رقم الصفحة : 235

(141/2)

السجدة : 3] بل أيقولون اختلقه { قُلْ } إن كان الأمر كما تزعمون { فَأْتُوا } أنتم على وجه الافتراء { بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ } [يونس : 38] أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم فأنتم مثلى في العربية { وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ } [يونس : 38] أي وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] أنه افتراء { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [يونس : 39] بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين

آبائهم ومعنى التوقع في ولما يأتهم تأويله أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليداً للآباء وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به وجاء بكلمة التوقع (ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي وجربوا قواهم في المعارضة وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغياً وحسداً { كَذَالِكَ } مثل ذلك التكذيب { كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [فاطر

: 25] بعني الكفار الأمم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم وقبل تدبرها عناداً وتقليداً للآباء ويجوز أن يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق يعني أنه كتاب معجز من جهتين من جهة إعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز وقبل أن يجربوا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [يونس : 39]

جزء : 2 رقم الصفحة : 235

وَمِنْهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ } بالنبي أو بالقرآن أي يصدق به فيه نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند بالتكذيب { وَمِنْهُم مَّن لا يُؤْمِنُ بِهِ } [يونس : 40] لا يصدق به ويشك فيه أو يكون للاستقبال أي ومنهم من سيؤمن به منهم من سيصر { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ } [يونس : 40] بالمعاندين أو المصرين { وَإِن كَذَّبُوكَ } [يونس : 41] وإن تمّوا على تكذيبك ويئست من إجابتهم { فَقُل لِّى عَمَلِى } [يونس : 41] جزاء عملي { وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } [يونس : 41] جزاء أعمالكم { أَنتُم بَرِياأُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِى ءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ } فكل مؤاخذ بعمله { وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ } [يونس : 42] ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعملت الشرائع ولكنهم لا يعون ولا يقبلون فهم كالصم { أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ } [يونس : 42] أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدال إذا وقع في صماخه دوي الصوت فإذا اجتمع

236

سلب العقل والسمع فقد تم الأمر

جزء : 2 رقم الصفحة : 236

(142/2)

{ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ } [يونس : 43] ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون { أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ } [يونس : 43] أتحسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلىّ فقد البصر فقد البصيرة لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء يعني أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر { إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شيئا وَلَـاكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [يونس : 44] ولكنِ الناس حمزة وعلي.

أي لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال حيث عبدوا جمادا وهم أحياء { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } [سبأ : 40] وبالياء حفص { كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ } [يونس :

45] استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم لهول ما يرون { يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ } [يونس : 45] يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم كان لم يلبثوا حال من هم أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة وكأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم.

ويتعارفون بينهم حال بعد حال أو مستأنف على تقديرهم يتعارفون بينهم { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللَّهِ } [الأنعام : 31] على إرادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك أو هي شهادة من الله على خسرانهم والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر { وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } [البقرة : 16] للتجارة عارفين بها وهو استئناف فهي معنى التعجب كأنه قيل ما أخسرهم { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ } [يونس : 46] من العذاب { أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ } [يونس : 46] قبل عذابهم

{ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ } [يونس : 46] جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف أي وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة { ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ } [يونس : 46] ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها وهو العقاب كأنه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون وقيل ثم هنا بمعنى الواو

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ } [يونس : 47] يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق { فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ } [يونس : 47] بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه { قُضِىَ بَيْنَهُم } [يونس : 47] بين النبي ومكذبيه { بِالْقِسْطِ } بالعدل فأنجي الرسول وعذب المكذبون أو لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بالقسط { وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [البقرة : 281] لا يعذب أحد بغير ذنبه ولما قال وإما نرينك بعض الذي نعدهم أي من العذاب استعجلوا لما وعدوا من العذاب نزل { وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ } [يونس : 48] أي وعد العذاب { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] أن العذاب نازل وهو خطاب منهم للنبي والمؤمنين { قُلْ } يا محمد { لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا } [يونس : 49] من مرض أو فقر { وَلا نَفْعًا } [طه : 89] من صحة أو غنى { إِلا مَا شَآءَ اللَّهُ } [الأنعام : 128] استثناء منقطع أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب { لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [يونس : 49] لكل أمة وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلوا { قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ } [يونس : 50] الذي تستعجلونه { بَيَاتًا } نصب على الظرف أي وقت بيات وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون { أَوْ نَهَارًا } [يونس : 24] وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب { مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ } [يونس : 50] أي من العذاب

والمعنى أن العذاب كله مكروه موجب للنفور فأي شيء تستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال والاستفهام في ماذا يتعلق بأرأيتم لأن المعنى أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه ولم يقل ماذا يستعجلون منه لأنه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام أو ماذا يستعجل منه المجرمون جواب الشرط نحو إن أتيتك ماذا تطعمني ثم تتعلق الجملة بأرأيتم أو

جزء : 2 رقم الصفحة : 238

{ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ } [يونس : 51] العذاب { بِهِ ا ءَآلَانَ } [يونس : 51] جواب الشرط وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراض والمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء في أفأمن أهل القرى أو أمن أهل القرى { ءَآلْـَٰانَ } على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به { وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } [يونس : 51] أي بالعذاب تكذيباً واستهزاء.

آلان بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام نافع { ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا } [يونس : 52] عطف على قيل المضمر قبل الآن { ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ } [يونس : 52] أي الدوام { هَلْ تُجْزَوْنَ إلا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } [يونس : 52] من الشرك والتكذيب { وَيَسْتَنابِئُونَكَ } ويستخبرونك فيقولون { أَحَقٌّ هُوَ } [يونس : 53] وهو استفهام على جهة الأنكار والاستهزاء والضمير للعذاب الموعود { قُلْ } يا محمد { إِى وَرَبِّى } [يونس : 53] نعم والله { إِنَّهُ لَحَقٌّ } [الذاريات : 23] إن العذاب كائن لا محالة { وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام : 134] بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة { وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ } [يونس : 54] كفرت وأشركت وهو صفة لنفس أي ولو أن لكل نفس ظالمة { مَا فِى الارْضِ } [البقرة : 29] في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها

239

{ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الارْضِ افْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ } وأظهروها من قولهم أسر الشيء إذا أظهره أو أخفوها عجزاً عن النطق لشدة الأمر فأسر من الأضداد { وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ } [يونس : 54] بين الظالمين والمظلومين دل عل ذلك ذكر الظلم { وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [البقرة : 281] ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله بقوله

جزء : 2 رقم الصفحة : 239

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [يونس : 55] فكيف يقبل الفداء وأنه المثيب المعاقب وما وعده من الثواب أو العقاب فهو حق لقوله : { أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ } [يونس : 55] بالثواب أو بالعذاب { حَقٌّ } كائن { وَيُمِيتُ } هو القادر على الأحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

[البقرة : 245] وإلى حسابه وجزائه المرجع فيخاف ويرجى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ } [يونس : 57] أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد والموعظة التي تدعو إلى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب إذ الأمر يقتضي حسن المأمور به فيكون مرغوباً هو يقتضي النهي عن ضده وهو قبيح وعلى هذا النهي { وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ } [يونس : 57] أي صدوركم من العقائد الفاسدة وهدى من الضلالة { وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [يونس : 57] لمن آمن به منكم { قُلْ } { بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَالِكَ فَلْيَفْرَحُوا } [يونس : 58] أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا بذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقدير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة

(144/2)

المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح أو بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا وهما كتاب الله والإسلام في الحديث " من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقه كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه " وقرأ الآية { هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58] وبالتاء شامي ، فلتفرحوا يعقوب

{ قُلْ أَرَءَيْتُمْ } [يونس : 50] أخبروني { مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ } [يونس : 59] ما منصوب بأنزل أو بأرأيتم أي أخبرونيه { فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالا } [يونس : 59] فبعضتموه وقلتم هذا حلال وهذا حرام كقوله ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا نعم الأرزاق تخرج من الأرض ولكن لما نيطت أسبابها بالسماء نحو المطر الذي به تنبت الأرض النبات والشمس التي بها النضج وينع الثمار أضيف إنزالها إلى السماء { قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ } [يونس : 21-59] متعلق بأرأيتم وقل تكرير للتوكيد والمعنى أخبروني الله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه { أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } [يونس : 59] أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه أو الهمزة للإنكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريراً للإفتراء والآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل من الأحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان وإلا فهو مفتر على الديان { وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [يونس : 60] ينسبون ذلك إليه { يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [القيامة : 6] منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه أي أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة هو وعيد عظيم حيث أبهم أمره { إِنَّ اللَّهَ لَذُو

فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } [البقرة : 243] حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال
241
والحرام { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ } [يونس : 60] هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه
جزء : 2 رقم الصفحة : 241
{ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ } [يونس : 61] ما نافية والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلّم والشأن الأمر { وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ } [يونس : 61] من التنزيل كأنه قيل وما تتلو من التنزيل { مِن قُرْءَانٍ } [يونس : 61] لأن كل جزء منه قرآن والإضمار قبل الذكر تفخيم له أو من الله عز وجل { وَلا تَعْمَلُونَ } [يونس : 61] أنتم جميعاً { مِنْ عَمَلٍ } [يونس : 61] أي عمل { إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا } [يونس : 61] شاهدين رقباء.
جزء : 2 رقم الصفحة : 242
نحصي عليكم { إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } [يونس : 61] تخوضون من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه { وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ } [يونس : 61] وما يبعد وما يغيب وبكسر الزاي على حيث كان { مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ } [يونس : 61] وزن نملة صغيرة { فِي الارْضِ وَلا فِى السَّمَآءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الارْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ } [آل عمران : 5 ، 6] رفعهما حمزة على الابتداء والخبر { إِلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ } [الأنعام : 59] يعني اللوح المحفوظ ونصبهما غيره على نفي الجنس وقدمت الأرض على السماء هنا وفي سبأ قدمت السماوات لأن العطف بالواو وحكمه حكم التثنية { أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ } [يونس : 62] هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة أو هم الذين تولى الله هداهم بالبرهان الذي آتاهم فتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه أو هم المتحابون في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها أوهم المؤمنون المتقون بدليل الآية الثانية { لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } [يونس : 62] إذا خاف الناس { وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة : 38] إذا حزن الناس { الَّذِينَ ءَامَنُوا } [محمد : 3] منصوب بإضمار أعني أو لأنه صفة لأولياء أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين آمنوا { وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس : 63] الشرك والمعاصي { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَواةِ } ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير موضع من كتابه وعن النبي صلى الله عليه وسلّم : " هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له "
242

وعنه عليه السلام : " ذهبت النبوة وبقيت المبشرات والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة " وهذا لأن مدة الوحي ثلاث وعشرون سنة وكان في ستة أشهر منها يؤمر في النوم بالإنذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً أو هي محبة الناس له والذكر

الحسن أولهم البشرى عند النزع بأن يرى مكانه في الجنة { وَفِى الاخِرَةِ } [الأعراف : 156] هي الجنة { لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } [يونس : 64] تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده { ذَالِكَ } إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين { هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة : 72] وكلتا الجملتين اعتراض ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام كما تقول فلان ينطق بالحق والحق أبلج وتسكت

جزء : 2 رقم الصفحة : 242

{ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ } [يونس : 65] تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك { إِنَّ الْعِزَّةَ } [يونس : 65] استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالي لا أحزن فقيل إن العزة { لِلَّهِ } إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً لا يملك أحد شيئاً منهما لا هم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم { كَتَبَ اللَّهُ لاغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى } [المجادلة : 21] { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا } [غافر : 51] أو به يتعزز كل عزيز فهو يعزك ودينك وأهلك والوقف لازم على قولهم لئلا يصير إن العزة مقول الكفار { جَمِيعًا } حال { هُوَ السَّمِيعُ } [الإسراء : 1] لما يقولون { الْعَلِيمُ } بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك { أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الارْضِ } [يونس : 66] يعني العقلاء وهم الملائكة والثقلان وخصهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مَلكَته ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكاً له فيها فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له نداً وشريكاً { وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ } [يونس : 66] ما نافية أي وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء لأن شركة الله في الربوبية محال

243

{ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ } [الأنعام : 116] إلا ظنهم أنهم شركاء الله { وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ } [الأنعام : 116] يحزرون ويقدّرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً أو استفهامية أي وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الأول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة والمحذوف مفعول يدعون أو موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي وله شركاؤهم ثم نبه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله

جزء : 2 رقم الصفحة : 243

{ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } [يونس : 67] أي جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب التردد في النهار { وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا } [غافر : 61] مضيئاً لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم { إِنَّ فِى ذَالِكَ لايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [يونس : 67] سماع مذكر معتبر { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ } [يونس : 68] تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء { هُوَ الْغَنِىُّ } [لقمان : 26] علة لنفي الولد لأنه إنما يطلب الولد ضعيف ليتقوى به أو فقير ليستعين به أو ذليل ليتشرف به والكل أمارة الحاجة فمن كان غنياً غير محتاج كان الولد عنه منفياً ولأن الولد بعض الوالد فيستدعي أن يكون مركباً وكل مركب ممكن وكل ممكن يحتاج إلى الغير فكان حادثاً فاستحال القديم أن يكون له ولد {

لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الارْضِ } [البقرة : 255] ملكاً ولا تجتمع النبوة معه { إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَاذَآ } [يونس : 68] ما عندكم من حجة بهذا القول ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فقال : { أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [الأعراف : 28] { قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [يونس : 69] بإضافة الولد إليه

244

{ لا يُفْلِحُونَ } [يونس : 69] لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة

جزء : 2 رقم الصفحة : 244

(146/2)

{ مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا } [يونس : 70] أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا حيث يقيمون به رياستهم في الكفر ومناصبة النبي صلى الله عليه وسلّم بالتظاهر به { ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ } [يونس : 70]

{ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [الأنعام : 70] بكفرهم { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ } [الشعراء : 69] واقرأ عليهم { نَبَأَ نُوحٍ } [يونس : 71] خبره مع قومه والوقف عليه لازم إذا لو وصل لصار إذ ظرفا لقوله واتل بل التقدير واذكر { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم } عظم ويقل كقوله { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ } [البقرة : 45] { مَّقَامِى } مكاني يعني نفسه كقوله { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن : 46] أي خاف ربه أوقيامي ومكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاماً أو مقامي { وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ } [يونس : 71] هم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينًا وكلامهم مسموعاً { فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ } [يونس : 71] أي فوضت أمري إليه { فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ } [يونس : 71] من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه { وَشُرَكَآءَكُمْ } الواو بمعنى مع أي فأجمعوا أمركم مع شركائكم { ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 245

يونس : 71] أي غما عليكم وهما والغم والغمة كالكرب والكربة أو ملتبساً في خفية والغمة السترة من غمه إذا ستره ومنه الحديث " لاغمة في فرائض الله " أي لا تستر ولكن يجاهر بها والمعنى ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به { ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ } [يونس : 71] ذلك الأمر الذي تريدون بي أي أدوا إلى ما هو حق عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه أو أصنعوا ما أمكنكم { وَلا تُنظِرُونِ } [يونس : 71] ولا تمهلوني { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ } [المائدة : 92] فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي

245

{ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ } [يونس : 72] فأوجب الولي أو فما سألتكم من أجر ففاتني ذلك بتوليكم { إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ } [يونس : 72] وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي ما نصحتكم إلا الله لا لغرض من أغراض الدنيا وفيه دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن والعلم الديني { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس : 72] من المستسلمين لأوامره ونواهيه إن أجري بالفتح مدني وشامي وأبو عمرو وحفص

جزء : 2 رقم الصفحة : 245

(147/2)

{ فَكَذَّبُوهُ } فداموا على تكذيبه { فَنَجَّيْنَاهُ } من الغرق { وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ } [الشعراء : 119] في السفينة { وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائفَ } [يونس : 73] يخلفون الهالكين بالغرق { وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِاَايَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ } [يونس : 73] هو تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن مثلة وتسلية له { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ } [يونس : 74] من بعد نوح عليه السلام { رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ } [يونس : 74] أي هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعباً { مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ } بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم { فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا } [الأعراف : 101] فأصروا على الكفر بعد المجيء { بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ } [يونس : 74] من قبل مجيئهم يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد { كَذَالِكَ نَطْبَعُ } [يونس : 74] من ذلك الطبع نختم { عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ } [يونس : 74] المجاوزين الحد في التكذيب { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم } [الأعراف : 103] من بعد الرسل { مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلايْهِ بِاَايَاتِنَا } بالآيات التسع { فَاسْتَكْبَرُوا } عن قبولها وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظمون عن قبولها { وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ } [الأعراف : 133] كفاراً ذوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا على ردها { فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا } [يونس : 76] فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله

246

{ قَالُوا } لحبهم الشهوات { إِنَّ هَاذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ } [يونس : 76] وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر

جزء : 2 رقم الصفحة : 246

{ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ } [يونس : 77] هو إنكار ومقولهم محذوف أي هذا سحر ثم استأنف إنكاراً آخر فقال : { أَسِحْرٌ هَاذَا } [يونس : 77] خبر ومبتدأ { وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ } [يونس : 77] أي لا يظفر { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا } [يونس : 78] لتصرفنا { عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا } [يونس

: 78] من عبادة الأصنام أو عبادة فرعون { وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ } [يونس : 78] أي الملك لأن الملوك موصوفون بالكبرياء والعظمة والعلو { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] أرض مصر { وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ } [يونس : 78] بمصدقين فيما جئتما به ويكن حماد ويحيى { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } [يونس : 79] سحار حمزة وعلى { السِّحْرُ } ما موصولة واقعة مبتدأ أو جئتم به صلتها والسحر خبر أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله. آلسحر بعد وقف أبو عمرو على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أيْ أيّ شيء جئتم به أهو السحر { إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُا } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 247

يونس : 81] يظهر بطلانه { إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس : 81] لايثبته بل يدمره { وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ } [يونس : 82] ويثبّته { بِكَلِمَاتِهِ } بأوامره وقضاياه أو يظهر الإسلام بعداته بالنصرة { وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } [الانفال : 8] ذلك { فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَى } [يونس : 83] في أولى أوامره 247

(148/2)

{ إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ } [يونس : 83] إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل إلا أولاد من أولاد قومه وذلك قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف أو الضمير في قومه لفرعون والذرية مؤمن آل فرعون وآسية امرأته وخازنه وامرأة خازنة وما شطته والضمير في يرجع إلى فرعون بمعنى آل فرعون كما يقال ربيعة ومضر أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له أو إلى الذرية أي على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم دليله قوله ؛ { وَمَلائِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ } [يونس : 83] يريد أن يعذبهم فرعون { وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الارْضِ } [يونس : 83] لغالب فيها قاهر { وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } [يونس : 83] في الظلم والفساد وفي الكبر والعتو بإدعائه الربوبية

جزء : 2 رقم الصفحة : 247

{ وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } صدقتم به وبآياته { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا } [يونس : 84] فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون { إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ } [يونس : 84] شرط في التوكل الإسلام وهو أن يسلموا نفوسهم صلى الله عليه وسلّم أي يجعلوها له سالمة خالصة لاحظ للشيطان فيها لأنه التوكل لا يكون مع التخليط { فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } [يونس : 85] إنما قالوا ذلك لأن القوم كانوا مخلصين لاجرم أن الله قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه

وجعلهم خلفاء في أرضه فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص { رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [يونس : 85] موضع فتنة لهم أي عذاب يعذبوننا أو يفتنوننا عن ديننا أي يضلوننا والفاتن المضل عن الحق { وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [يونس : 86] أي من تعذيبهم وتسخيرهم { وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا } [يونس : 87] تبوأ المكان اتخذه مباءة كقوله توطنه إذا اتخذه وطناً والمعنى اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه { وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } [يونس : 87] أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة

248

وكانوا في أول الأمر مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك في أول الإسلام بمكة { وَإِذْ أَخَذْنَا } [البقرة : 83] في بيوتكم حتى تأمنوا { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [البقرة : 223] يا موسى ثنى الخطاب أولاً ثم جمع ثم وحد آخراً لأن اختيار مواضع العبادة مما يفرض إلى الأنبياء ثم جمع لأن اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور وخص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيماً لها وللمبشر بها

جزء : 2 رقم الصفحة : 248

(149/2)

{ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلاهُ زِينَةً } [يونس : 88] هو ما يتزين به من لباس أو حلى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك { وَأَمْوَالا } أي نقداً ونعماً وضيعة { وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلاهُ } [يونس : 88] ليضلوا الناس عن طاعتك كوفي ولا وقف على الدنيا لأن قوله ليضلوا متعلق بآتيت وربنا تكرار.

الأول للإلحاح في التضرع قال الشيخ أبو منصور رحمه الله إذا علم منهم أنهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله وهو كقوله { إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا } [آل عمران : 178] فتكون الآية حجة على المعتزلة { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ } [يونس : 88] أي أهلكها وأذهب آثارها لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك والطمس المحو والهلاك قيل صارت دارهمهم ودنانيرهم حجارة كهيئاتها منقوشة وقيل وسائر أموالهم كذلك { وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [يونس : 88] أطبع على قلوبهم واجعلها قاسية { فَلا يُؤْمِنُوا } [يونس : 88] جواب الدعاء الذي هو أشدد { حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الالِيمَ } [يونس : 88] إلى أن يروا العذاب الأليم وكان كذلك فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق ، وكان ذلك إيمان يأس فلم يقبل وإنما دعا عليهم بهذا لما أيس من إيمانهم وعلم بالوحي أنهم لا يؤمنون فأما قبل أن يعلم بأنهم لا يؤمنون فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء لأنه أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإيمان وهو

يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفراً { قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا } [يونس : 89] قيل كان موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمّن
249
فثبت أن التأمين دعاء فكان اخفاؤه أول أو المعنى أن دعاء كما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته { فَاسْتَقِيمَا } فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والتبليغ { وَلا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } [يونس : 89] ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لا يعلمون صدق الإجابة وحكمة الإمهال فقد كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة.

لا تتبعان بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيها بنون التثنية شامي وخطأه بعضهم لأن النون الخفيفة واجبة السكون وقيل هو إخبار عما يكونان عليه وليس بنهي أو هو حال وتقديره فاستقيما غير متبعين

جزء : 2 رقم الصفحة : 249

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ } [يونس : 90] هو دليل لنا على خلف الأفعال { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ } [يونس : 90] فلحقهم يقال تبعته حتى أتبعته { بَغْيًا } تطاولاً { وَعَدْوًا } ظلماً وانتصباً على الحال أو على المفعول له { حَتَّى إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ } [يونس : 90] ولا وقف عليه لأن { قَالَ ءَامَنتُ } [يونس : 90] جواب إذا { أَنَّهُ } إنه حمزة وعلى على الاستئناف بدل من آمنت وبالفتح غيرهما على حذف الباء التي هي صلة الإيمان { لا إِلَـاهَ إِلا الَّذِى ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَاءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس : 90] وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد حيث قال : آمنت ثم قال : وأنا من المسلمين كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته وكانت المرأة الواحدة تكفي في حالة الاختيار { ءَآلْـَانَ } أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك قيل قال ذلك حين ألجمه الغرق والعامل فيه أتؤمن { وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس : 91] من الضالين المضلين عن الإيمان روى أن جبريل عليه السلام أتاه بفتيا ما قول الأميرفي عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه فعرفه
250

جزء : 2 رقم الصفحة : 250

{ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ } [يونس : 92] نلقيك بنجوة من الأرض فرماه الماء إلى السلاحل كأنه ثور { بِبَدَنِكَ } في موضع الحال أي الحال التي لا روح فيك وإنما أنت بدن أو ببدنك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير أو عرياناً لست إلا بدنا من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه بأبدانك وهو مثل قولهم هو بأجرامه أي ببدنك كله وافياً بأجزائه أو بدروعك لأنه ظاهر بينها { لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً } [يونس : 92] لمن وراءك من الناس علامة وهم بنو إسرائيل وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق وقيل أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه وقيل لمن خلفك لمن يأتي بعدك من القرون ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته وأن ما كان يدعيه من الربوبية محال وأنه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره إلى ما ترون للعصيانه ربه فما الظن بغيره { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً } [يونس : 92] { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس : 93] منزلاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام { وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا } [يونس : 93] في دينهم { حَتَّى جَآءَهُمُ الْعِلْمُ } [يونس : 93] أي التوراة وهم اختلفوا في تأويلها كما اختلف أمة محمد صلى الله عليه وسلّم في تأويل الآيات من القرآن أو المراد العلم بمحمد واختلاف بني إسرائيل وهم أهل الكتاب اختلافهم في صفته أنه هو أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم أنه هو

جزء : 2 رقم الصفحة : 251

{ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس : 93] يميز الحق من المبطل ويجزي كلا جزاءه { قَبْلِكَ } لما قدم ذكر بني إسرائيل وهم قراء الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم لأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم مكتوب في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أراد أن

251

يؤكد علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوته صلى الله عليه وسلّم ويبالغ في ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً ـ وسبيل من خالجته شبة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته أو بمباحثة العلماء ـ فسل علماء أهل الكتاب فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلاً عن غيرك فالمراد وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم لا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالشك فيه ثم قال : { لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ } [يونس : 94] أي ثبت عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مجال فيه للشك { فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [البقرة : 147] الشاكين ولا وقف عليه للعطف

جزء : 2 رقم الصفحة : 251

{ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَايَـاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَـاسِرِينَ } [يونس : 95] أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بايات الله أو هو على طريقة التهييج والإلهاب كقوله { فَلا

تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ } [القصص : 86] { وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ } [القصص : 87] ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله : " لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق " أوخوطب رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمراد أمته أي وإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله وأنزلنا إليكم نورامبينا أو الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك كقول العرب إذا عز أخوك فهن أو إن للنفي أي فما كنت في شك فأسأل أي لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ولكن لتزداد يقينا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى.

فإن قلت إنما يجيء إن للنفي إذا كان بعده إلا كقوله : { إِنِ الْكَافِرُونَ إِلا فِى غُرُورٍ } [الملك : 20].

قلت ذاك غير لازم ألا ترى إلى قوله إن أمسكهما من أحد من بعده فإن للنفي وليس بعده إلا { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } [يونس : 96-137] ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً أو قوله لأملأن جهنم الآية

(151/2)

252

ولا وقف على { لا يُؤْمِنُونَ } [البقرة : 6] لأن

جزء : 2 رقم الصفحة : 252

{ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ } [يونس : 97] تتعلق بما قبلها { حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الاليمَ } [يونس : 88] أي عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم أو عند القيامة ولا يقبل منهم { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ } [يونس : 98] فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة ولم يؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بخنقه { فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ } [يونس : 98] بأن يقبل الله منها بوقوعه في وقت الاختيار { إِلا قَوْمَ يُونُسَ } [يونس : 98] استثناء منقطع أي ولكن قوم يونس أو متصل والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس وانتصابه على الاستثناء { لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَواةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [يونس : 98] إلى آجالهم.

روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح كلهم وعجوا أربعين ليلة وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرّقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها فحن بعضهم إلى بعض وأظهروا الإيمان والتوبة فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده وقيل خرجوا لما نزل بهم

العذاب إلى شيخ من بقية علمائهم فقال لهم : قولوا وياحي حين لا حي وياحي محيي الموتى وياحي لا إله إلا أنت فقالوها
253
فكشف الله عنهم.
وعن الفضيل قدس الله روحه قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منهم وأحل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله
جزء : 2 رقم الصفحة : 253
{ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لامَنَ مَن فِى الارْضِ كُلُّهُمْ } [يونس : 99] على وجه الإحاطة والشمول { جَمِيعًا } حال مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه أخبر عن كمال قدرته ونفوذ مشيئته أنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم ولكنه شاء أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به ، وشاء الكفر ممن علم أنه يحتار الكفر ولا يؤمن به وقول المعتزلة المراد بالمشيئة مشيئة القسر والإلجاء أي لو خلق فيهم الإيمان جبراً لآمنوا لكن قد شاء أن يؤمنوا اختياراً فلم يؤمنوا دليله { أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس : 99] أي ليس إليك مشيئة إلا كراه والجبر في الإيمان إنما ذلك إليّ فاسد لأن الإيمان فعل العبد وفعله ما يحصل بقدرته ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار وتأويله عندنا أن الله تعالى لطفاً لو أعطاهم لآمنوا كلهم عن اختيار ولكن علم منهم أنهم لا يؤمنون فلم بعطهم ذلك وهو التوفيق والاستفهام في أفأنت بمعنى النفي أي لا تملك أنت يا محمد أن تكرههم على الإيمان لأنه يكون بالتصديق والإقرار ولا يمكن الاكراه على التصديق { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ } [يونس : 100] بمشيئته أو بقضائه أو بتوفيقه وتسهيله أو بعلمه { وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ } [يونس : 100] أي العذاب أو السخط أو الشيطان أي ويسلط الشيطان { عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ } [يونس : 100] لا ينتفعون بعقولهم ، ونجعل حماد ويحيى { قُلِ انظُرُوا } [يونس : 101] نظر استدلال واعتبار { مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [يونس : 101]من الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار { وَمَا تُغْنِى الايَاتُ } [يونس : 101] ما
254
نافيه { وَالنُّذُرُ } والرسل المنذورون أو الانذارات { عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } [يونس : 101] لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون
جزء : 2 رقم الصفحة : 254

{ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ } [يونس : 102] يعني وقائع الله فيهم كما يقال أيام العرب لوقائعها { قُلْ فَانتَظِرُوا إِنَّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ } [يونس : 102] { ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا } معطوف على كلام محذوف يدل عليه إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الأمم ثم ننجى رسلنا على حكاية الأحوال الماضية { وَالَّذِينَ ءَامَنُوا } [البقرة : 165] ومن آمن معهم { كَذَالِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ } أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين وحقاً علينا اعتراض أي حق ذلك علينا حقاً.

ننجي بالتخفيف على وحفص { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ } يا أهل مكة { إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى } [يونس : 104] وصحته وسداده فهذا ديني فاستمعوا وصفه ثم وصف دينه قال : { فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [يونس : 104] أي الأصنام { وَلَاكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ } [يونس : 104] يميتكم وصفه بالتوفي ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى ويعبدون دون ما لا يقدر على شيء { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [يونس : 104] أي بأن أكون يعني أن الله أمرني بذلك بما ركب فيّ من العقل وبما أوحى إليّ في كتابه { وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ } [يونس : 105] أي وأوحي إلى أن أقم ليشاكل قوله أي استقم مقبلا بوجهك على ما أمرك الله أو استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالا

255

{ حَنِيفًا } حال من الدين أو الوجه { وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 14]

جزء : 2 رقم الصفحة : 255

{ يَنفَعُكَ } إن دعوته { وَلا يَضُرُّكَ } [يونس : 106] إن خذلته { فَإِن فَعَلْتَ } [يونس : 106] فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فكنى عنه بالفعل إيجازاً { فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ } [يونس : 106] إذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين لأنه لا ظلم أعظم من الشرك.

{ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ } [الأنعام : 17] يصبك { بِضُرٍّ } مرض { فَلا كَاشِفَ لَهُ } [الأنعام : 17] لذلك الضر { إِلا هُوَ } [هود : 56] إلاَّ الله { وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ } [يونس : 107] عافية { فَلا رَآدَّ لِفَضْلِهِ } [يونس : 107] فلا رادَّ لمراده { يُصِيبُ بِهِ } [يونس : 107] بالخير { مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } [الروم : 48] قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه والاعتماد إلا عليه { وَهُوَ الْغَفُورُ } [يونس : 107] المكفر بالبلاء { الرَّحِيمُ } المعافي بالعطاء أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر أن الله هو الضار النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذي لا شعور له وكذا إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من الفضل والإحسان فكيف بالأوثان وهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله

جزء : 2 رقم الصفحة : 256

{ إِنْ أَرَادَنِىَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ } [الزمر :

38] وإنما ذكر المس في أحدهما والإرادة في الآخر كأنه أراد أن يذكر الأمرين الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير وأنه لاراد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة في أحدهما والإرادة في الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله يصيب به من يشاء من عباده { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ } يا أهل مكة { قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ } [يونس : 108] القرآن أو

256

الرسول { مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى } [يونس : 108] اختار الهدى واتبع الحق { فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ } [يونس : 108] فما نفع باختياره إلا لنفسه { وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } [يونس : 108] ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه ودل اللام وعلى على معنى النفع والضرر { وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ } [يونس : 108] بحفيظ موكول إلى أمركم إنما أنا بشير ونذير

جزء : 2 رقم الصفحة : 256

(153/2)

{ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ } [يونس : 109] على تكذيبهم وإيذائهم { حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ } [الأعراف : 87] لك بالنصر عليهم والغلبة { وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } [الأعراف : 87] لأنه المطلع على السرائر فلا يحتاج إلى بينة وشهود.

257

سورة هود

عليه السلام مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

{ الار كِتَابٌ } [هود : 1] أي هذا كتاب فهو خير مبتدإ محذوف { الار كِتَابٌ } [هود : 1] صفة له أي نظمت نظماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم { ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود : 1] كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص أو جعلت فصولاً سورة سورة وآية وآية أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي بين ولخص وليس معنى ثم التراخي في الوقت ولكن في الحال { مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [هود : 1] صفة أخرى لكتاب أو خبر بعد خبر أوصلة لأحكمت وفصلت أي من عنده أحكامها وتفصيلها { أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ } [هود : 2] مفعول له أي لئلا تعبدوا أو أن مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل قال : لا تعبدوا إلا الله أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله { إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } [هود : 2] أي من الله { وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } [هود : 3] أي أمركم بالتوحيد والاستغفار { ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ } [هود :

61] أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة { يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا } [هود : 3] يطوّل نفعكم في
258
الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [نوح : 4] إلى أن يتوفاكم { وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ } [هود : 3] ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه شيئاً { وَإِن تَوَلَّوْا } [الانفال : 40] وإن تتولوا { فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } [هود : 3] هو يوم القيامة
جزء : 2 رقم الصفحة : 258
{ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ } [المائدة : 48] رجوعكم { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [المائدة : 120] فكان قادراً على إعادتكم { أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ } [هود : 5] يزورّون عن الحق وينحرفون عنه لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره ومن أزورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه { لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ } [هود : 5] ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على أوزارهم { أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ } [هود : 5] يتغطون بها أي يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله كقول نوح عليه السلام { جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ } [نوح : 7] { يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } [البقرة : 77] أي لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم فلا وجه لتوصلهم لي ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافق عنده قيل نزلت في المنافقين { إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الانفال : 43] بما فيها { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الارْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } [
جزء : 2 رقم الصفحة : 259
هود : 6] تفضلاً لا وجوباً { وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا } [هود : 6] مكانه من الأرض ومسكنه { وَمُسْتَوْدَعَهَا } حيث كان مودعاً قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة { كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ } [هود : 6] كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في اللوح يعني ذكرها مكتوب فيه مبين
259

{ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ } [الأنعام : 73] وما بينهما { فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ } [الأعراف : 54] من الأحد إلى الجمعة تعليماً للتأني { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ } [هود : 7] أي فوقه يعني ما كان تحته خلق قبل خلق السماوات والأرض إلا الماء وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السماوات والأرض قيل بدأه بخلق يا قوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق ريحاً

فأقر الماء على متنه ثم وضع عرشه على الماء وفي وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار { لِيَبْلُوَكُمْ } أي خلق السماوات والأرض وما بينهما للمتحن فيهما ولم يخلق هذه الأشياء لأنفسها { أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا } [هود : 7] أكثر شكراً وعنه عليه السلام " أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله فمن شكر وأطاع أثابه ومن كفر وعصى عاقبه " ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ليبلوكم أي ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لأحوالكم كيف تعلمون { وَلَـائِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَاذَآ إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [هود : 7] أشار بهذا إلى القرآن لأن القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوا سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره ساحر حمزة وعلي يريدون الرسول والساحر كاذب مبطل { وَلَـائِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ } [هود : 8] الآخرة أو عذاب يوم بدر { إِلَى أُمَّةٍ } [هود : 8] إلى جماعة من الأوقات { مَّعْدُودَةٍ } معلومة أو قلائل والمعنى إلى حين معلوم { لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُا } [هود : 8] ما يمنعه من النزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء { أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ } [هود : 8] العذاب { لَيْسَ } العذاب { مَصْرُوفًا عَنْهُمْ } [هود : 8] ويوم منصوب بمصروفاً أي ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم { وَحَاقَ بِهِم } [هود : 8] وأحاط بهم { مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } [النحل : 34] العذاب الذي كانوا به يستعجلون وإنما وضع يستهزئون

260

موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء

جزء : 2 رقم الصفحة : 259

{ وَلَـائِنْ أَذَقْنَا الانسَانَ } [هود : 9] هو للجنس { مِنَّا رَحْمَةً } [هود : 9] نعمة من صحة وأمن وجدة واللام في لئن لتوطئة القسم { ثُمَّ نَزَعْنَـاهَا مِنْهُ } [هود : 9] ثم سلبناه تلك النعمة وجواب القسم { إِنَّهُ } شديد اليأس من أن يعود إلى مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه { لَيَئُوسٌ كَفُورٌ } [هود : 9] عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نسّاء له { وَلَـائِنْ أَذَقْنَـاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ } [هود : 10] وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذي ناله { لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي } [هود : 10] أي المصائب التي ساءتني { إِنَّهُ لَفَرِحٌ } [هود : 10] أشر بطر { فَخُورٌ } على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر { إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا } [هود : 11] في المحنة والبلاء { وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ } [البقرة : 25] وشكروا في النعمة والرخاء { أُولَـائِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ } [هود : 11] لذنوبهم { وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [هود : 11] يعني الجنة كانوا يقترحون عليه آيات تعنتا لا استرشاداً لأنهم لو كانوا مشترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم ومن اقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر رسول صلى الله عليه وسلّم أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله :

جزء : 2 رقم الصفحة : 261

{ فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ } [هود : 12] أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به { وَضَآئِقُ بِهِ صَدْرُكَ } [هود : 12] بأن تتلوه عليهم ولم يقل ضيق ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت لأنه عليه السلام وكان أفسح الناس صدراً
261

(155/2)

ولأنه أشكل بتارك { أَن يَقُولُوا } [العنكبوت : 2] مخافة أن يقولوا { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ } [هود : 12] هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه والملائكة لنصدقه ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه { إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ } [هود : 12] أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ولا عليك أن ردوا أو تهاونوا { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ } [هود : 12] يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك إليه وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم
جزء : 2 رقم الصفحة : 261
{ أَمْ يَقُولُونَ } [السجدة : 3] أم منقطعة { افْتَرَاهُ } الضمير لما يوحى إليك { قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ } [هود : 13] تحداهم أولا بعشر سور ثم بسورة واحدة كما يقول المخابر في الخط لصاحبه اكتب عشر أسطر نحو ما أكتب فإذا تبين له العجز عن ذلك قال : اقتصرت منك على سطر واحد { مِّثْلِهِ } في الحسن والجزالة ومعنى مثله أمثاله ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له { مُفْتَرَيَاتٍ } صفة لعشر سور لما قالوا افتريت القرآن واختلفته من عندك وليس من عند الله أرضى معهم العفاف وقال : هبوا.
أني اختلقته من عند نفسي فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء مثلي { وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ } [يونس : 38] إلى المعاونة على المعارضة { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] أنه مفترى { فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لا إِلَاهَ إِلا هُوَ } [هود : 14] أي أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله وحده وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم وإنما جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله لكم فاعلموا بعد قوله قل لأن الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلّم أو لأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين كانوا يحدونهم أو لأن الخطاب للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فإن
262
لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على المعارضة لعلهم بالعجز عنه فاعلموا أنما

أنزل بعلم الله أي بإذنه أو بأمره { فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ } [هود : 14] متبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد فهل أنتم مسلمون مخلصون

جزء : 2 رقم الصفحة : 262

{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَواةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ } [هود : 15] نوصل إليهم أجور أعمالهم وافيه كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق وهم الكفار أو المنافقون { أُولَاااِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الاخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا } [هود : 16] وحبط في الآخرة ما صنعوه أو صنيعهم أي لم يكن لهم ثواب لأنهم لم يزيدوا به الآخرة إنما أرادوا به الدنيا وقد وفي إليهم ما أرادوا { وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 139] أي كان عملهم في نفسه باطلاً لأنه لم يعمل لغرض صحيح والعمل الباطل لا ثواب له { أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ } [هود : 17] أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة من ربه أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم يعني أن بين الفريقين تبايناً بينا وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة من ربه أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام وهو دليل العقل

جزء : 2 رقم الصفحة : 263

{ وَيَتْلُوهُ } ويتبع ذلك البرهان { شَاهِدٌ } يشهد بصحته وهو القرآن { مِنْهُ } من الله أو من القرآن فقد مر ذكره آنفاً { وَمِن قَبْلِهِ } [هود : 17] ومن قبل القرآن { كِتَابُ مُوسَى } [هود : 17] وهو التوراة أي ويتلو ذلك

263

(156/2)

البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام { إِمَامًا } كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه { وَرَحْمَةً } ونعمة عظيمة على المنزل إليهم وهما حالان { أولئك } أي من كان على بينة { يُؤْمِنُونَ بِهِ } [الشعراء : 201] بالقرآن { وَمَن يَكْفُرْ بِهِ } [البقرة : 121] بالقرآن { مِنَ الاحْزَابِ } [ص : 11] يعني أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه وسلّم { فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } [هود : 17] مصيره ومورده { فَلا تَكُ فِى مِرْيَةٍ } [هود : 109] شك { مِنْهُ } من القرآن أو من الموعد { إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئك يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم { وَيَقُولُ الاشْهَادُ هؤلاء الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ } [هود : 18] ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً { أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } [هود : 18] الكاذبين على ربهم والأشهاد جمع

شاهد كأصحاب وصاحب أو شهيد كشريف وأشراف { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [الأعراف : 45] يصرفون الناس عن دينه { وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا } [إبراهيم : 3] يصفونها بالإعوجاج وهي مستقيمة أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد { وَهُم بِالاخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [هود : 19] هم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به

جزء : 2 رقم الصفحة : 263

{ أولئك لَمْ يَكُونُوا } [هود : 20] أي ما كانوا { مُعْجِزِينَ فِى الارْضِ } [هود : 20] بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم { وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ } [هود : 20] من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم وهو من كلام الأشهاد { يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ } [هود : 20] لأنهم أضلوا الناس عن دين الله يضعّف مكي وشامي { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ } [هود : 20] أي استماع الحق { وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } [هود : 20] الحق { أولئك الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ } [هود : 21] حيث اشتروا عبادة الآلهة بعباده الله

264

{ وَضَلَّ عَنْهُم } [فصلت : 48] وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو { مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [آل عمران : 24] من الآلهة وشفاعتها

جزء : 2 رقم الصفحة : 263

(157/2)

{ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الاخِرَةِ هُمُ الاخْسَرُونَ } [هود : 22] بالصد والصدود وفي لا جرم أقوال أحدها أن لا رد لكلام سابق أي ليس الأمر كما زعموا ومعنى جرم كسب وفاعله مضمر وأنهم في الآخرة في محل النصفب والتقدير كسب قولهم خسرانهم في الآخرة وثانيها أن لا جرم كلمتان ركبتا فصار معناهما حقاً وأن في موضع رفع بأنه فاعل لحق أي حق خسرانهم وثالثها أن معناه لا محالة { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ } [هود : 23] واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة { أُولئك أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 82] { مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالاعْمَى وَالاصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ } [هود : 24] شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع { هَلْ يَسْتَوِيَانِ } [هود : 24] يعني الفريقين { مَثَلا } تشبيها وهو نصب على التمييز { أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [يونس : 3] فتنتفعون بضرب المثل { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [هود : 25] أي بأني والمعنى أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام وهو قوله إني لكم نذير مبين بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في كأن والمعنى على الكسر وبكسر الألف شامي ونافع وعاصم وحمزة على إرادة القول { أَن لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ } [هود : 26] أن

مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير { إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [هود : 26] وصف اليوم بأليم من الاسناد المجازي لوقوع الألم فيه { فَقَالَ الْمَلا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ } [هود : 27] يريد الأشراف لأنهم يملؤون

265

القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملئوا بالأحلام والآراء الصائبة

جزء : 2 رقم الصفحة : 265

{ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مّثْلَنَا } [هود : 27] أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً أو ملكاً { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا } [هود : 27] أخساؤنا جمع الأرذل { بَادِىَ } وبالهمزة أبو عمرو { الرَّأْىِ } وبغير همز أبو عمرو أي اتبعوك ظاهر الرأي أو أول الرأي من بدا يبدو إذا أظهر أو بدأ يبدأ إذا فعل الشيء أو لا وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه أرادوا أن إتباعهم لك شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر ولو تفكروا ما اتبعوك وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتشبهيْن بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ولا يرفعه بل يضعه { وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْل } [هود : 27] في مال ورأى يعنون نوحاً وأتباعه { بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [هود : 27]أي نوحاً في الدعوة ومتبعيه في الإجابة والتصديق يعني تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيباً للرياسة

جزء : 2 رقم الصفحة : 265

{ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ } أخبروني { إِن كُنتُ عَلَى بَيّنَةٍ } [هود : 28] برهان { مّن رَّبّى } [الكهف : 98] وشاهد منه يشهد لصحة دعواى { قَالَ يَاقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن } [هود : 28] يعني النبوة { فَعُمّيَتْ عَلَيْكُمْ } [هود : 28] أي خفيت.

فعُمّيت حمزة وعلي وحفص أي أخفيت أي فعميت عليكم البينة فلم تهدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغيرها وحقيقته أو الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره { أَنُلْزِمُكُمُوهَا } أي الرحمة { وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } [هود : 28] لا تريدونها والواو دخلت هنا تتمة للميم وعن أبي عمرو إسكان الميم ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة فظنها الراوي سكوناً وهو لحن لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر

266

جزء : 2 رقم الصفحة : 266

{ الصَّالِحَاتِ قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ } على تبليغ الرسالة لأنه مدلول قوله إني لكم نذير { مَالا } أجراً يثقل عليكم إن أديتم أو عليّ أن أبيتم { إِنْ أَجْرِىَ } [هود : 51] مدني وشامي وأبو عمرو وحفص { إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا } [هود : 29] جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم { أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ } [البقرة : 46] فيشكونني إليه إن طردتهم { وَلَاكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } [هود : 29] تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل أو تجهلون لقاء ربكم أو أنهم خير منكم { وَيَاقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ } [هود : 30] من يمنعني من انتقامه { إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [هود : 30] تتعظون { وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآ ائِنُ اللَّهِ } [هود : 31] فأدعى فضلاً عليكم بالغني حتى تجحدوا فضلى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل { وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ } [الأنعام : 50] حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم وهو معطوف على عندي خزائن الله أي لا أقول عندي خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب { وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ } [هود : 31] حتى تقولوا إلى ما أنت إلا بشر مثلنا { وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ } [هود : 31] ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم { لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا } [هود : 31] في الدنيا والآخرة لهوانه عليه مساعدة لكم ونزولاً على هواكم { اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ } [هود : 31] من صدق الاعتقاد وإنما على قبول ظاهر إقرارهم إذ لا أطلع على خفي أسرارهم { إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ } [هود : 31] إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء افتعال من زري عليه إذا عابه وأصله تزترى فأبدلت التاء دالاً { قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا } خاصمتنا { فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ } [هود : 32] من العذاب { إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الأعراف : 70] في وعيدك

{ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَآءَ } [هود : 33] أي ليس الإتيان بالعذاب إليّ وإنما هو إلى من كفرتم به { وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام : 134] أي لم تقدروا على الهرب منه { وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى } [هود : 34] هو إعلام موضع الغي ليتقى والرشد ليقتفى ولكني إني نصحَي مدني وأبو عمرو { إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ } [هود : 34] أي يضلكم وهذا شرط دخل على شرط فيكون الثاني مقدماً في الحكم لما عرف.

تقديره إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم وهو دليل بين لنا في إرادة المعاصي { هُوَ رَبُّكُمْ } [هود : 34] فيتصرف فيكم على قضية إرادته { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 245] فيجازيكم على أعمالكم { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } [السجدة : 3] بل أيقولون افتراه { قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى } [هود : 35] أي إن صح أني افتريته فعلي عقوبة إجرامي أي افترائي يقال أجرم الرجل إذا أذنب { وَأَنَا بَرِى ءٌ } [هود : 35] أي ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه ومعنى { مِّمَّا تُجْرِمُونَ

} [هود : 35] من إجرامكم في إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم { وَأُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ ءَامَنَ } [هود : 36]
إقناط من إيمانهم وأنه غير متوقع وفيه دليل على أن للإيمان حكم التجدد كأنه قال إن الذي آمن يؤمن في حادث الوقت وعلى ذلك يخرج الزيادة التي ذكرت في الإيمان بالقرآن { فَلا تَبْتَاِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [هود : 36] فلا تحزن حزن بائس مستكين والابتئاس افتعال من البؤس وهو الحزن والفقر والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك
268
جزء : 2 رقم الصفحة : 268

(159/2)

{ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } [هود : 37] هو في موضع الحال أي اصنعها محفوظاً وحقيقته ملتبساً بأعيننا كأن لله معه أعينا تكلؤه من أن يزيغ في صنعته عن الصواب (وَوَحينَا) وأنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطير { وَلا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا } [هود : 37] ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك { إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } [هود : 37] محكوم عليهم بالإغراق وقد قضي به وجف القلم فلا سبيل إلى كفه { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } [هود : 38] حكاية حال ماضية { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلا مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ } [هود : 38] من عمله السفينة وكان يعملها في برية في أبعد موضع من الماء فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له يا نوح صرت نجاراً بعدما كنت نبياً { قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ } [هود : 38] عند رؤية الهلاك { كَمَا تَسْخَرُونَ } [هود : 38] منا عند رؤية الفلك روى أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع أو ألفاً ومائتي ذراع وعرضها خمسون ذراعاً أو ستمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب نوح ومن معه من في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله حاجزاً بين الرجال والنساء { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ } [هود : 39] من في محل النصب بتعلمون أي فسوف تعلمون الذي يتأتى { عَذَابٌ يُخْزِيهِ } [هود : 93] ويعني به إياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق { وَيَحِلُّ عَلَيْهِ } [هود : 39] وينزل عليه { عَذَابٌ مُّقِيمٌ } [المائدة : 37] وهو عذاب الآخرة
269
جزء : 2 رقم الصفحة : 269

{ حَتَّى } هي التي يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهي غاية لقوله ويصنع الفلك أي وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد وما بينهما من الكلام حال من يصنع أي يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه وجواب كلما سخروا وقال استئناف على تقدير سؤال سائل أو قال جواب وسخروا بدل من مر أو صفة لملأ { إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا } [هود : 40] عذابنا { وَفَارَ التَّنُّور } [المؤمنون : 27] هو كناية عن اشتداء الأمر وصعوبته وقيل معناه جاش الماء من تنور الخبز وكان من حجر لحواء فصار إلى نوح عليه السلام وقيل التنور وجه الأرض { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا } [هود : 40] في السفينة { مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [هود : 40] تفسيره في سورة المؤمنين { وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } [هود : 40] عطف على اثنين وكذا { وَمَنْ ءَامَنَ } [هود : 40] أي واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر بتقديره وإرادته جل خالق العباد عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد { وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُا إِلا قَلِيلٌ } [هود : 40] قال عليه السلام : " كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم " وقيل كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل كانوا اثنين وسبعين رجالاً ونساء وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْارااهَا وَمُرْسَااهَآ } [هود : 41] بسم الله متصل باركبوا حالاً من الواو أي اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها إما لأن المجرى والمرسى للوقت وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم خفوق النجم ويجوز أن يكون بسم الله

(160/2)

مجرها ومرساها جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها وهي مبتدأ وخبر يعني أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أي باسم الله إجراؤها وإرساؤها وكان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست.

مجريها بفتح الميم وكسر الراء من جرى إما مصدر أو وقت حمزة وعلي وحفص وبضم الله الميم وكسر الراء أبو عمرو والباقون بضم الميم وفتح الراء { إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ } [هود : 41] لمن آمن منهم { رَّحِيمٌ } حيث خلصهم

{ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ } [هود : 42] متصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل فركبوا فيها يقولون بسم الله وهي تجري بهم أي السفينة تجري وهم فيها { فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ } [هود : 42] يريد

موج الطوفان وهو جمع موجة كتمر وتمرة وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ } [هود : 42] كنعان وقيل يام والجمهور على أنه ابنه الصلبي وقيل كان ابن امرأته { وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ } [هود : 42] عن أبيه السفينة مفعل من عزله عنه إذانحاه وأبعده أو في معزل عن دين أبيه { يَابُنَىَّ } بفتح الياء عاصم اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك يا بنيا.

غيره بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة { ارْكَب مَّعَنَا } [هود : 42] في السفينة أي أسلم واركب { وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ } [هود : 42] { قَالَ سَاَاوِى } [هود : 43] ألجأ { إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَآءِ } [هود : 43] يمنعني من الغرق { قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ } [هود : 43] إلا الراحم وهو الله تعالى أولاً عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحم الله ونجاهم يعني السفينة

271

أو هو استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله مالهم به من علم إلا اتباع الظن { وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ } [هود : 43] بين ابنه والجبل أو بين نوح وابنه { فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } [هود : 43] فصار أو فكان في علم الله

جزء : 2 رقم الصفحة : 271

{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَآءَكِ } انشفى وتشربي ، والبلع : النشف { وَيَاسَمَآءُ أَقْلِعِى } [هود : 44] أمسكي { وَغِيضَ الْمَآءُ } [هود : 44] نقص من غاصه إذا نقصه وهو لازم ومتعد { وَقُضِىَ الامْرُ } [هود : 44] وأنجز ما وعد الله نوحاً من إهلاك قومه { وَاسْتَوَتْ } واستقرت السفينة بعد أن طافت الأرض كلها ستة أشهر { عَلَى الْجُودِىِّ } [هود : 44] وهو جبل بالموصل { وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } أي سحقاً لقوم نوح الذين غرقوا يقال بعد بعداً وبَعَداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ولذلك اختص بدعاء السوء والنظر في هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول تعالى لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد وأن نقطع طوفان المساء فانقطع وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض وأن نقضي أمر نوح وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضى وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت وأبقينا الظلمة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمر الذي لا يأتي منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكون المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويراً لاقتداره العظيم وأن السماوات والأرض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة لإرادته فيها تغييراً وتبديلاً كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علماً بوجوب الإنقياد لأمره والإذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام فقال عز وجل { وَقِيلَ } على سبيل المجاز على الإرادة الواقع بسببها قول القائل وجعل

قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض ويا سماء ثم قال مخاطباً لهما يا
272

(161/2)

أرض ويا سماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ثم استعار لعور الماء في الأرض البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي ثم استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء في الإنبات كتقوى الآكل بالطعام ثم قال ماءك بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لا تصال المال بالأرض كاتصال الملك بالمالك ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم التأني ثم قال وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا ولم يصرح بمن أغاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وقال بعداً كما لم يصرح بقائل يا أرض ويا سماء سلوكافي كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وأن فاعلها واحد لا يشارك في فعله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوي غيره ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم إظهاراً لمكان السخط وأن ذلك العذاب الشديد ما كان إلا لظلمهم ومن جهة علم المعان وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها وذلك أنه اختير يا دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً ولدلالتها على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة والملكوت وإبداء العزة والجبروت وهو تبعيد المنادي المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا أرضي لزيادة التهاون إذ الإضافة تستدعي القرب ولم يقل يا أيتها الأرض للاختصار واختير لفظ الأرض والسماء لكونهما أخف وأدور واختير ابلعي على ابتلعي لكونه أخصر وللتجانس بينه وبين أقلعي وقيل أقلعي ولم يقل عن المطر وكذا لم يقل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ويا سماء أقلعي أقلعت اختصاراً واختير غيض على غيّض وقيل الماء دون أن يقول ماء الطوفان والأمر ولم يقل أمر نوح وقومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ولم يقل وسويت على الجودي أي أقرت على نحو قيل وغيض اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله وهي تجري بهم إرادة للمطابقة ثم قيل بعداً للقوم ولم يقل ليبعد القوم طلباً للتأكيد مع الاختصار هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنه قدم النداء على الأمر فقيل يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي ولم يقل ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء جرياً
273

على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادي قصداً بذلك لمعنى الترسيخ ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء وابتدىء به لابتداء الطوفان منها ثم اتبع وغيض الماء لإتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها ثم ذكر ما هو المقصود القصة وهو قوله وقضي الأمر أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه في الفلك وعلى هذا فاعتبر ومن جهة الفصاحة المعنوية وهي كما ترى نظم للمعاني لطيف وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المزاد ولا التواء يشبك الطريق إلى المرتاد ومن جهة الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الأسَلات كل منها كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور

جزء : 2 رقم الصفحة : 272

(162/2)

{ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ } [هود : 45] نداؤه ربه دعاؤه له وهو قوله رب مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله { إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى } [هود : 45] أي بعض أهلي لأنه كان ابنه من صلبه أو كان ربيباً له فهو بعض أهله و { إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى } [هود : 45] أي بعض أهلي لأنه كان ابنه من صلبه أو كان ربيباً له فهو بعض أهله { وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ } [هود : 45] وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي { وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } [هود : 45] أي أعلم الحكام وأعدلهم إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر { قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } ثم علل لانتفاء كونه من أهله بقوله
274
{ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } [هود : 46] وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن نسيبك في دينك وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك ومن لم يكن على دينك وإن كان أمسّ أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمة كقولها : فإنما هي إقبال وإدبار أو التقدير إنه ذو عمل وفيه إشعار بأنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهله وهذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته.

عمِل غير صالح علي قال الشيخ أبو منصور رحمه الله كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على

دينه لأنه كان ينافق وإلا لا يحتمل أن يقول ابني من أهلي ويسأله نجاته وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فكان يسأله على الظاهر الذي عنده كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه السلام ويضمرون الخلاف له ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه وقوله ليس من أهلك أي من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر
جزء : 2 رقم الصفحة : 274

{ فَلا تَسْأَلْنِ } [الكهف : 70] اجتزاء بالكسر عن الياء كوفي تسألْني بصري تسألّني مدني تسألَنِّ شامي فحذف الياء واجتزأ بالكسرة والنون نون التأكيد تسألنَّ مكي { مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [هود : 46] بجواز مسألته { إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود : 46] هو كما نهى رسولنا بقوله فلا تكونن من الجاهلين { قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ } [هود : 47] أي من أن أطلب منك من المستقبل ما لا علم لي بصحته تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك { وَإِلا تَغْفِرْ لِى } [هود : 47] ما فرط مني { وَتَرْحَمْنِى } بالعصمة عن العود إلى مثله { أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا } بتحية منا أو بسلامة من الغرق { وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } [هود : 48] هي الخيرات النامية وهي في حقه بكثرة ذريته وأتباعه فقد جعل أكثر الأنبياء من ذريته وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله { وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ } [هود : 48] من للبيان فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم
275
لأن الأمم تتشعب منهم أو لابتداء الغاية أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه { وَأُمَمٌ } رفع بالابتداء { سَنُمَتِّعُهُمْ } في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وإنما حذف لأن ممن معك يدل عليه { ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [هود : 48] أي في الآخرة والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك.

وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة وعن محمد ابن كعب دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر
جزء : 2 رقم الصفحة : 274

(163/2)

{ تِلْكَ } إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها وهي { مِنْ أَنابَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلا قَوْمُكَ } [هود : 49] أخبار أي تلك القصة بعض أنباء

الغيب موحاة إليك مجهولة وعند قومك { مِن قَبْلِ هَاذَا } [الأحقاف : 4] الوقت أو من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها { فَاصْبِرْ } على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح وقومه { إِنَّ الْعَاقِبَةَ } [هود : 49] في الفوز والنصر والغلبة { لِلْمُتَّقِينَ } عن الشرك { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ } [الأعراف : 65] واحداً منهم وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحاً أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم { هُودًا } عطف بيان { قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ } وحدوه { مَا لَكُم مِّنْ إِلَـاهٍ غَيْرُهُا } [الأعراف : 59] بالرفع نافع صفة على محل الجار والمجرور وبالجر عليّ على اللفظ { إِنْ أَنتُمْ إلا مُفْتَرُونَ } [هود : 50] تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء { يَاقَوْمِ لا أَسْاَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إلا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَفَلا تَعْقِلُونَ } ما من

276

رسول إلا واجه قومه بهذا القول لأن شأنهم النصيحة والنصيحة لا يمحضها إلا حسم المطامع وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع { تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو ثواب الآخرة ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك

جزء : 2 رقم الصفحة : 276

{ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } آمنوا به { ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ } [هود : 61] من عبادة غيره { يُرْسِلِ السَّمَآءَ } [نوح : 11] أي المطر { عَلَيْكُم مِّدْرَارًا } [نوح : 11] حال أي كثير الدرر { وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ } [هود : 52] إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شيء إلى الماء وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة البطش والقوة وقيل أراد القوة بالمال أو على النكاح وقيل حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم فوعدهم هود عليه السلام المطر والأولاد على الإيمان والاستغفار وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية فلما خرج قال له بعض حجابه إني رجل ذو مال ولا يولد لي علمني شيئاً لعل الله يرزقني ولدا فقال الحسن عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشرة بنين فبلغ ذلك معاوية فقال : هلا سألته مم قال ذلك فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود : ويزدكم قوة إلى قوتكم ، وقول نوح : ويمددكم بأموال وبنين { وَلا تَتَوَلَّوْا } [هود : 52] ولا تعرضوا عني وعما أدعو إليه { مُجْرِمِينَ } مصرين على إجرامكم وآثامكم { قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ } كذب منهم وجحود كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلّم { لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ } [يونس : 20] مع فوت آياته الحصر { وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ } [هود : 53] هو حال من من الضمير في تاركي آلهتنا كأنه قيل وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك { وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } [هود : 53] وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه أقناطاً له من الإجابة { إِن نَّقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُواءٍ } [هود : 54] إن حرف نفي فنفى جميع القول

277

إلا قولاً واحداً وهو قولهم اعتراك أصابك بعض آلهتنا بسوء بجنون وخبل وتقدير ما نقول قولا إل هذه المقالة أي قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء { قَالَ إِنّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنّى بَرِى ءٌ مّمَّا تُشْرِكُونَ } [هود : 54]

جزء : 2 رقم الصفحة : 277

(164/2)

{ مِن دُونِهِ } أي من إشراككم آلهة من دونه والمعنى إني أشهد الله أني برىء مما تشركون واشهدوا أنتم أيضاً إني برىء من ذلك وجىء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه أشهد على أني لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله { فَكِيدُونِى جَمِيعًا } [هود : 55] أنتم وآلهتكم { ثُمَّ لا تُنظِرُونِ } [هود : 55] لا تمهلون فإني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم على وكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا يضر ولا ينفع وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي { إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبّى وَرَبّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ ءَاخِذُ بِنَاصِيَتِهَآ } [هود : 56] أي مالكها ، ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ومن كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه والأخذ بالناصية تمثيل لذلك { إِنَّ رَبّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [هود : 56] إن ربي على الحق لا يعدل عنه أو إن ربي يدل على صراط مستقيم { فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ } [هود : 57] هو في موضع فقد ثبتت الحجة عليكم { وَيَسْتَخْلِفُ رَبّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ } [هود : 57] كلام مستأنف أي ويهلككم الله ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم { وَلا تَضُرُّونَهُ } [هود : 57] بتوليكم { شيئا } من ضرر قط إذ لا يجوز علي المضار وإنما تضرون أنفسكم { إِنَّ رَبّى عَلَى كُلّ شَىْءٍ حَفِيظٌ } [هود : 57] رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضار لم يضر مثله مثلكم

278

جزء : 2 رقم الصفحة : 278

{ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ } [هود : 58] وكانوا أربعة آلاف { بِرَحْمَةٍ مّنَّا } [هود : 94] أي بفضل منا لا بعملهم أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم { وَنَجَّيْنَاهُم مّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود : 58] وتكرار نجينا للتأكيد أو الثانية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه { عَادٌ جَحَدُوا } [هود : 59] إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال : سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ثم استأنف وصف أحوالهم فقال : { جَحَدُوا بِاَيَاتِ رَبّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ } [هود : 59] لأنهم إذا عصوا

رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله لا نفرق بين أحد من رسله { وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود : 59] يريد رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل لأنهم الذين يجبرون الناس على الأمور ويعاندون ربهم ومعنى اتباع أمرهم طاعتهم { وَأُتْبِعُوا فِى هَاذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ } [هود : 60] لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين { أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ } [هود : 60] تكرار ألا مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم والدعاء ببعداً بعد هلاكهم وهو دعاء بالهلاك للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له { قَوْمِ هُودٍ } [هود : 60] عطف بيان لعاد وفيه فائدة لأن عادا عادان الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم والأخرى إرم { الارْضِ } لم ينشئكم منها إلا هو وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب ثم خلقهم من آدم { وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود : 61] وجعلكم عمارها وأراد منكم عمارتها أو استعمركم من العمر أي أطال أعماركم فيها وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم فأوحى

279

إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي { فَاسْتَغْفِرُوهُ } فاسألوا مغفرته بالإيمان { ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ } [هود : 61] داني الرحمة { مُّجِيبٌ } لمن دعاه

جزء : 2 رقم الصفحة : 279

(165/2)

{ قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا } فيما بيننا { مَرْجُوًّا قَبْلَ هَاذَآ } [هود : 62] للسيادة والمشاورة في الأمور أو كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه { أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا } [هود : 62] حكاية حال ماضية { وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ } [هود : 62] من التوحيد { مُرِيبٍ } موقع في الريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة { قَالَ يَاقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَانِى } نبوة أتى بحرف الشك مع أنه على يقين أنه على بينة لأن خطابه للجاحدين فكأنه قال قدروا أنى على بينة من ربي وأنني نبي على الحقيقة وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره { فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ } [هود : 63] فمن يمنعني من عذاب الله { إِنْ عَصَيْتُهُ } [هود : 63] في تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الأوثان { فَمَا تَزِيدُونَنِى } [هود : 63] بقولكم : أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا { غَيْرَ تَخْسِيرٍ } [هود : 63] بنسبتكم إياي إلى الخسار أو بنسبتي إياكم إلى الخسران { مِّن رَّبِّكُمْ هَاذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً } نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل ولكم متعلق بآية حالاً منها متقدمة لأنها لو تأخرت لكانت

صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال { فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ } [الأعراف : 73] أي ليس عليكم رزقها مع أن لكم نفعها { وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُواءٍ } [الأعراف : 73] عقر أو نحر { فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ } [هود : 64] عاجل { فَعَقَرُوهَا } يوم الأربعاء { فَقَالَ } صالح { تَمَتَّعُوا } استمتعوا بالعيش { فِى دَارِكُمْ } [هود : 65] في بلدكم وتسمى البلاد الديار لأنه يدار فيها أي يتصرف أو في
280
دار الدنيا { ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } [آل عمران : 41] ثم تهلكون فهلكوا يوم السبت { ذالِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [هود : 65] أي غير مكذوب فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به أو وعد غير كذب على أن المكذوب مصدر كالمعقول

جزء : 2 رقم الصفحة : 280

{ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا } [هود : 82] بالعذاب أو عذابنا { نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا } [هود : 66] قال الشيخ رحمه الله : هذا يدل على أن من نجى إنما نجى برحمة الله تعالى لا بعمله كما قال عليه السلام : " لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله " { وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِاِذٍ } [هود : 66] بإضافة الخزي إلى اليوم وإنجرار اليوم بالإضافة.

وبفتحها مدني وعلي لأنه مضاف إلي إذ وهو مبني وظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف إليه كقوله على حين عاتبت المشيب على الصبا والواو للعطف وتقديره ونجيناهم من خزي يومئذ أي من ذله وفضيحته ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه وجاز أن يريد بيومئذ يوم القيامة كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ } [هود : 66] القادر على تنجية أوليائه { الْعَزِيزُ } الغالب بإهلاك أعدائه { وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ } أي صيحة جبريل عليه السلام { فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ } [هود : 67] منازلهم { جَاثِمِينَ } ميتين { كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ } [هود : 68] لم يقيموا فيها { أَلا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ } ثمودَ حمزة وحفص { أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ } [هود : 68] لِثَمُودٍ علي فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة
281

جزء : 2 رقم الصفحة : 281

(166/2)

{ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ } [هود : 69] جبريل وميكائيل وإسرافيل أو جبريل مع أحد عشر ملكاً { إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى } [العنكبوت : 31] هي البشارة بالولد أو بهلاك قوم لوط والأول أظهر { قَالُوا سَلَامًا } [الفرقان : 63] سلمنا عليك سلاماً { قَالَ سَلَامٌ } [مريم : 47] أمركم سلام.

سِلم حمزة وعلي بمعنى السلام { فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ } [هود : 69] فما لبث في المجيء به بل عجل فيه أو فما لبث مجيئه ، والعجل ولد البقرة وكان مال إبراهيم البقر { حَنِيذٍ } مشوي بالحجارة المحماة { فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ } نكر وأنكر بمعنى وكانت عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه والظاهرة أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه دليله قوله { وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود : 70] أي أضمر منم خوفاً { قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ } [هود : 70] بالعذاب وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه { وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ } [هود : 71] وراء الستر تسمع تحاورهم أو على رؤوسهم تخدمهم { فَضَحِكَتْ } سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث أو من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب أو فحاضت { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ } [هود : 71] وخصت بالبشارة لأن النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال ولأنه لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل { وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ } [هود : 71] ومن بعده { يَعْقُوبَ } بالنصب شامي وحمزة وحفص بفعل مضمر دل عليه فبشرناها أي فبشرناها بإسحاق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحاق وبالرفع غيرهم على الابتداء والظرف قبله خبر كما تقول في الدار زيد { قَالَتْ يَا أَيُّهَا } الألف مبدلة من ياء الإضافة وقرأ الحسن يا ويلتي بالياء على الأصل { ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَاذَا } [هود : 72] ابنة تسعين سنة { وَهَاذَا بَعْلِى شَيْخًا } [هود : 72] ابن مائة وعشرين

سنة ، هذا مبتدأ وبعلي خبره وشيخاً حال والعامل معنى الإشارة التي دلت عليه ذا أو معنى التنبيه الذي دل عليه هذا { إِنَّ هَاذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ } [هود : 72] أن يولد ولد من هرمين وهو استبعاد من حيث العادة

{ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود : 73] قدرته وحكمته وإنما أنكرت الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ } [هود : 73] أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجيب وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم.

وقيل الرحمة : النبوة ، والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم وأهل البيت نصب على النداء أو على الاختصاص { إِنَّهُ حَمِيدٌ } [هود : 73] محمود بتعجيل النعم { مَّجِيدٌ } ظاهر الكرم بتأجيل النقم { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ } [هود : 74] الفزع وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه { وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَى } [هود : 74] بالولد { يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ } [هود :

74] أي لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملىء سروراً بسبب البشرى فرغ للمجادلة.
وجواب لما محذوف تقديره أقبل يجادلنا أو يجادلنا جواب لما وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال والمعنى يجادل رسلنا ومجادلته إياهم أنهم قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية فقال أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتهلكونها قالوا : لا ، قال فأربعون قالوا : لا ، قال فثلاثون قالوا : لا حتى بلغ العشرة قالوا : لا ، قال أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ } [هود : 75] غير عجول على كل من أساء إليه أو كثير الاحتمال
283

(167/2)

ممن آذاه ، صفوح عمن عصاه { أَوَّاهٌ } كثير التأوه من خوف الله { مُّنِيبٌ } تائب راجع إلى الله وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة كما حمله على الاستغفار لأبيه فقالت الملائكة
جزء : 2 رقم الصفحة : 283
{ مُّنِيبٌ * يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَاذَآ } الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك { إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ } [هود : 76] قضاؤه وحكمه { وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [هود : 76] لا يرد بجدال وغير ذلك عذاب مرتفع باسم الفاعل وهو آتيهم تقديره وإنهم يأتيهم ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ { وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا } [هود : 77] لما أتوه ورأى هيئاتهم وجمالهم { سِى ءَ بِهِمْ } [هود : 77] أحزن لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم { وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا } [هود : 77] تمييز أي وضاق بمكانهم صدره { وَقَالَ هَاذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } [هود : 77] شديد روى أن الله تعالى قال لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد الله إنها لشر قرية في الأرض عملاً قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها { وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ } [هود : 78] يسرعون كأنما يدفعون دفعاً { وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّآاتِ } [هود : 78] ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش حتى مرنوا عليها وقل عندهم استقباحها فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء { قَالَ يَاقَوْمِ هؤلاء بَنَاتِى } فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً في ذلك الوقت كما جاز في الابتداء في هذه الأمة فقد
284

زوج رسول الله صلى الله عليه وسلّم ابنتيه من عتبه بن أبي لهب وأبي العاص وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد لوط أن يزوجهما ابنتيه { هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } [هود : 78] أحل هؤلاء مبتدأ وبناتي عطف بيان وهن فصل وأطهر خبر المبتدأ أو بناتي خبر وهن أطهر مبتدأ وخبر { فَاتَّقُوا اللَّهَ } [آل عمران : 123] بإيثارهن عليهم { وَلا تُخْزُونِ } [الحجر : 69] ولا تهينوني ولا تفضحوني من الخزي أو ولا تخجلوني من الخزاية وهي الحياء وبالياء أبو عمرو في الوصل { فِى ضَيْفِى } [هود : 78] في حق ضيوفي فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة { أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ } [هود : 78] أي رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء

جزء : 2 رقم الصفحة : 284

{ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ } [هود : 79] حاجة لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا إتيان الذكران { وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ } [هود : 79] عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة { قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [هود : 80] جواب لو محذوف أي لفعلت بكم ولصنعت والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته.

روى أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل ترادّهم ما حكى الله عنه وتجادلهم فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب

285

جزء : 2 رقم الصفحة : 285

(168/2)

{ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِاِينَ } [يوسف : 97-70] إن ركنك لشديد { إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ } [هود : 81] فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم كما قال الله تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون : النجاء ، النجاء فإن في بيت لوط قوماً سحرة { لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ } [هود : 81] جملة موضحة للتي قبلها لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره { فَأَسْرِ } فأسر بالوصل حجازي من سرى { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ } [الحجر : 65] طائفة منه أو نصفه { وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ } [هود : 81] بقلبه إلى ما خلف أو لا ينظر إلى ما وراءه أو لا يتخلف منكم أحد { إِلا امْرَأَتَكَ } [هود : 81] مستثنى من فأسر بأهلك.

وبالرفع مكي وأبو عمرو على البدل من أحد وفي إخراجها مع أهله روايتان روى أنه أخرجها معهم

وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها وروى أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإنّ هواها إليهم فلم يسر بها واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين

{ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ } [هود : 81] أي إن الأمر وروي أنه قال لهم متى موعد هلاكهم قالوا : { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ } [هود : 81] فقال : أريد أسرع من ذلك فقالوا : { أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [هود : 81] { فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } [هود : 82] جعل جبريل عليه السلام جناحه في أسفلها أي أسفل قراها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله : { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ } [هود : 82] هي كلمة معربة من سنك كل بدليل قوله حجارة من طين { مَّنضُودٍ } نعت لسجيل أي متتابع أو مجموع معد للعذاب

286

جزء : 2 رقم الصفحة : 286

{ مُّسَوَّمَةً } نعت لحجارة أي معلمة للعذاب قيل مكتوب على كل واحد اسم من يرمي به { عِندَ رَبِّكَ } [الكهف : 46] في خزائنه أو في حكمه { وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ } [هود : 83] بشيء بعيد وفيه وعيد لأهل مكة فإن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم يعني ظالمي أمتك ما من ظالم منهم إلا وهي بعرَض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة أو الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا } [العنكبوت : 36] هو اسم مدينتهم أو اسم جدهم مدين بن إبراهيم أي وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدين أو إلى بني مدين { قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ } أي المكيل بالمكيال { وَالْمِيزَانَ } والموزون بالميزان { إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْرٍ } [هود : 84] بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون { وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ } [هود : 84] مهلك من قوله وأحيط بثمره وأصله من إحاطة العدو والمراد عذاب الاستئصال في الدنيا أو عذاب الآخرة { مُّحِيطٍ * وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ } اتموهما { بِالْقِسْطِ } بالعدل نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه وجيء به مقيداً بالقسط أي ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان

جزء : 2 رقم الصفحة : 287

{ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ } [الأعراف : 85] البخس : النقص كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك { وَلا تَعْثَوْا فِى الارْضِ مُفْسِدِينَ } [البقرة : 60] العثي والعيث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثيا منهم في الأرض {

بَقِيَّتُ اللَّهِ } [هود : 86] ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم
287

(169/2)

{ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [الأعراف : 85] بشرط أن تؤمنوا.
نعم بقية الله خير للكفرة أيضاً لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف إلا أن فائدتها تظهر مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ولا تظهر مع عدمه لإنغماس صاحبها في غمرات الكفر وفي ذلك تعظيم للإيمان وتنبيه على جلالة شأنه أو المراد إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم { وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ } [الأنعام : 104] لنعمة عليكم فاحفظوها بترك البخس
جزء : 2 رقم الصفحة : 287
{ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ } [يوسف : 97-177] وبالتوحيد كوفي غير أبي بكر { قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَواتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى } [هود : 87] كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه يقولون له ما تستفيد بهذا فكان يقول : إنها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح فقالوا على وجه الاستهزاء أصلواتك تأمرك أن تأمرنا بترك عبادة ما كان يعبد آباؤنا أو أن نترك التبسط في أموالنا ما نشاء من إيفاء ونقص جاز أن تكون الصلوات آمرة مجازاً كما سماها الله تعالى ناهية مجازاً { إِنَّكَ لانتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود : 87] أي السفية الضال وهذه تسمية على القلب استهزاء أو إنك حليم رشيد عندنا ولست تفعل بنا ما يقتضيه حالك { قَالَ يَاقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ } [هود : 88] من لدنه { رِزْقًا حَسَنًا } [النحل : 75] يعني النبوة والرسالة أو مالاً حلالاً من غير بخس وتطفيف وجواب أرأيتم محذوف أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي وكنت نبياً على الحقيقة أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي ، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك.
يقال خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى لماء يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً ومنه قوله : { عَنْهُ } يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد
288
بها دونكم { إِنْ أُرِيدُ إِلا الاصْلَاحَ } [هود : 88] ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهي عن المنكر { مَا اسْتَطَعْتُ } [هود : 88] ظرف أي مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً { وَمَا تَوْفِيقِى إِلا بِاللَّهِ } [هود : 88] وما كوني موفقاً لإصابة الحق

فيما آتى وآذر إلا بمعونته وتأييده { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } [هود : 88] اعتمدت { وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود : 88] أرجع في السراء والضرآء.

جرم مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين ومنه قوله :

جزء : 2 رقم الصفحة : 288

(170/2)

{ أُنِيبُ * وَيَاقَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَن يُصِيبَكُم } أي لا يكسبنكم خلافي إصابة العذاب { مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ } [هود : 89] وهو الغرق والريح والرجفة { وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ } [هود : 89] في الزمان فهم أقرب الهالكين منكم أو في المكان فمنازلهم قريبة منكم أو فيما يستحق به الهلاك وهو الكفر والمساوىء.

وسُوّي في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوها { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ } [هود : 90] يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين { وَدُودٌ } يحب أهل الوفاء من الصالحين { قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ } أي لا نفهم صحة ما تقول وإلا فكيف لا يفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء { وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا } [هود : 91] لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً { وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } [هود : 91] ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم وهو شر قتلة وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم { وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [هود : 91] أي لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك على الرجم وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في

289

الفعل كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا ولذلك

جزء : 2 رقم الصفحة : 289

{ قَالَ } في جوابهم { قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ } [هود : 92] ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب وإنما قال : أرهطي أعز عليكم من الله والكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه لأن تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ألا ترى أن قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله { وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا } [هود : 92] ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المبنوذ وراء الظهر لا يعبأ به والظهري منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب كقولهم في النسبة إلى الأمس أمسى { إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [هود : 92] قد أحاط بأعمالكم علماً فلا يخفى عليه شيء منها { لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } [هود :

121] هي بمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة أو مصدر من مكن مكانة فهومكين إذا تمكن من الشيء يعني اعملوا قارين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك ، والشنآن لي أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها { إِنِّى عَامِلٌ } [هود : 93] على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني { سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ } [هود : 93] من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها كأنه سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه أي يفضحه وأينا هو كاذب أو موصولة قد عمل فيها كأنه قيل سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب في زعمكم ودعواكم وإدخال الفاء في سوف وصل ظاهر بحرف وضع للوصل ونزعها وصل تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون والإتيان بالوجهين للتفنن في البلاغة وأبلغهما الاستئناف { وَارْتَقِبُوا } وانتظروا العاقبة وما أقول لكم { إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ } [هود : 93] منتظر ، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب بمعنى الضارب أو بمعنى المراقب كالعشير بمعنى المعاشر أو بمعنى المرتقب كالرفيع بمعنى المرتفع

(171/2)

{ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ } [هود : 94] صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا وإنما ذكر في آخر قصة عاد ومدين ولما جاء وفي آخر قصة ثمود ولوط فلما جاء لأنهما وقعا بعد ذكر الموعد وذلك قوله : إن موعدهم الصبح.
ذلك وعد غير مكذوب ، فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب كقولك وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت وأما الأخريان فقد وقعتا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة { فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : 67] الجاثم اللازم لمكانه لا يريم يعني أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو بغتة { كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ } [هود : 68] كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين { أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ } [هود : 95] البعد بمعنى البعد وهو الهلاك كالرشد بمعنى الرشد ألا ترى إلى قوله : { كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ } [هود : 95] وَقرى كما بعُدت والمعنى في البناءين واحد وهو نقيض القرب إلا أنهم فرقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا : وعد وأوعد { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِـَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [هود : 96] المراد به العصا لأنها أبهرها { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَايْهِ فَاتَّبَعُوا } [هود : 97] أي الملأ { أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } [هود : 97] هو تجهيل

لمتبعيه حيث شايعوه على أمره وهو ضلال مبين وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان ومثله بمعزل عن الألوهية وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين وعلموا أن مع موسى الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط أو المراد وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله

291

جزء : 2 رقم الصفحة : 291

{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [هود : 98] أي يتقدمهم وهم على عقبه تفسيراً له وإيضاحاً أي كيف يرشد أمر من هذه عاقبته والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى كما استعمل الغي في كل ما يذم ويقال قدَمه بمعنى تقدمه { فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ } [هود : 98] أدخلهم وجيء بلفظ الماضي لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكأنه قيل يقدمهم فيوردهم النار لا محالة يعني كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه { وَبِئْسَ الْوِرْدُ } [هود : 98] المورد و { الْمَوْرُودُ } الذي وردوه شبه بألفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال : وبئس الورد المورود الذي يردونه النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش والنار ضده { وَأُتْبِعُوا فِى هَاذِهِ } [هود : 60] أي الدنيا { لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ } [هود : 60] أي يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة { بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ } [هود : 99] رفدهم أي بئس العون المعان أو بئس العطاء المعطي { ذَالِكَ } مبتدأ { مِنْ أَنابَآءِ الْقُرَى } [هود : 100] خبر { نَقُصُّهُ عَلَيْكَ } [هود : 100] خبر بعد خبر أي ذلك النبأ بعض أبناء القرى المهلكة مقصوص عليك { مِنْهَا } من القرى { قَآ ئِمٌ وَحَصِيدٌ } [هود : 100] أي بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } [هود : 101] بإهلاكنا إياهم { وَلَاكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ } [هود : 101] بارتكاب ما به أهلكوا { فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ } [هود : 101] فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله { الَّتِى يَدْعُونَ } [هود : 101] يعبدون وهي حكاية حال ماضية { مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ } [هود : 101] عذابه ولما منصوب بما أغنت { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود : 101] تخسير يقال تب إذا خسر وتببه غيره أوقعه في الخسران يعني وما أفادتهم عبادة غير الله شيئاً بل أهلكتهم

292

جزء : 2 رقم الصفحة : 292

{ وَكَذالِكَ } محل الكاف الرفع أي ومثل ذلك الأخذ { أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَى } [هود : 102] أي أهلها { وَهِىَ ظَـالِمَةٌ } [هود : 102] حال من القرى { إِنَّ أَخْذَهُا أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102] مؤلم شديد صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال { إِنَّ فِى ذالِكَ } [السجدة : 26] فيما قص الله من قصص الأمم الهالكة { لاَيَةً } لعبرة { لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الاخِرَةِ } [هود : 103] أي اعتقد صحته ووجوده { ذَالِكَ } إشارة إلى يوم القيامة لأن عذاب الآخرة دل عليه { يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ } [هود : 103] وهو مرفوع بمجموع كما يرفع فعله إذا قلت يجمع له الناس وإنما أوثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم.

وإنه أثبت أيضاً الإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه يجمعون للحساب والثواب والعقاب { وَذَالِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ } [هود : 103] أي مشهود فيه فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد

{ وَمَآ } أي اليوم المذكور.

الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها ، والعد إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها ، فمعنى قوله وما نؤخره { نُؤَخِّرُهُا إِلا لاجَلٍ مَّعْدُودٍ } [هود : 104] إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف أو ما نؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدة التي ضربناها لبقاء الدنيا { يَوْمَ يَأْتِ } [هود : 105] وبالياء مكي وافقه أبو عمرو ونافع وعلى في الوصل وإثبات الياء هو الأصل إذ لا علة توجب حذفها وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ونظيره { مَا كُنَّا نَبْغِ } [الكهف : 64] وفاعل يأت ضمير يرجع إلى قوله يوم مجموع له الناس لا اليوم المضاف إلى يأت ويوم منصوب باذكر أو بقوله { لا تَكَلَّمُ } [هود : 105] أي لا تتكلم { نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ } [هود : 105] أي لا يشفع أحد أحدا إلا بإذن الله ،

293

{ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُا إِلا بِإِذْنِهِ } [البقرة : 255] { فَمِنْهُمْ } الضمير لأهل الموقف لدلالة لأتكلم نفس عليه وقد مر ذكر الناس في قوله مجموع له الناس { شَقِىٌّ } معذب { وَسَعِيدٌ } أي ومنهم سعيد أي منعم

جزء : 2 رقم الصفحة : 293

{ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ } [هود : 106] هو أول نهيق الحمار { وَشَهِيقٌ } هو آخره أو هما إخراج النفس ورده والجملة في موضع الحال والعامل فيها الاستقرار الذي في النار { خَالِدِينَ فِيهَا } [الجن : 23] حال مقدرة { مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالارْضُ } [هود : 107] في موضع النصب أي مدة دام السماوات والأرض والمراد سماوات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد والدليل على أن لها سماوات وأرضاً قوله { يَوْمَ تُبَدَّلُ الارْضُ غَيْرَ الارْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } [إبراهيم : 48] وقيل ما دام فوق وتحت ولأنه لا بد لأهله الآخرة مما يقلهم ويظلهم إما سماء أو عرش وكل ما

أظلك فهو سماء أو هو عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع كقول العرب : ما لاح كوكب ، وغير ذلك من كلمات التأبيد { إِلا مَا شَآءَ رَبُّكَ } [هود : 107] هو استثناء من الخلود في عذاب النار وذلك لأن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار أو بما شاء بمعنى من شاء وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة فيقال لهم الجهنميون وهم المستثنون من أهل الجنة أيضاً لمفارقتهم إياها بكونهم في النار أياماً فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد ولا سعدوا سعادة من لا تمسه النار وهو مروي عن ابن عباس والضحاك وقتادة رضي الله عنهم { إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } [هود : 107] بالشقي والسعيد { وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا } [هود : 108] سُعدوا حمزة وعلي وحفص.

سَعد لازم

294

وسعَده يسعَده متعد { فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالارْضُ إِلا مَا شَآءَ رَبُّكَ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 294

(173/2)

هود : 108] هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه أو معناه إلا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال الاستثناء في الآيتين لأهل الجنة ومعناه ما ذكرنا أنه لا يكون للمسلم العاصي الذي دخل النار خلود في النار حيث يخرج منها ولا يكون له أيضاً خلود في الجنة لأنه لم يدخل الجنة ابتداء ، والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار ردوا الأحاديث المروية في هذا الباب وكفى به إثماً مبيناً { عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } [هود : 108] غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله : { لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [فصلت : 8] وهو نصب على المصدر أي أطعوا عطاء قيل كفرت الجهمية بأربع آيات { عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } [هود : 108].

{ أُكُلُهَا دَآ ئِمٌ } [الرعد : 35].

{ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ } [النحل : 96].

{ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ } [الواقعة : 33].

لما قص الله قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحل بهم من نقمه وما أعد لهم من عذابه قال :

جزء : 2 رقم الصفحة : 294

{ فَلا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء } [هود : 109] أي فلان تشك بعدما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلّم

وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال : { هؤلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ } يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزل بهم مثله وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية وما في مما وكما مصدرية أو
295
موصولة أي من عبادتهم وكعبادتهم أو مما يعبدون من الأوثان ومثل ما يعبدون منها { وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ } [هود : 109] حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباءهم { غَيْرَ مَنقُوصٍ } [هود : 109] حال عند نصيبهم أي كاملاً

جزء : 2 رقم الصفحة : 295

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [هود : 110] التوراة { فَاخْتُلِفَ فِيهِ } [هود : 110] آمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف في القرآن وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلّم { وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ } [يونس : 19] أنه لا يعاجلهم بالعذاب { لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ } [يونس : 19] بين قوم موسى أو قومك بالعذاب المستأصل { وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ } [هود : 110] من القرآن أو من العذاب { مُرِيبٍ } من أراب الرجل إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي { وَإِنَّ كُلا } [هود : 111] التنوين عوض عن المضاف إليه يعني وإن كلهم أي وإن جميع المختلفين فيه وإن مشددة { لَّمَّا } مخفف بصري وعلى ، ما مزيدة جيء بها ليفصل بها بين لام إن ولام { لَيُوَفِّيَنَّهُمْ } وهو جواب قسم محذوف واللام في لما موطئة للقسم والمعنى وإن جميعهم والله ليوفينهم { رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ } [هود : 111] أي جزاء أعمالهم من إيمان وجحود وحسن وقبيح.

بعكس الأولى أبو بكر ، مخففان مكي ونافع على إعمال المخففة عمل الثقيلة اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل ولأن إن تشبه الفعل والفعل يعمل قبل الحذف وبعده نحو لم يكن ولم يك فكذا المشبه به مشددتان غيرهم وهو مشكل وأحسن ما قيل فيه أنه من لممت الشيء جمعته لمَّا ثم وقف فصار لما ثم أجرى الوصل مجرى الوقوف وجاز أن يكون مثل الدعوى والشروى وما فيه ألف التأنيث من المصادر وقرأ الزهري وإن كلا لما بالتنوين كقوله : { أَكْلا لَّمًّا } [الفجر : 19].

وهو يؤيد ما ذكرنا والمعنى وإن كلا ملمومين أي مجموعين كأنه قيل وإن كلا جميعاً كقوله { فَسَجَدَ الْمَلَائكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } [الحجر : 30] وقال صاحب الإيجاز لما فيه معنى الظرف وقد دخل في الكلام اختصار كأنه قيل وإن
296
كلا لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم وقال الكسائي ليس لي بتشديد لما علم { إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [هود : 111]

جزء : 2 رقم الصفحة : 296

{ فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ } [هود : 112] فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها غير عادل عنها { وَمَن تَابَ مَعَكَ } [هود : 112] معطوف على المستتر في استقم وجاز للفاصل يعني فاستقم أنت وليستقم من تاب عن الكفر ورجع إلى الله مخلصاً { وَلا تَطْغَوْا } [هود : 112] ولا تخرجوا عن حدود الله { إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [هود : 112] فهو مجازيكم فاتقوه قيل ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلّم آية كانت أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال : " شيبتني هود " { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } [هود : 113] ولا تميلوا قال الشيخ رحمه الله هذا خطاب لأتباع الكفرة أي لا تركنوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم وفيما يدعونكم إليه { فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ } [هود : 113] وقيل الركون إليهم الرضا بكفرهم وقال قتادة ولا تلحقوا بالمشركين وعن الموفق أنه صلى خلف الإمام فلما قرأ هذه الآية غشي عليه فلما أفاق قيل له فقال هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين ولا تطغوا ولا تركنوا وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك وعن الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : " من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه " ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برّية هل يسقي شربة ماء فقال :

297

لا ، فقيل له يموت قال دعه يموت { وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ } [هود : 113] حال من قوله فتمسكم النار أي فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة ومعناه وما لكم من دون الله من أولياء يقدرون على منعكم من عذاب ولا يقدر على منعكم منه غيرها { ثُمَّ } ثم لا ينصركم هو لأنه حكم بتعذيبكم ومعنى ثم الاستبعاد أي النصرة من الله مستبعدة

جزء : 2 رقم الصفحة : 297

{ تُنصَرُونَ * وَأَقِمِ الصَّلَواةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } [هود : 114] غدوة وعشية { وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ } [هود : 114] وساعات من الليل جمع زلفة وهي ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وصلاة الغدوة الفجر وصلاة العشية الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزلف المغرب والعشاء وانتصاب طرفي النهار على الظرف لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك أقمت عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره.

تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّاَاتِ } [هود : 114–84] إن الصلوات الخمس يذهبن الذنوب وفي الحديث " إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب " أو الطاعات.

قال عليه السلام : " أتبع السيئة الحسنة تمحها " أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر { ذَالِكَ } إشارة إلى فاستقم فما بعده أو القرآن { ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } [هود : 114] عظة للمتعظين نزلت

في عمرو ابن غزية الأنصاري بائع التمر قال لامرأة في البيت تمر أجود فدخلت فقبلها فندم فجاءه حاكياً باكياً فنزلت فقال عليه السلام : " هل شهدت معنا العصر " قال : نعم.
قال : " هي كفارة لك " فقيل أله خاصة قال : " بل للناس عامة " { وَاصْبِرْ } على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به { فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [هود : 115] جاء بما هو مشتمل على جميع الأوامر والنواهي من قوله فاستقم إلى قوله واصبر وغير ذلك من الحسنات

(175/2)

{ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ } [هود : 116] فهلا كان وهو موضوع للتحضيض ومخصوص بالفعل { أُوْلُوا بَقِيَّةٍ } [هود : 116] أولوا فضل وخير وسمى الفضل والجود بقية لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل ويقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، ومنه قولهم : في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا { يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الارْضِ } [هود : 116] عجب محمداً عليه السلام وأمته أن لم يكن في الأمم التي ذكر الله إهلاكهم في هذه السورة جماعة من أولى العقل والدين ينهون غيرهم عن الكفر والمعاصي { إِلا قَلِيلا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ } [هود : 116] استثناء منقطع أي ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي ومن في ممن أنجينا للبيان لا للتبعيض لأن النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله : { أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّواءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا } [الأعراف : 165].
{ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا } [هود : 116] أي التاركون للنهي عن المنكر وهو عطف على مضمر أي إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا { مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ } [هود : 116] أي أتبعوا ما عرفوا فيه التنعيم والترفه من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم { وَكَانُوا مُجْرِمِينَ } [هود : 116] اعتراض وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى } [هود : 117] اللام لتأكيد النفي { بِظُلْمٍ } حال من الفاعل أي لا يصح أن يهلك الله القرى ظالماً لها { وَأَهْلُهَا } قوم { مُصْلِحُونَ } تنزيها لذاته عن الظلم وقيل الظلم الشرك أي لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم لا يضمون إلى شركهم فساداً آخر { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً } [هود : 118] أي متفقين على الإيمان والطاعات عن اختيار ولكن لم يشأ ذلك وقالت المعتزلة.

وهي مشيئة قسر ، وذلك
299
رافع للابتداء فلا يجوز { وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } [هود : 118] في الكفر والإيمان أي ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك
جزء : 2 رقم الصفحة : 299
{ إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ } [هود : 119] إلا ناساً عصمهم الله عن الاختلاف فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه { وَلِذَالِكَ خَلَقَهُمْ } [هود : 119] أي ولما هم عليه من الاختلاف فعندنا خلقهم للذي علم أنهم يصيرون إليه من اختلاف أو اتفاق ولم يخلقهم لغير الذي علم أنهم سيصيرون إليه كذا في شرح التأويلات { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ } [الأعراف : 137] وهي قوله للملائكة لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } لعلمه بكثرة من يختار الباطل { وَكُلا } التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل وكل نبأ وهو منصوب بقوله { نَّقُصُّ عَلَيْكَ } [يوسف : 3] وقوله : { مِنْ أَنابَآءِ الرُّسُلِ } [هود : 120] بيان لكل وقوله : { مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود : 120] بدل من كلا { وَجَآءَكَ فِى هَاذِهِ الْحَقُّ } [هود : 120] أي في هذه السورة أو في هذه الأنباء المقتصة ما هو حق { وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود : 120] ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب { وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [هود : 121] من أهل مكة وغيرهم { اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } [هود : 121] على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها { إِنَّا عَامِلُونَ } [هود : 121] على مكانتنا { وَانتَظِرُوا } بنا الدوائر { إِنَّا مُنتَظِرُونَ } [الأنعام : 158] أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله تعالى من النقم النازلة بأشباهكم { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [هود : 123] لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما فلا تخفي عليه أعمالكم { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الامْرُ كُلُّهُ } [هود : 123] فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم.
يُرجع نافع وحفص { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } [هود : 123] فإنه كافيك
300

وكافلك { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [هود : 123] وبالتاء مدني وشامي وحفص أي أنت وهم على تغليب المخاطب قيل خاتمة التوراة هذه الآية وفي الحديث " من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى " .
301
سورة يوسف عليه السلام
مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية شامي ، واثنتا عشر مكي
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ الار تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [يوسف : 1] تلك إشارة إلى آيات هذه السورة ، والكتاب المبين السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب أو التي تبين لمن تدبَّرها أنها من عند الله لا من عندالبشر أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم أو قد أبيّن فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف عليه السلام فقد روى أن علماء اليهود قالوا للمشركين سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام { إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا } [يوسف : 2] أي أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف عليه السلام في حال كونه قرآناً عربياً وسمى بعض القرآن قرآنا لأنه اسم جنس يقع على كله وبعضه { لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [البقرة : 73] لكي تفهموا معانيه ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [يوسف : 3] نبين لك أحسن البيان والقاص الذي
302
يأتي بالقصة على حقيقتها عن الزجاج ، وقيل القصص يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص نقول : قص الحديث يقصه قصصاً ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنفض والحسب فعلى الأول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص { بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَاذَا الْقُرْءَانَ } [يوسف : 3] أي بإيحائنا إليك هذه السورة على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر لإضافته إليه والمقصوص محذوف لأن بما أوحينا إليك هذا القرآن مغن عنه والمراد بأحسن الاقتصاص أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب فإنك لا ترى اقتصاصه في كتب الأولين مقارباً لاقتصاصه في القرآن وإن أريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث إنما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التي ليس في غيره والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه كما يقال فلان أعلم الناس أي في فنه واشتقاق القصص من قص أثره إذا تبعه لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً { وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ } [يوسف : 3] الضمير يرجع إلى ما أوحينا { لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [يوسف : 3] عنه إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية يعني وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به

جزء : 2 رقم الصفحة : 302

{ إِذْ قَالَ } [البقرة : 258] بدل اشتمال من أحسن القصص لأن الوقت مشتمل على القصص أو التقدير أذكر إذ قال { يُوسُفَ } اسم عبراني لا عربي إذ لو كان عربياً لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف { لابِيهِ } يعقوب أبتَ شامي وهي تاء تأنيث عوضت عن ياء الإضافة لتناسبهما لأن كل واحدة منهما زائدة في آخر الاسم ولهذا قلبت هاء في الوقف وجاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر كما في رجل ربعة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ومن فتح التاء فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في يا غلام { يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ } [يوسف : 4] من الرؤيا لا من الرؤية { أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا } [يوسف : 4] أسماؤها ببيان النبي عليه السلام جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والصروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين {

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } [الأنعام : 96] هما أبواه أو أبوه وحالته والكواكب إخوته قيل الواو
303

(177/2)

بمعنى مع أي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر وأجريت مجرى العقلاء في { رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ } [يوسف : 4] لأنه وصفها بما هو المختص بالعقلاء وهو السجود وكررت الرؤيا لأن الأولى تتعلق بالذات والثانية بالحال أو الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له كأن أباه قال له كيف رأيتها فقال : رأيتهم لي ساجدين أي متواضعين وهو حال وكان ابن ثنتي عشرة سنة يومئذ وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة أو ثمانون

جزء : 2 رقم الصفحة : 303

{ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّاَاتِ } [البقرة : 33-31] بالفتح حيث كان حفص { لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ } [يوسف : 5] هي بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة وفرق بينهما بحر في التأنيث كما في القربة والقربى { عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ } [يوسف : 5] جواب النهي أي أن قصصتها عليهم كادوك عرف يعقوب عليه السلام إن الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الإخوة وإنما لم يقل فيكيدوك كما قال فيكدوني لأنه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو فيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر وهو { كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلانسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } [يوسف : 5] ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد { وَكَذالِكَ } ومثل ذلك الاجتباء الذي دلت عليه رؤياك { يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ } [يوسف : 6] يصطفيك والاجتباء الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك وجبيت الماء في الحوض جمعته { وَيُعَلِّمُكَ } كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك { مِن تَأْوِيلِ الاحَادِيثِ } [يوسف : 101] أي تأويل الرؤيا وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا أو تأويل أحاديث الأنبياء وكتب الله وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة { وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ } [يوسف : 6] بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة أي جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة وآل يعقوب أهله وهم نسله وغيرهم وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهيل إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر يقال آل النبي وآل الملك ولا يقال آل الحجام ولكن أهله وإنما علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً

304

بضوء الكواكب فلذا قال وعلي آل يعقوب { كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] أراد الجد

وأبا الجد { إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ } [يوسف : 6] عطف بيان لأبويك { إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ } [يوسف : 6] يعلم من يحق له الاجتباء { حَكِيمٌ } يضع الأشياء في مواضعها
جزء : 2 رقم الصفحة : 304

(178/2)

{ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ } [يوسف : 7] أي في قصتهم وحديثهم { ءايَاتٌ } علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شيء.
آية مكي { لِّلسَّآئِلِينَ } لمن سأل عن قصتهم وعرفها أو آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلّم للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب ، وأسماؤهم : يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى ويالون ويشجر وأمهم ليا ودان ويغتالي وجاد وآشر من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف { إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا } اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا أن زيادة محتبه لهما أمر ثابت لاشبهة فيه وإنما قالوا وأخوه وهم إخوته أيضاً لأن أمهما كانت واحدة وإنما قيل أحب في الاثنين لأن فعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث ولا بد من الفرق مع لام التعريف وإذا أضيف ساغ الأمران والواو في { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } [يوسف : 8] للحال أي أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما { إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـالٍ مُّبِينٍ } [يوسف : 8] غلط في تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا.
والعصبة العشرة فصاعدا { اقْتُلُوا يُوسُفَ } [يوسف : 9] من جملة ما حكى بعد قوله إذ قالوا كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال : لا تقتلوا يسوف وقيل الآمر بالقتل شمعون والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين { أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا } [يوسف : 9] منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها
305
وإخلائها عن الوصف ولهذا الإبهام نصبت نصب الظروف المبهمة { يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ } [يوسف : 9] يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه وجاز أن يراد بالوجه الذات كما قال ويبقى وجه ربك { وَتَكُونُوا } مجزوم عطفاً على يخل لكم { مِن بَعْدِهِ } [الأحزاب : 53] من بعد يوسف أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب أو من بعد قتله أو طرحه فيرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا { قَوْمًا صَـالِحِينَ } [يوسف : 9] تائبين إلى الله مما

جنيتم عليه أو يصلح حالكم عند أبيكم
جزء : 2 رقم الصفحة : 305
{ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ } [الصافات : 51] هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً { لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ } [يوسف : 10] فإن القتل عظيم { وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ } في قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر. غيابات وكذا ما بعده مدني { يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ } [يوسف : 10] بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق { إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } [يوسف : 10] به شيئاً { قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَانَّا } بالإشفاق { عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } [يوسف : 11] أي لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن يأمنهم عليه { أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ } [يوسف : 12] نرتع نتسع في أكل الفواكه وغيرها والرتعة السعة { وَيَلْعَبْ } ونلعب نتفرج بما يباح كالصيد والرمي والركض.
بالياء فيهما مدني وكوفي وبالنون فيهما مكي وشامي وأبو عمرو وبكسر العين حجازي من ارتعى افتعال من الرعي { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [يوسف : 12] من أن يناله مكروه }
306
جزء : 2 رقم الصفحة : 306

(179/2)

{ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ } [يوسف : 13] أي يحزنني ذهابكم به واللام لام الابتداء { وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } [يوسف : 13] اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة وأنه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم { قَالُوا لَـاإِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ } [يوسف : 14] اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن أكله الذئب والواو في { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } [يوسف : 8] أي فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال { إِنَّآ إِذًا لَّخَاسِرُونَ } [يوسف : 14] جواب للقسم مجزىء عن جزاء الشرط أي إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها وأجابوا عن عذره الثاني دون الأول لأن ذلك كان يغيظهم { الْجُبِّ } أي عزموا على إلقائه في البئر وهي بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوا من الأذى فقد روى أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا أرداوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم ودلوه في البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيم

إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف فأخرجه جبريل وألبسه إياه { وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ } [يوسف : 15] قيل أوحي إليه في الصغر كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهما السلام وقيل كان إذا ذاك مدركاً { لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَاذَا } [يوسف : 15] أي لتحدثن إخوتك بما فعلوا بك { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف : 95] أنك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع

307

فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وأنكم ألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيه أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس أو يتعلق وهم لا يشعرون بأوحينا أي آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة ولا يشعرون ذلك }

جزء : 2 رقم الصفحة : 307

{ وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً } للاستتار والتجسر على الاعتذار { يَبْكُونَ } حال عن الأعمش لا تصدق باكية بعد إخوة يوسف فلما سمع صوتهم فزع وقال ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء قالوا لا قال : فما بالكم وأين يوسف { قَالُوا يَا أَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ } أي نتسابق في العدو أو في الرمي والافتعال والتفاعل يشتركان كالإرتماء والترامي وغير ذلك { وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا } [يوسف : 17] بمصدق لنا { وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } [يوسف : 17] ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا { وَجَآءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ } ذي كذب أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم أن يمزقوه وروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال أين القيمص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلاً ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيراً دليلاً على براءة يوسف حين قد من دبره ومحل على قميصه النصب على الظرف كأنه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم { قَالَ } يعقوب عليه السلام { بَلْ سَوَّلَتْ } [يوسف : 18] زينت أو سهلت { لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا } [يوسف : 18] عظيماً ارتكبتموه { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } [يوسف : 83] خبر أو مبتدأ لكونه موصوفاً أي

308

فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أجمل وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق { وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ } [يوسف : 18] أي استعينه { عَلَى } احتمال { مَا تَصِفُونَ } [يوسف : 18] من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه

جزء : 2 رقم الصفحة : 308

{ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ } [يوسف : 19] رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً منه وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف { فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ } [يوسف : 19] هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم اسمه مالك بن ذعر الخزاعي { فَأَدْلَى دَلْوَهُ } [يوسف : 19] أرسل الدلو ليملأها فتشبث يوسف بالدلو فنزعوه { قَالَ يَا ءادَمُ أَنابِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ } [البقرة : 33-57] كوفي نادى البشرى كأنه يقول تعالي فهذا أوانك غيرهم بشراى على إضافتها لنفسه أو هو اسم غلامه فناداه مضافاً إلى نفسه { هَاذَا غُلَامٌ } [يوسف : 19] قيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به { وَأَسَرُّوهُ } الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة أو لأخوة يوسف فإنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه { بِضَاعَةً } حال أي أخفوه متاعاً للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أي قطع { وَاللَّهُ عَلِيمُ بِمَا يَعْمَلُونَ } [يوسف : 19] بما يعمل أخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع { وَشَرَوْهُ } وباعوه { بِثَمَنٍ بَخْسٍ } [يوسف : 20] مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً أو زيف { دَرَاهِمَ } بدل من ثمن { مَعْدُودَةٍ } قليلة تعد عداً ولا توزن لأنهم كانوا يعدون ما دون الأربعين ويزنون الأربعين وما فوقها وكانت عشرين درهماً { وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } [يوسف : 20] ممن يرغب عما في يده فيبيعه بالثمن الطفيف أو معنى وشروه واشتروه يعني الرفقة من إخوته وكانوا فيه من الزاهدين أي غير راغبين لأنهم اعتقدوا أنه آبق ويروى أن إخوته اتبعوهم وقالوا استوثقوا منه لا يأبق وفيه ليس من صلة الزاهدين أي غير راغبين لأن الصلة لا تتقدم على الموصول وإنما هو بيان كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقال زهدوا فيه

309

جزء : 2 رقم الصفحة : 309

{ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ } [يوسف : 21] هو قطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد وقد آمن بيوسف ومات في حياته واشتراه العزيز بزنته ورقاً وحريراً ومسكاً وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام سنة في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة { لامْرَأَتِهِ } راعيل أو زليخاً واللام متعلقة بقال لا باشتراه { أَكْرِمِى مَثْوَاهُ } [يوسف : 21] اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً أي حسنا مرضياً بدليل قوله إنه ربي أحسن مثواي وعن الضحاك بطيب معاشه ولين لباسه ووطىء فراشه { عَسَى أَن يَنفَعَنَآ } [يوسف : 21] عله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله { أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } [يوسف : 21] أو نتبناه

ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيماً وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك { وَكَذالِكَ } إشارة إلى ما تقدم من أنجائه وعطف قلب العزيز عليه والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الانجاء والعطف { مَكَّنَّا لِيُوسُفَ } [يوسف : 21] أي كما أنجيناه وعطَّفنا عليه العزيز كذلك مكنا له { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] أي أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه { وَلِنُعَلّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الاحَادِيثِ } [يوسف : 21] كان ذلك الإنجاء والتمكين { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ } [يوسف : 21] لا يمنع عما شاء أو على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد إخوته { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] ذلك { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ } [يوسف : 22] منتهى اشتداد قوته وهو ثمان عشرة سنة أو إحدى وعشرون { حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذالِكَ } [يوسف : 22] حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه أو حكماً بين الناس وفقهاً { وَكَذالِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ } [الأنعام : 84] تنبيه على أنه كان محسناً في عمله

(181/2)

متقياً في عنفوان أمره

جزء : 2 رقم الصفحة : 310

{ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ } [يوسف : 23] أي طلبت يوسف أن يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها { وَغَلَّقَتِ الابْوَابَ } [يوسف : 23] وكانت سبعة { وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ } [يوسف : 23] هو اسم لتعال وأقبل وهو مبنى على الفتح هيتُ مكي بناه على الضم هِيتَ مدني وشامي واللام للبيان كأنه قيل لك أقول هذا كما تقول هلم لك { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ } [يوسف : 79] أعوذ بالله معاذاً { إِنَّهُ } أي إن الشأن والحديث { رَبّى } سيدي ومالكي يريد قطفير { أَحْسَنَ مَثْوَاىَ } [يوسف : 23] حين قال لك أكرمي مثواه فما جزاؤه أن أخونه في أهله { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [الأنعام : 21] الخائنون أو الزناة أو أراد بقوله إنه ربي الله تعالى لأنه مسبب الأسباب { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ } [يوسف : 24] هم عزم { وَهَمَّ بِهَا } [يوسف : 24] هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله وهم بها هم خُطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين وقيل همَّ بها وشارف أن يهم بها يقال هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه وجواب { لَوْلا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبّهِ } [يوسف : 24] محذوف أي لكان ما كان وقيل وهمّ بها جوابه ولا يصح لأن جواب لولا لا يتقدم عليها لأنه في حكم الشرط وله صدر

الكلام والبرهان الحجة ويجوز أن يكون وهم بها داخلاً في حكم القسم في قوله ولقد همت به ويجوز أن يكون خارجاً ومن حق القارىء إذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على به ويبتدىء بقوله وهم بها وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين وفسر همَّ يوسف بأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً إياك وإياها مرتين فسمع ثالثاً

311

جزء : 2 رقم الصفحة : 311

أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته وهو باطل ويدل على بطلانه قوله هي روادتني عن نفسي ولو كان ذلك منه أيضاً لما برأ نفسه من ذلك وقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه وقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ولو كان كذلك لخانه بالغيب وقوله { عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُواءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـٰانَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام وقد سماه الله مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولى العزم ناظراً في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء ومحل الكاف في { كَذَالِكَ } نصب أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو رفع أي الأمر مثل ذلك { لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّواءَ } [يوسف : 24] خيانة السيد

{ وَالْفَحْشَآءَ } الزنا { إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } [يوسف : 24] بفتح اللام حيث كان مدني وكوفي أي الذين أخلصهم الله لطاعته وبكسرها غيرهم أي الذين أخلصوا دينهم لله ومعنى من عبادنا بعض عبادنا أي هومخلص من جملة المخلصين

جزء : 2 رقم الصفحة : 311

(182/2)

{ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ } [يوسف : 25] وتسابقا إلى الباب هي للطلب وهو للهرب على حذف الجار وإيصال الفعل كقوله { وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ } [الأعراف : 155] أو على تضمين استبقا معنى ابتدارا ففر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووحد الباب وإن كان جمعه في قوله وغلقت الأبواب لأنه أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار ولما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج { وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ } [يوسف : 25] اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه { وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ } وصادفا بعلها قطفير مقبلاً يريد أن يدخل فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف

طمعاً في أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث { قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُواءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [يوسف : 25] ما نافيه أي ليس جزاؤه إلا السجن أو عذاب أليم وهو الضرب
312
بالسياط ولم تصرح بذكر يوسف وأنه أراد بها سوءً لأنها قصدت العموم أي كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب لأن ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف ولما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه

جزء : 2 رقم الصفحة : 312

{ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي } [يوسف : 26] لولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ } [يوسف : 26] هو ابن عم لها وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وقيل كان ابن خال لها وكان صبياً في المهد وسمى قوله شهادة لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها { إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ } والتقدير وشهد شاهد فقال إن كان قميصه وإنما دل قدّ قميص من قبل على أنها صادقة لأنه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فيشقه ولأنه يقبل عليها وهي تدفعه عن نفسه فيتخرق قميصه من قبل وأما تنكير قبل ودبر فمعناه من جهة يقال لها قبل ومن جهة يقال لها دبر وإنما جمع بين إن التي للاستقبال وبين كان لأن المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قد { فَلَمَّا رَءَا } [هود : 70] قطفير { قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ } [يوسف : 27] وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها { قَالَ إِنَّهُ } [النمل : 44] إن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوء أو إن هذا الأمر وهو الاحتيال لنيل الرجال

جزء : 2 رقم الصفحة : 313

{ مِن كَيْدِكُنَّ } [يوسف : 28] الخطاب لها ولأمتها { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28] لأنهن ألطف كيداً وأعظم حيلة وبذلك يغلبن الرجال والقصريات منهن معهن ما ليس مع غيرهن من البوائق وعن بعض العلماء إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لأن الله تعالى قال : { إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } ، وقال لهن { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28]
313

(183/2)

{ يُوسُفَ } حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله { أَعْرِضْ عَنْ هَاذَا } [هود : 76] الأمر واكتمه ولا تتحدث به ثم قال لراعيل { وَاسْتَغْفِرِى لِذَنابِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِاِينَ } [يوسف : 29] من جملة القوم المعتمدين للذنب.

يقال خطىء إذا أذنب متعمداً وإنما قال بلفظ التذكير تغليباً للذكر على الإناث وكان العزيز رجلاً حليماً قليل الغيرة حيث اقتصر على هذا القول { وَقَالَ نِسْوَةٌ } [يوسف : 30] جماعة من النساء وكن خمساً : امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقي ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها { فِى الْمَدِينَةِ } [يوسف : 30] في مصر { قَالَ مَا } [يوسف : 51] يردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب { تُرَاوِدُ فَتَاهَا } [يوسف : 30] غلامها يقال فتاى وفتاتي أي غلامي وجاريتي { عَن نَّفْسِهِ } [التوبة : 120] لتنال شهوتها منه { قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا } [يوسف : 30] تمييز أي قد شغفها حبه يعني خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد والشغاف حجاب القلب أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب { إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [يوسف : 30] في خطأ وبعد عن طريق الصواب { فَلَمَّا سَمِعَتْ } [يوسف : 31] راعيل { بِمَكْرِهِنَّ } باغتيابهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها وسمى الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفى الماكر مكره وقيل كانت استكتمتهن سرها فافشينه عليها

جزء : 2 رقم الصفحة : 313

{ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ } [يوسف : 31] دعتهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات { وَأَعْتَدَتْ } وهيأت افتعلت من العتاد { لَهُنَّ } ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن أن يدهشن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع

314

أيديهن على أيديهن فيقطعنها لأن المتكىء إذا بهت لشيء وقعت يده على يده { مُتَّكَاًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا } [يوسف : 31] وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان إلا بالسكاكين كفعل الأعاجم { وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ } [يوسف : 31] بكسر التاء بصري وعاصم وحمزة وبضمها غيرهم { فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ } [يوسف : 31] أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء وكان إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت ، إذ لا يقال النساء قد حضنه لأنه لا يتعدى إلى مفعول ، يقال أكبرت المرأة حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع

فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

{ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } [يوسف : 31] وجرحنها كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد جرحتها أي أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لما رأينه فخدشن أيديهن { وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَاذَا بَشَرًا إِنْ هَاذَآ إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ } حاشا كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء تقول أساء القوم حاشا

زيد وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى حاشا لله يراءة الله وتنزيه الله وقراءة ابي عمرو حاشا لله نحو قولك سقيا لك ، كأنه قال براءة ثم قال الله لبيان من يبرء وينزه وغيره حاش بحذف الألف الأخيرة والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله { مَا هَاذَا بَشَرًا إِنْ هَاذَآ إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف : 31] نفين عنه البشرية لغرابة جماله وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم لما ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان

315

جزء : 2 رقم الصفحة : 313

(184/2)

{ قَالَتْ فَذَالِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ } [يوسف : 32] تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه تعني إنكن لم تصوّرنه حتى صورته وإلا لعذرتي في الإفتتان به { وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } [يوسف : 32] والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها وهذا بيان جلي على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان ثم قلن له أطع مولاتك ، فقالت راعيل { وَلَـاإِن لَّمْ يَفْعَلْ } [يوسف : 32] الضمير راجع إلى ما هي موصولة والمعنى ما آمره به فحذف الجار كما في قوله أمرتك الخير أو ما مصدرية والضمير يرجع إلى يوسف أي ولئن لم يفعل أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه { ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ } [يوسف : 32] ليحبسن والألف في { وَلَيَكُونًا } بدل من النون التأكيد الخفيفة { مِّنَ الصَّـاغِرِينَ } [الأعراف : 13] مع السراق والسفاك والأباق كما سرق قلبي وأبق مني وسفك دمي بالفراق فلا يهنؤه الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعني هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميراً حصل في الحصير على الحصير حسيراً فلما سمع يوسف تهديدها { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ } [يوسف : 33] أسند الدعوة إليهن لأنهن قلن له ما عليك لو أجبت مولاتك ، أو افتتنت كل واحدة به فدعته إلى نفسها سراً فالتجأ إلى ربه ، قال رب السجن أحب إلي من ركوب المعصية { وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ } [يوسف : 33] فزع منه إلى الله في طلب العصمة { أَصْبُ إِلَيْهِنَّ } [يوسف : 33] أمل إليهن والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها { وَأَكُن مِّنَ الْجَـاهِلِينَ } [يوسف : 33] من الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء أو من السفهاء ، فلما كان في قوله وإلا تصرف عني كيدهن معنى طلب الصرف والدعاء قال

316

جزء : 2 رقم الصفحة : 316

{ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ } [يوسف : 34] أي أجاب الله دعاءه { فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } [يوسف : 34] لدعوات الملتجئين إليه { الْعَلِيمُ } بحاله وحالهن { ثُمَّ بَدَا لَهُم } [يوسف : 35] فاعله مضمر لدلالة ما يفسر عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء أي ظهر لهم رأي والضمير في لهم للعزيز وأهله { مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الايَاتِ } وهي الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الأيدي وشهادة الصبي وغير ذلك { لَيَسْجُنُنَّهُ } لإبداء عذر الحال وإرخاء الستر على القيل والقال وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطواعاً لها وحميلاً ذلولاً زمامه في يدها وقد طمعت أن يذلله السجن ويسخره لها أو خافت عليه العيون وظنت فيه الظنون فألجأها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس ، إلى أن رضيت بالحجاب ، مكان خوف الذهاب ، لتشتفى بخبره ، إذا منعت من نظره { حَتَّى حِينٍ } [يوسف : 35] إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ } [يوسف : 36] عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف لأن مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الأمير نريد مصاحباً له فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له { قَالَ أَحَدُهُمَآ } [يوسف : 36] أي شرابيه { إِنِّى أَرَانِى } [يوسف : 36] أي في المنام وهي حكاية حال ماضية { أَعْصِرُ خَمْرًا } [يوسف : 36] أي عنباً تسمية للعنب بما يؤول إليه أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب { وَقَالَ الاخَرُ } [يوسف : 36] أي خبازه { إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ } [يوسف : 36] بتأويل ما رأيناه { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [يوسف : 36] من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أو من المحسنين إلى أهل السجن فإنك تداوي المريض وتعزي

317

(185/2)

الحزين وتوسع على الفقير فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا وقيل إنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي : إني رأيت كأني في بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته ، وقال الخباز : إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منها

جزء : 2 رقم الصفحة : 317

{ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ } [يوسف : 37] أي لبيان ماهيته وكيفيته لأن ذلك يشبه تفسير المشكل { قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا } [يوسف : 37] ولما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الأخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما

من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيكون كذلك وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ويقبح إليهما الشرك وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وغرضه أن يقتبس منه لم يكن من باب التزكية { ذَالِكُمَا } إشارة لهما إلى التأويل أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات { مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى } [يوسف : 37] وأوحى به إلي ولم أقله عن تكهن وتنجم { إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالاخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [يوسف : 37] يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ وأن يكون تعليلاً لما قبله أي علمني ذلك وأوحى به إلي لأني رفضت ملة أولئك وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [يوسف : 38] وهي الملة الحنيفية وتكريرهم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في اتباع قوله والمراد به ترك الابتداء لا أنه كان فيه ثم تركه { مَا كَانَ لَنَآ } [يوسف : 38] ما صح لنا معشر الأنبياء

318

{ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ } [يوسف : 38] أي شيء كان صنماً أو غيره ثم قال : { ذَالِكَ } التوحيد { مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ } [يوسف : 38] فضل الله فيشركون به ولا ينتهون

جزء : 2 رقم الصفحة : 318

{ يَشْكُرُونَ * يَاصَاحِبَىِ السِّجْنِ } يا ساكني السجن كقوله : أصحاب النار وأصحاب الجنة { مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا } [يوسف : 39 ، 40] يريد التفرق في العدد والتكاثر أي أن تكون أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما أم يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام { مَا تَعْبُدُونَ } [الشعراء : 70] خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر { مِن دُونِهِ } [يس : 23] من دون الله { إِلَّا أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم } [يوسف : 40] أي سميتم مالا يستحق الإلهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء لا مسميات لها ، ومعنى سميتموها سميتم بها يقال سميته زيداً وسميته يزيد { مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا } [يوسف : 40] بتسميتها { مِن سُلْطَانٍ } [إبراهيم : 22] حجة { إِنِ الْحُكْمُ } [يوسف : 40] في أمر العبادة والدين { إِلا لِلَّهِ } [يوسف : 40] ثم بين ما حكم به فقال { أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَالِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } [يوسف : 40] الثابت الذي دلت عليه البراهين { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] وهذا يدل على أن العقوبة تلزم العبد وإن جهل إذا أمكن له العلم بطريقة ، ثم عبر الرؤيا فقال { يَعْلَمُونَ * يَاصَاحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا } يريد الشرابي { فَيَسْقِى رَبَّهُ } [يوسف : 41] سيده { خَمْرًا } أي يعود إلى عمله { وَأَمَّا الاخَرُ } [يوسف : 41] أي الخباز { فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ } [يوسف : 41] روى أنه قال للأول : ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم

(186/2)

عليه وقال للثاني : ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ولما سمع الخباز صلبه قال ما رأيت شيئاً فقال يوسف { قُضِىَ الامْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [يوسف : 41] أي قطع وتم ما تستفتيان فيه من أمركما وشأنكما أي ما يجر إليه من العاقبة وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر

جزء : 2 رقم الصفحة : 319

{ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا } [يوسف : 42] الظان هو يوسف عليه السلام إن كان تأويله بطريق الاجتهاد وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي أو يكون الظن بمعنى اليقين { اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ } [يوسف : 42] صفني عند الملك بصفتي وقص عليه قصتي لعله يرحمني ويخلصني من هذه الورطة { فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ } [يوسف : 42] فأنسى الشرابي { ذِكْرَ رَبِّهِ } [يوسف : 42] أن يذكره لربه أو عند ربه أو فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره ، وفي الحديث " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً " { فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } [يوسف : 42] أي سبعاً عند الجمهور والبضع ما بين الثلاث إلى التسع { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنابُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ } [يوسف : 43] لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعاً أخر يابسات قد إستحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها وقيل كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا ثم كان سبب نجاته أيضاً الرؤيا ، سمان جمع سمين وسمينة ، والعجاف : المهازيل والعجف

320

الهزال الذي ليس بعده سمانة والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على نقيضه وهو سمان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض وفي الآية دلالة على أن السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر لأن الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله وآخر يابسات وسبعاً أخر { يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلا } [الصافات : 8] كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء

جزء : 2 رقم الصفحة : 320

{ أَفْتُونِى فِى رُءْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ } [يوسف : 43] اللام في الرؤيا للبيان ، كقوله { وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } [يوسف : 20] أو لأن المفعول به إذا تقدم على الفعل لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها تقول عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت أو يكون للرؤيا خبر كان كقولك كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه وتعبرون خبر آخر أو حال وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الأثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر

جزء : 2 رقم الصفحة : 320

{ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَام } [الأنبياء : 5] أي هي أضغاث أحلام أي تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم من أنواع الحشيش ، الواحد ضغث فاستعيرت لذلك والإضافة بمعنى من أي أضغاث من أحلام وإنما جمع وهو حلم واحد تزايداً في وصف الحلم بالبطلان وجاز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها { وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الاحْلَامِ بِعَالِمِينَ } [يوسف : 44] أرادوا بالأحلام المنامات الباطلة فقالوا ليس لها عندنا تأويل إنما التأويل للمنامات الصحيحة أو اعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين { وَقَالَ الَّذِى نَجَا } [يوسف : 45] من القتل { مِّنْهُمَا } من صاحبي السجن { وَادَّكَرَ } بالدال هو الفصيح وأصله اذتكر فأبدلت الذال دالاً والتاء دالاً وأدغمت الأولى في

321

(187/2)

الثانية ليتقارب الحرفين وعن الحسن واذكر وجهه أنه قلب التاء ذالاً وأدغم أي تذكر يوسف وما شاهد منه { بَعْدَ أُمَّةٍ } [يوسف : 45] بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملك تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عندالملك { أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ } [يوسف : 45] أنا أخبركم به عمن عنده علمه { فَأَرْسِلُونِ } وبالياء يعقوب أي فابعثوني إليه لأسأله فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال :

جزء : 2 رقم الصفحة : 321

{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ } [يوسف : 46] أيها البليغ في الصدق وإنما قال له ذلك لأنه ذاق وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل { أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنابُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ } [يوسف : 46] إلى الملك وأتباعه { لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } [يوسف : 46] فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك {

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ } [يوسف : 47] هو خبر في معنى الأمر كقوله : { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ } [النساء : 59] { وَتُجَاهِدُونَ } .

دليله قوله فذروه في سنبله وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به فيجعل كأنه موجود فهو يخبر عنه { دَأَبًا } بسكون الهمزة وحفص يحركه وهما مصدراً دأب في العمل وهو حال من المأمورين أي دائبين { فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنابُلِهِ } [يوسف : 47] كي لا يأكله السوس { إِلا قَلِيلا مِّمَّا تَأْكُلُونَ } [يوسف : 47] في تلك السنين { ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَالِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ } [يوسف : 48] هو من إسناد المجاز جعل

322

كل أهلهن مسنداً إليهن { مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ } [يوسف : 48] أي في السنين المخصبة { إِلا قَلِيلا مِّمَّا تُحْصِنُونَ } [يوسف : 48]تحرزون وتخبئون

جزء : 2 رقم الصفحة : 322

{ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَالِكَ عَامٌ } [يوسف : 49] أي من بعد أربع عشرة سنة عام { فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ } [يوسف : 49] من الغوث أي يجاب مستغيثهم أو من الغيث أي يمطرون يقال غيثت البلاد إذا مطرت { وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } [يوسف : 49] العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الأشربة والأدهان.

تعصرون حمزة فأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب.

والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ } [يوسف : 50] ليخرجه من السجن { قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ } [يوسف : 50] أي الملك { فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ } [يوسف : 50] أي حال النسوة { الَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } [التحريم : 12-50] إنما تثبت يوسف وتأنى في إجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عمارمي به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وقال عليه السلام " لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر إن كان لحليماً ذا أناة " ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن { إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [يوسف : 50] أي إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهوم مجازيهن عليه.

فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة

323

المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم
جزء : 2 رقم الصفحة : 323

(188/2)

{ قَالَ } لهن { مَا خَطْبُكُنَّ } [يوسف : 51] ما شأنكن { إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ } [يوسف : 51] هل وجدتن منه ميلاً إليكن { قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ } [يوسف : 51] تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله { مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُواءٍ } [يوسف : 51] من ذنب { قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـَٰانَ حَصْحَصَ الْحَقُّ } [يوسف : 51] ظهر واستقر { أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } [يوسف : 51] في قوله هي روادتني عن نفسي ولا مزيد على شهادتهم له للبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن إنه لم يتعلق بشيء مما قذف به ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف { ذَالِكَ } أي امتناعي من الخروج والتثبت لظهور البراءة { لِيَعْلَمَ } العزيز { أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ } [يوسف : 52] بظهر الغيب في حرمته وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني أو ليعلم الملك أني لم أخن العزيز { وَأَنَّ اللَّهَ } [المائدة : 97] أي وليعلم أن الله { لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَآ ئِنِينَ } [يوسف : 52] لا يسدده وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكياً وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته فقال { وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِى } [يوسف : 53] من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها في عموم الأفعال أو في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذي هو الخطرة البشرية لا عن طريق القصد والعزم

جزء : 2 رقم الصفحة : 324

{ إِنَّ النَّفْسَ لامَّارَةُ بِالسُّواءِ } [يوسف : 53] أراد الجنس أي إن هذا الجنس

يأمر بالسوء ويحمل عليه لما فيه منن الشهوات { إِلا مَا رَحِمَ رَبِّى } [يوسف : 53] إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة ويجوز أن يكون ما رحم في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت العصمة أو هو استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة أو هو استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة ، وقيل هو من كلام امرأة العزيز أي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين قذفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ إلا أن يسجن وأودعته السجن تريد الاعتذار مما كان منها إن كل نفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفسها رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف { إِنَّ رَبِّى

غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [يوسف : 53] استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت وإنما جعل من كلام يوسف ولا دليل عليه ظاهر لأن المعنى يقود إليه وقيل هذا من تقديم القرآن وتأخيره أي قوله ذلك ليعلم متصل بقوله فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن

جزء : 2 رقم الصفحة : 324

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى } [يوسف : 54] أجعله خالصاً لنفسي { فَلَمَّا كَلَّمَهُ } [يوسف : 54] وشاهد منه ما لم يحتسب { قَالَ } الملك ليوسف { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف : 54] ذو مكانة ومنزلة ، أمين مؤتمن على كل شيء روي أن الرسول جاءه ومعه سبعون حاجباً وسبعون مركباً وبعث إليه لباس الملوك فقال أجب الملك فخرج من السجن ودعا لأهله اللهم عطّف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات وكتب على باب السجن هذه منازل البلواء وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً فلما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال : لسان آبائي وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه وقال أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك قال رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك وقال له من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء فيأتيك الخلق من

325

(189/2)

النواحي ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك قال الملك ومن لي بهذا ومن يجمعه

جزء : 2 رقم الصفحة : 325

{ قَالَ } يوسف { اجْعَلْنِى عَلَى خَزَآ ئِنِ الارْضِ } [يوسف : 55] ولني على خزائن أرضك يعني مصر { إِنّى حَفِيظٌ } [يوسف : 55] أمين أحفظ ما تستحفظنيه { عَلِيمٌ } عالم بوجوه التصرف. وصف نفسه بالأمانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونه وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك فطلبه ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا وفي الحديث " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة " قالوا وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر وقد كان السلف يتولون القضاء

من جهة الظلمة وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به وقيل كان الملك يصدر عن رأيه ولا يتعرض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع له { وَكَذالِكَ } ومثل ذلك التمكين الظاهر { مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الارْضِ } [يوسف : 21] أرض مصر وكان أربعين فرسخاً في أربعين والتمكين الإقدار وإعطاء المكنة { يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ } [يوسف : 56] أي كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه.

نشاء مكي { نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا } [يوسف : 56] بعطائنا في الدنيا من الملك والغني وغيرهما من النعم { مَّن نَّشَآءُ } [الأنعام : 83] من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك { وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [يوسف : 56] في الدنيا { وَلاجْرُ الاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا } [يوسف : 57] يريد يوسف وغيره من المؤمنين إلى يوم القيامة

جزء : 2 رقم الصفحة : 326

{ وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس : 63] الشرك والفواحش قال سفيان بن عيينة المؤمن يثاب

326

على حسناته في الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير في ا لدنيا وماله في الآخرة من خلاق وتلا الآية روى أن الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر الياقوت فقال أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك إليه أمره وعزل قطفير ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيراً مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين أفراثيم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدارهم والدنانير في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها ثم بالحلي والجواهر في الثانية ثم بالدواب في الثالثة ثم بالعبيد والإماء في الرابعة ثم بالدور والعقار في الخامسة ثم بأولادهم في السادسة ثم برقابهم في السابعة حتى استرقهم جميعاً ثم أعتق أهل مصر عن آخرهم ورد عليهم أملاكهم وكان لايبيع لأحد من الممتارين أكثر من حمل بعير وأصاب أرض كنعان نحو ما أصاب مصر فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا وذلك قوله

جزء : 2 رقم الصفحة : 326

{ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ } [يوسف : 58] بلا تعريف { وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } [يوسف : 58] لتبدل الزي ولأنه كان من وراء الحجاب ولطول المدة وهو أربعون سنة ، وروى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبروني من أنتم وما شأنكم قالوا نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي فقالوا معاذ الله نحن بنو نبي حزين لفقد ابن كان أحبنا إليه وقد أمسك أخاً له من أمه يستأنس به فقال ائتوني به إن صدقتم { وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ } [يوسف : 59] أعطى كل واحد منهم حمل بعير وقرىء بكسر الجيم شاذاً {

ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ } [يوسف : 59] أتمه
327

(190/2)

{ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ } [يوسف : 59] كان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم رغبهم بهذا الكلام على الرجوع إليه

جزء : 2 رقم الصفحة : 327

{ عِندِى } فلا أبيعكم طعاماً { وَلا تَقْرَبُونِ } [يوسف : 60] أي فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا فهو داخل في حكم الجزاء مجزوم معطوف على محل قوله فلا كيل لكم أو هم بمعنى النهي { قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ } [يوسف : 61] سنخادعه عنه ونحتال حتى ننزعه من يده { وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ } [يوسف : 61] ذلك لا محالة لانفرط فيه ولا نتوانى قال فدعوا بعضكم رهناً فتركوا عنده شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف { وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ } [يوسف : 62] كوفي غير أبي بكر لفتيته غيرهم وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ وفعلة للقلة وفعلان للكثرة أي لغلمانه الكيالين { اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ } [يوسف : 62] أوعيتهم وكانت نعالاً أو أدما أو ورقا وهو أليق بالدس في الرحال { لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ } [يوسف : 62] يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين { إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ } [يوسف : 62] وفرغوا ظروفهم { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [آل عمران : 72] لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا أو ربما لا يجدون بضاعة بها يرجعون أو ما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الأمانة أو لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً { فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ } [يوسف : 63] بالطعام وأخبروه بما فعل { قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ } [يوسف : 63] يريدون قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل { فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ } [يوسف : 63] نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه.

يكتل حمزة وعلى أي يكتل أخوناً فينضم اكتياله إلى اكتيالنا { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [يوسف : 12] عن أن يناله مكروه

جزء : 2 رقم الصفحة : 328

{ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ } [يوسف : 64] يعني أنكم قلتم في يوسف أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإناله لحافظون كما تقولونه في أخيه ثم
328

خنتم بضمانكم فما يأمنني من مثل ذلك ثم قال { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا } [يوسف : 64] كوفي غير أبي بكر فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم وهو حال أو تمييز ومن قرأ حِفظاً فهو تمييز لا غير { وَهُوَ

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [يوسف : 64] فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين قال كعب : لما قال فالله خير حفظاً قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما

جزء : 2 رقم الصفحة : 328

{ نَبْغِى } ما للنفي أي ما نبغي في القول ولا نتجاوز الحق أو ما نبغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان أو ما نريد منك بضاعة أخرى أو للاستفهام أيْ أيّ شيء نطلب وراء هذا { هَاذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا } جملة مستأنفة موضحة لقوله ما نبغي والجمل بعدها معطوفة عليها أي أن بضاعتنا ردت إلينا فنستظهر بها { وَنَمِيرُ أَهْلَنَا } [يوسف : 65] في رجوعنا إلى الملك أي نجلب لهم ميرة وهي طعام يحمل من غير بلدك { وَنَحْفَظُ أَخَانَا } [يوسف : 65] في ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه شيء مما تخافه { وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ } [يوسف : 65] وسق بعير باستصحاب أخينا { ذالِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ } [يوسف : 65] سهل عليه متيسر لا يتعاظمه { قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ } [يوسف : 66] وبالياء مكي { مَوْثِقًا } عهداً { مَنَّ اللَّهُ } [الجن : 22] والمعنى حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي أراد أن يحلفوا له بالله وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما يؤكد به العهود وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه

جزء : 2 رقم الصفحة : 329

{ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ } [يوسف : 66] جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به { إِلا أَن يُحَاطَ بِكُمْ } [يوسف : 66] إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به فهو مفعول له والكلام المثبت وهو قوله لتأتنني به في تأويل النفي أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم

329

يعني لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا العلة واحدة وهي أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي فلا بد من تأويله بالنفي { فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ } [يوسف : 66] قيل حلفوا بالله رب محمد عليه السلام { قَالَ } بعضهم يسكت عليه لأن المعنى قال يعقوب { اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ } [يوسف : 66] من طلب الموثق وإعطائه { وَكِيلٌ } رقيب مطلع غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لا يجوز فالأولى يأن يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله { وَقَالَ يَابَنِىَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ } الجمهور على أنه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة أمرهم ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى فالعين حق عندنا وجود بأن يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه وخللا وكان النبي صلى الله عليه وسلّم يعوّذ الحسن والحسين

رضي الله عنهما فيقول : " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة " وأنكر الجبائي العين وهو مردود بما ذكرنا وقيل إنه أحب أن لا يفطن بهم أعداؤهم فيحتالوا لإهلاكهم { وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ } [يوسف : 67] أي إن كان الله أراد بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أسرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة { إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [يوسف : 67] التوكل تفويض الأمر إلى الله تعالى والاعتماد عليه { وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم } [يوسف : 68] أي متفرقين { مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم } [يوسف : 68] دخولهم من أبواب متفرقة { مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ } [يوسف : 68] أي شيئاً قط حيث أصابهم ما

330

ساءهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم { إِلا حَاجَةً } [يوسف : 68] استثناء منقطع أي ولكن حاجة { فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا } [يوسف : 68] وهي شفقته عليهم { وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ } [يوسف : 68] يعني قوله وما أغنى عنكم وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر { لِّمَا عَلَّمْنَاهُ } [يوسف : 68] لتعليمنا إياه { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] ذلك

جزء : 2 رقم الصفحة : 329

{ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ } [يوسف : 69] ضم إليه بنيامين وروى أنهم قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه فقال يوسف بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله وقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم { قَالَ } له {

(192/2)

{ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ } [يوسف : 69] يُوسُف { فَلا تَبْتَاِسْ } [يوسف : 69] فلا تحزن { بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام : 108] بنافيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال لقد علمت اغتمام والدي بي فإن حسبتك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك ألا أن أنسبك إلا ما لا يحمد قال لا أبالي فافعل ما بدا لك قال فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقته ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك معهم فقال افعل { فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ } [يوسف : 70] هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم { جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ } [يوسف : 70] السقاية هي مشربة يسقي بها وهي الصواع قيل كان يسقي بها الملك ثم جعلت صاعاً يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة أو ذهب { ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ } [يوسف : 70] ثم نادى مناد

آذنه أي أعلمه وأذن أكثر الأعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه روى أنهم ارتلحوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ثم قيل لهم { أَيَّتُهَا الْعِيرُ } [يوسف : 70] هي الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تذهب وتجيء والمراد أصحاب العير { إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } [يوسف : 70] كناية عن سرقتهم أياه من أبيه.

331

جزء : 2 رقم الصفحة : 331

{ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ } هو الصاع { وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } [يوسف : 72] يقول المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أوديه إلى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله { قَالُوا تَاللَّهِ } [يوسف : 95] قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم { لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الارْضِ } [يوسف : 73] استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم حيث دخلوا وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم { وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } [يوسف : 73] وما كنا نوصف قط بالسرقة { قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ } [يوسف : 74] الضمير للصواع أي فما جزاء سرقته { إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ } [يوسف : 74] في جحودكم وادعائكم البراءة منه { قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ } [يوسف : 75] أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة فلذلك استفتوا في جزائه وقولهم { فَهُوَ جَزَاؤُهُ } [يوسف : 75] تقرير للحكم أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير أو جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره { كَذَالِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 332

يوسف : 75] أي السراق بالاسترقاق { فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ } [يوسف : 76] فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا { ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا } [يوسف : 76] أي الصواع { مِن وِعَآءِ أَخِيهِ } [يوسف : 76] ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه لأن التأنيث يرجع إلى السقاية أو لأن الصواع يذكر ويؤنث الكاف في { كَذَالِكَ } في محل النصب أي مثل ذلك الكيد العظيم { كِدْنَا لِيُوسُفَ } [يوسف : 76] يعني علمناه إياه { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ } [يوسف : 76] تفسير للكيد وبيان له لأن الحكم في دين الملك أي في سيرته للسارق أني يغدم مثلي ما أخذ

332

لا أن يستعبد { إِلا أَن يَشَآءَ اللَّهُ } [الإنسان : 30] أي ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ } [الأنعام : 83] بالتنوين كوفي { مَّن نَّشَآءُ } [الأنعام : 83] أي في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه { وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76] فوقه أرفع درجة منه في علمه أو فوق العلماء كلهم عليهم هم دونه في العلم وهو الله عز وجل

جزء : 2 رقم الصفحة : 332

{ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ } أرادوا يوسف قيل دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه وقيل كان في المنزل دجاجة فأعطاها السائل وقيل كانت منطقة لإبراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه فلما شب أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت إنه لي سَلَم أفعل به ما شئت فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت وروى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء متى أخذ هذا الصاع فقال بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم { فَأَسَرَّهَا } أي مقالتهم إنه سرق كأنه لم يسمعها { يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا } [يوسف : 77] تمييز أي أنتم شر منزلة في السرق لأنكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } [يوسف : 77] تقولون أو تكذبون { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُا أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا } [يوسف : 78-97] في السن وفي القدر { فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُا } [يوسف : 78] أبدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد فإن أباه يتسلى به عن أخيه المفقود { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [يوسف : 36] إلينا فأتمم إحسانك أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها

{ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ } [يوسف : 79] أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من { إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ } [يوسف : 79] إذاً جواب لهم وجزاء لأن المعنى إن أخذنا بدله ظلمنا وهذا لأنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله واستبعاده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم { فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا } [يوسف : 80] يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما مر في استعصم { مِنْهُ } من يوسف وإجابته إياهم { خَلَصُوا } انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم { نَجِيًّا } ذوي نجوى أو فوجاً نجيا أي مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً أو تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته فالنجيُّ يكون بمعنى المناجي كالسمير بمعنى المسامر وبمعنى المصدر الذي هو التناجي وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم { قَالَ كَبِيرُهُمْ } [يوسف : 80] في السن وهو روبيل أو في العقل والرأي وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون { أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ

مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ } [يوسف : 80] ما صلة أي ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم أو مصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف { فَلَنْ أَبْرَحَ الارْضَ } [يوسف : 80] فلن أفارق أرض مصر { حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى } [يوسف : 80] في الإنصراف إليه { أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى } [يوسف : 80] بالخروج منها أو بالموت أو بقتالهم { وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } [الأعراف : 87] لأنه لا يحكم إلا بالعدل { ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ } وقرىء سرّق أي

334

نسب إلى السرقة { وَمَا شَهِدْنَآ } [يوسف : 81] عليه بالسرقة { إِلا بِمَا عَلِمْنَا } [يوسف : 81] من سرقته وتيقنا إذ الصواع استخرج من وعائه { وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ } [يوسف : 81] وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق

جزء : 2 رقم الصفحة : 334

(194/2)

{ وَسْاَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا } [يوسف : 82] يعني مصر أي أرسل إلى أهلها فاسألهم من كنه القصة { وَالْعِيْرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا } [يوسف : 82] وأصحاب العير وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [الأنعام : 146] في قولنا فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا } [يوسف : 18] أردتموه وإلا فمن أدرى ذلك الرجل أن السارق يسترق لولا فتواكم وتعليمكم { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا } [يوسف : 83] بيوسف وأخيه وكبيرهم { إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ } [يوسف : 83] بحالي في الحزن والأسف { الْحَكِيمُ } الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة { وَتَوَلَّى عَنْهُمْ } [يوسف : 84] وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به { وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ } [يوسف : 84] أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه والألف بدل من ياء الإضافة والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلف ونحوه { اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الارْضِ أَرَضِيتُم } [التوبة : 38].

{ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْاَوْنَ عَنْهُ } [الأنعام : 26] و { يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف : 104].

{ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ } [النمل : 22].

وإنما تأسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً { وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ } [يوسف : 84] إذ كثر الاستعبار ومحقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر وقيل قد عمى بصره وقيل كان قد يدرك إدراكاً ضعيفاً { مِنَ

الْحُزْنِ } [يوسف : 84] لأن الحزن سبب
335
البكاء الذي حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب ويجوز للنبي عليه السلام أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الحزن فلذلك حمد صبره ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلّم على ولده إبراهيم ، وقال : " القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون " وإنما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب { فَهُوَ كَظِيمٌ } [يوسف : 84] مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله { إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ } [القلم : 48] من كظم السقاء إذا شده على ملئه
جزء : 2 رقم الصفحة : 335
{ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا } [يوسف : 85] أي لا تفتأ فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس إذ لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون ومعنى لا تفتأ لا تزال { تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا } [يوسف : 85] مشفياً على الهلاك مرضاً { أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ } البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أي بنشره أي لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه فخلوني وشكايتي وروى أنه أوحى إلى يعقوب إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فوقف ببابكم مسكين فلم تطعموه وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [الأعراف : 62] وأعلم من رحمته أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ، وروى أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف فقال : لا والله هو حي فاطلبه وعلمه هذا الدعاء ياذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع معروفه أبداً ولا يحصيه غيرك فرج عني
336
جزء : 2 رقم الصفحة : 336

{ تَعْلَمُونَ * يَابَنِىَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ } فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما وهو تفعل من الإحساس وهو المعرفة { وَلا تَا يـَاسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ } [يوسف : 87] ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه { إِنَّهُ } إن الأمر والشأن { لا يَا يْاَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف : 87] لأن من آمن

يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه في نعمته فييأس من رحمته فخرجوا من عند أبيهم راجعين إلى مصر { فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ } [يوسف : 88] علي يوسف { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ } الهزال من الشدة والجوع { وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ } [يوسف : 88] مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيته إذا دفعته وطردته قيل كان دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة وقيل كانت صوفاً وسمنا { فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ } [يوسف : 88] الذي هو حقنا { وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ } [يوسف : 88] وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة أوزدنا على حقنا أوهب لنا أخانا { إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ } [يوسف : 88] ولما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا إليه وطلبوا منه أن يتصدق عليهم أرفضت عيناه ولم يتمالك أن عرفهم نفسه حيث قال :

جزء : 2 رقم الصفحة : 337

{ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ } [يوسف : 89] أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف { وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ } [يوسف : 89] لا تعلمون قبحه أو إذ أنتم في حد السفه والطيش وفعلهم بأخيه تعريضهم إياه للغم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه وإيذاؤهم له بأنواع الأذى { قَالُوا } بهمزتين كوفي وشامي { أَءِنَّكَ لانتَ يُوسُفُ } [يوسف : 90] اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبران { قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَاذَآ أَخِى } [يوسف : 90] وإنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه

337

{ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ } [يوسف : 90] بالألفة بعد الفرقة وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالملامة { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ } [يوسف : 90] الفحشاء { وَيَصْبِرْ } عن المعاصي وعلى الطاعة { فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [هود : 115] أي أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين وقيل من يتق مولاه ويصبر على بلواه لا يضيع أجره في دنياه وعقباه

جزء : 2 رقم الصفحة : 337

{ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا } [يوسف : 91] اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم والتقوى والصبر والحسن { وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ } [يوسف : 91] وإن شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين معتمدين للإثم لم نتق ولم نصبر لا جرم أن الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك { قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ } [يوسف : 92] لا تعيير عليكم { الْيَوْمَ } متعلق بالتثريب أو بيغفر والمعنى لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الأيام ثم ابتدأ فقال { يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ } [النور : 22] فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم يقال غفر الله لك ويغفر لك على لفظ الماضي والمضارع أو اليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش " ما تروننني فاعلاً بكم " قالوا نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال : " أقول ما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم " وروى أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس إذا أتيت

رسول الله فاتل عليه قال لا تثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : " غفر الله لك ولمن علمك " ويروى أن أخوته لما عرفوه أرسلوا إليه أنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشياً
338

(196/2)

ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك فقال يوسف إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إليَّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أني من حفدة إبراهيم { وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [يوسف : 64] أي إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور فما ظنكم بالغني الغفور ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا إنه عمي من كثرة البكاء قال :
جزء : 2 رقم الصفحة : 338
{ اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَاذَا } [يوسف : 93] قيل هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل أن يرسله إليه فإنه فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي { فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا } [يوسف : 93] يصر بصيراً تقول جاء البناء محكماً أي صار أو يأت إلي وهو بصير قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً { وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } [يوسف : 93] لينعموا بآثار ملكي كما اغتموا بأخبار هلكي
{ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ } [يوسف : 94] خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه { قَالَ أَبُوهُمْ } [يوسف : 94] لولد ولده ومن حوله من قومه { إِنِّى لاجِدُ رِيحَ يُوسُفَ } [يوسف : 94] أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام { لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ } [يوسف : 94] التفنيد النسبة إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل من هرم يقال شيخ مفند والمعنى لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني
339
جزء : 2 رقم الصفحة : 339
{ قَالُوا } أي أسباطه { تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ } [يوسف : 95] لفي ذهابك عن الصواب قديماً في إفراط محبتك ليوسف أو في خطئك القديم من حب يوسف وكان عندهم أنه قد مات { فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ } [يوسف : 96] أي يهوذا { أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ } [يوسف : 96] طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب { فَارْتَدَّ } فرجع { بَصِيرًا } يقال رده فارتد وارتده إذا ارتجعه { قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ } [يوسف : 96] يعني قوله إني لأجد ريح يوسف أو قوله ولا تيأسوا من روح الله وقوله { إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [يوسف : 96] كلام مبتدأ لم يقع عليه القول أووقع عليه والمراد

قوله إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون وروى أنه سأل البشير كيف يوسف قال هو ملك مصر فقال ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الإسلام قال : الآن تمت النعمة { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } [يوسف : 97] أي سل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك إنا تبنا واعترفنا بخطايانا { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يوسف : 98] أخر الاستغفار إلى وقت السحر أو إلى ليلة الجمعة أو ليتعرف حالهم في صدق التوبة أو إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم ثم إن يوسف وجه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه فلما بلغ قريباً من مصر خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا

جزء : 2 رقم الصفحة : 340

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ } [يوسف : 99] ضم إليه { أَبَوَيْهِ } واعتنقهما قيل كانت أمه باقية وقيل ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كما أن العم أب ومنه

340

(197/2)

قوله { وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِـ مَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } [البقرة : 133] ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر أنه حين استقبلهم أنزلهم في مضرب خيمة أو قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه { وَقَالَ } لهم بعد ذلك { ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ } [يوسف : 99] من ملوكها وكانوا لا يدخلونها إلا بجواز أو من القحط وروي أنه لما لقيه قال يعقوب عليه السلام : السلام عليك يا مذهب الأحزان وقال له يوسف يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف

جزء : 2 رقم الصفحة : 340

{ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } [يوسف : 100] قيل لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير وخروا له يعني الإخوة الأحد عشر والأبوين سجداً وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد وقال الزجاج سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم وقيل ما كانت لا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجداً يأباه وقيل وخروا لأجل يوسف سجداً لله شكراً وفيه نبوة أيضاً واختلف في استنبائهم { وَقَالَ يَا أَبَتِ هَاذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا } أي الرؤيا { رَبِّى حَقًّا } [الكهف :

98] أي صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعين سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو ثنتان وعشرون { وَقَدْ أَحْسَنَ بِى } [يوسف : 100] يقال أحسن إليه وبه وكذلك أساء إليه وبه { إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ } [يوسف : 100] ولم يذكر الجب لقوله لا تثريب عليكم اليوم { وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ } [يوسف : 100] من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع { مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى } [يوسف : 100] أي أفسد بيننا وأغرى { إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ } [يوسف : 100] أي لطيف التدبير { إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [يوسف : 83] بتأخير الآمال إلى الآجال أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف

(198/2)

{ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ } [يوسف : 101] ملك مصر { وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الاحَادِيثِ } [يوسف : 101] تفسير كتب الله أو تعبير الرؤيا ومن فيهما للتبعيض إذ لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا وبعض التأويل { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [يوسف : 101] انتصابه على النداء { أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ } أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي { تَوَفَّنِى مُسْلِمًا } [يوسف : 101] طلب الوفاة على حال الإسلام كقول يعقوب لولده ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون وعن الضحاك مخلصاً وعن التستري مسلّماً إليك أمري وفي عصمة الأنبياء إنما دعا به يوسف ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة لأن ظواهر الأنبياء لنظر الأمم إليهم { وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ } [يوسف : 101] من آبائي أو على على العموم روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى أدخله خزانة القراطيس قال يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى على ثمان مراحل فقال أمرني جبريل قال أو ما تسأله قال أنت أبسط إليه مني فاسأله فقال جبريل : الله أمرني بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني وروى أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة فلما تم أمره طلبت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيباً طاهراً فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن يعملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً حتى نقل موسى عليه السلام بعد أربعمائة سنة تابوته إلى بيت المقدس وولد له أفراثيم وميشا وولد لإفراثيم نون ولنون يوشع فتى موسى ولقد توارثت الفراعنة

من العماليق بعده مصر ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيدهم على بقايا دين يوسف وآبائه
342
جزء : 2 رقم الصفحة : 342
{ ذَالِكَ } إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو مبتدأ { مِنْ أَنابَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [آل عمران : 44] خبر إن { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ } [يوسف : 102] لدى بني يعقوب { إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ } [يوسف : 102] عزموا على ما هموا به من إلقاء يوسف في البئر { وَهُمْ يَمْكُرُونَ } [يوسف : 102] بيوسف ويبغون له الغوائل والمعنى أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي لأنك لم تحضر بني يعقوب حين اتفقوا على إلقاء أخيهم في البئر { وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف : 103] أراد العموم أو أهل مكة أي وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم { وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ } [يوسف : 104] على التبليغ أو على القرآن { مِنْ أَجْرٍ } [الفرقان : 57] جعل { إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ } [يوسف : 104] ما هو إلا موعظة { لِّلْعَالَمِينَ } وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله { وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ } [يوسف : 105] من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده { فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا } [يوسف : 105] على الآيات أو على الأرض ويشاهدونها { وَهُمْ عَنْهَا } [يوسف : 105] عن الآيات { مُعْرِضُونَ } لا يعتبرون بها والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير من العبر { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلا وَهُم مُّشْرِكُونَ } [يوسف : 106] أي وما يؤمن أكثرهم في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السماوات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الوثن الجمهور على أنها نزلت في المشركين لأنهم مقرون بالله خالقهم ورازقهم وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره ومن جملة الشرك ما يقوله
343
القدرية من إثبات قدرة التخليق للعبد ، والتوحيد المحض ما يقوله أهل السنة وهو أنه لا خالق إلا الله
جزء : 2 رقم الصفحة : 343

{ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ } [يوسف : 107] عقوبة تغشاهم وتشملهم { مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ } [يوسف : 107] القيامة { بَغْتَةً } حال أي فجأة { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف : 95] بإتيانها { قُلْ هَاذِهِ سَبِيلِى } [يوسف : 108] هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان ثم فسر سبيله بقوله { أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } أي أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء { أَنَا } تأكيد للمستتر في أدعو { وَمَنِ اتَّبَعَنِى } [يوسف : 108]

عطف عليه أي أدعو إلى سبيل الله أنا ويدعو إليه من اتبعني أو أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبر مقدم ومن اتبعني عطف على أنا يخبر ابتداء بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى { وَسُبْحَانَ اللَّهِ } [النمل : 8] وأنزهه عن الشركاء { وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 79] مع الله غيره { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلا رِجَالا } [يوسف : 109] لا ملائكة لأنهم كانوا يقولون لو شاء ربنا لأنزل ملائكة أو ليست فيهم امرأة { نُّوحِى } بالنون حفص { إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى } [يوسف : 109] لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الارْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الاخِرَةِ } [يوسف : 109] أي ولدار الساعة الآخرة { خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا } [يوسف : 109] الشرك وآمنوا به { أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] وبالياء مكي وأبو عمرو وحمزة وعلي

{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْاَسَ الرُّسُلُ } [يوسف : 110] يئسوا من إيمان القوم { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } [يوسف : 110] كذَّبوا وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم وبالتخفيف كوفي أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا أي أخلفوا أو وظن المرسل إليهم كذبوا من جهة الرسل أي كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه { جَآءَهُمْ نَصْرُنَا } [يوسف : 110] للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب { فَنُجِّىَ } بنونٍ واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء شامي وعاصم على لفظ الماضي المبني للمفعول والقائم مقام الفاعل من الباقون فننجى بنونين ثانيتهما ساكنة مخفاة للجيم بعدها وإسكان الياء { مَّن نَّشَآءُ } [الأنعام : 83] أي النبي ومن آمن به { وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا } [يوسف : 110] عذابنا { عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام : 147] الكافرين { لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ } [يوسف : 111] أي في قصص الأنبياء وأممهم أو في قصة يوسف وإخوته { عِبْرَةٌ لاوْلِى الالْبَابِ } [يوسف : 111] حيث نقل من غاية الحب ، إلى غيابة الجب ، ومن الحصير ، إلى السرير ، فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ، ونهاية المكر وخامة وندامة { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى } [يوسف : 111] ما كان القرآن حديثاً مفترى كما زعم الكفار { وَلَاكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ } [يونس : 37] ولكن تصديق الكتب التي تقدمته { وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ } [يوسف : 111] يحتاج إليه في الدين لأنه القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس { وَهُدًى } من الضلال { وَرَحْمَةً } من العذاب { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 99] بالله وأنبيائه وما نصب بعد لكن معطوف على خبر كان * عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم " علموا أرقاءكم سورة يوسف فأيما عبد تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً " قال الشيخ أبو منصور رحمه الله في ذكر قصة يوسف عليه السلام وإخوته تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلّم على أذى قريش كأنه يقول إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ومع الأخوّة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك

فأنت مع مخالفتهم إياك في الدين أحرى أن تصبر على أذاهم وقال وهب : إن الله تعالى لم ينزل كتاباً إلا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هي في القرآن.

346

سورة الرعد

مكية ، وهي ثلاث وأربعون آية كوفي ، وخمس وأربعون آية شامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(200/2)

{ الامار } أنا الله أعلم وأرى عن ابن عباس رضي الله عنهما { تِلْكَ } إشارة إلى آيات السورة { الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [يونس : 1] أريد بالكتاب السورة أي تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها { وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } [الرعد : 1] أي القرآن كله { الْحَقُّ } خبر والذي { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ } [هود : 17] فيقولون تقوَّله محمد ثم ذكر ما يوجب الإيمان فقال { اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ } [الرعد : 2] أي خلقها مرفوعة لا أن تكون موضوعة فرفعها والله مبتدأ والخبر الذي رفع السماوات { بِغَيْرِ عَمَدٍ } [الرعد : 2] حال وهو جمع عماد أو عمود { تَرَوْنَهَا } الضمير يعود إلى السماوات أي ترونها كذلك فلا حاجة إلى البيان أو إلى عمد فيكون في موضع جر على أنه صفة لعمد أي بغير عمد مرئية { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الفرقان : 59] استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } [الرعد : 2] لمنافع عباده ومصالح بلاده { كُلٌّ يَجْرِى لاجَلٍ مُّسَمًّى } [الزمر : 5] وهو انقضاء الدنيا { يُدَبِّرُ الامْرَ } [يونس : 31] أمر ملكوته وربوبيته { يُفَصِّلُ الايَاتِ } [الرعد : 2] يبين آياته في كتبه المنزلة { لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [الرعد : 2] لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه

347

جزء : 2 رقم الصفحة : 347

{ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الارْضَ } [الرعد : 3] بسطها { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ } [فصلت : 10] جبالاً ثوابت { وَأَنْهَارًا } جارية { وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد : 3] أي الأسود والأبيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك { وَهُوَ الَّذِى مَدَّ } [الرعد : 3] يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً.

يغشِّي حمزة وعلي وأبو بكر { إِنَّ فِى ذَالِكَ لايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الرعد : 3] فيعلمون أن لها صانعاً عليماً حكيماً قادراً { وَفِى الارْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ } [الرعد : 4] بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة إلى سبخة وكريمة إلى زهيدة وصلبة إلى رخوة وذلك دليل على قادر مدبر

مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه { وَجَنَّاتٌ } معطوفة على قطع { مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ } [الرعد : 4] بالرفع مكي وبصري وحفص عطف على قطع غيرهم بالجر بالعطف على أعناب ، والصنوان جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد عن حفص بضم الصاد وهما لغتان { يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ } [الرعد : 4] وبالياء عاصم وشامي { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ } [الرعد : 4] وبالياء حمزة وعلى

جزء : 2 رقم الصفحة : 348

{ فِى الاكُلِ } [الرعد : 4] في الثمرة وبسكون الكاف نافع ومكي { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الرعد : 4] عن الحسن مثل اختلاف القلوب في آثارها وأنوارها وأسرارها باختلاف القطع في أنهارها وأزهارها وثمارها { وَإِن تَعْجَبْ } [الرعد : 5] يا محمد من قولهم في إنكار البعث { فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ } [الرعد : 5] خبر ومبتدأ أي فقولهم حقيق بأن يتعجب منه لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك كان الإعادة أهون شيء عليه وأيسره فكان إنكارهم أعجوبة عن الأعاجيب { مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ } في محل الرفع بدل من قولهم.

قرأ عاصم وحمزة

348

كل واحد بهمزتين { أُوالَاااِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ } [الرعد : 5] أولئك الكافرون المتمادون في كفرهم { وَأُوالَاااِكَ الاغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ } [الرعد : 5] وصف لهم بالإصرار أو من جملة الوعيد { وَأُوالَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 217] دل تكرار أولئك على تعظيم الأمر

جزء : 2 رقم الصفحة : 348

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } [الرعد : 6] بالنقمة قبل العافية وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره { وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ } أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فمالهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا والمثلة العقوبة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة.

{ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى : 40] { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ } [الرعد : 6] أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ومحله الحال أي ظالمين لأنفسهم قال السدي يعني المؤمنين وهي أرجى آية في كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة فإن التوبة تزيلها وترفعها { وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [الرعد : 6] على الكافرين أو هما جميعاً في المؤمنين لكنه معلق بالمشيئة فيهما أي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ

} [الرعد : 7] لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم عناداً فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية وإحياء الموتى فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلّم { إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ } [النازعات : 45] إنما أنت رجل أرسلت منذراً مخوفاً لهم من سوء العاقبة وناصحاً كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأي آية كانت والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوى بها { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } [الرعد : 7] من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بآية خص بها لا بما يريدون ويتحكمون { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الارْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ } [الرعد : 8] ما في هذه

349

المواضع الثلاثة موصولة أي يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغيره ذلك وما تغيضه الأرحام أي ويعلم ما تنقصه يقال غاض الماء وغضته أنا وما تزداده والمراد عدد الولد فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة أوجسد الولد فإنه يكون تاماً ومخدجاً أو مدة الولادة فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عندنا وإلى أربع عند الشافعي وإلى خمس عند مالك أو مصدرية أي يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الأرحام وازديادها { وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ } [الرعد : 8] بقدر وحدّ لا يجازوه ولا ينقص عنه لقوله : { إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر : 49]

جزء : 2 رقم الصفحة : 349

{ عَالِمُ الْغَيْبِ } [الجن : 26] ما غاب عن الخلق { وَالشَّهَادَةِ } ما شاهدوه { الْكَبِيرُ } العظيم الشأن الذي كل شيء دونه { الْمُتَعَالِ } المستعلي على كل شيء بقدرته أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها وبالياء في الحالين مكي { سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ } [الرعد : 10] أي في علمه { وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ } [الرعد : 10] متوار { وَسَارِبُ بِالنَّهَارِ } [الرعد : 10] ذاهب في سربه أي في طريقه ووجهه يقال سرب في الأرض سروباً.

وسارب عطف على من هو مستخف لا على مستخف أو على مستخف غير أن من في معنى الاثنين والضمير في { لَهُ } مردود على من كأنه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب { مُعَقِّبَاتٌ } جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه والأصل معتقبات فأدغمت التاء في القاف أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء في عقبه لأن بعضهم يعقب بعضاً أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه { مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } [الرعد : 11] أي قدامه ووراءه { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد : 11] هما صفتان جميعاً وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له معقبات من أمر الله أو يحفظونه من أجل أمر الله

350

أي من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له { إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ } [الرعد : 11] من العافية والنعمة { حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ } [الرعد : 11] من الحال الجميلة بكثرة المعاصي { وَإِذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُواءًا } [الرعد : 11] عذاباً { فَلا مَرَدَّ لَهُ } [الرعد : 11] فلا يدفعه شيء { وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ } [الرعد : 11] من دون الله ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم

جزء : 2 رقم الصفحة : 350

{ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا } [الرعد : 12] انتصبا على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف وذا طمع أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين والمعنى يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق ويطمع في الغيث قال أبو الطيب :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجي

يرجّى الحيا ومنه وتخشى الصواعق

أو يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر ومن له بيت يكف ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر ويطمع فيه من له نفع فيه { وَيُنشِىءُ السَّحَابَ } [الرعد : 12] هو اسم جنس والواحدة سحابة { الثِّقَالَ } بالماء وهو جميع ثقيلة ، تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ } [الرعد : 13] قيل يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر أي يصيحون بسبحان الله والحمد لله وعن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال : " الرعد ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب } والصوت الذي يسمع زجره السحاب حتى ينتهي إلى حيث أمر { وَالْمَلَائكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ } [الرعد : 13] ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله { وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ } [الرعد : 13] الصاعقة : نار تسقط من السماء لما ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيته قال : { وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ } [الرعد : 13] يعني الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يجادلون في الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث

351

وإعادة الخلائق بقولهم : { مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ } [غافر : 8-78].

ويردون الوحدانية باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعض الأجسام بقولهم الملائكة بنات الله.

أو الواو للحال أي فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم وذلك أن أريد أخا لبيد بن ربيعة العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامراً بغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية وأرسل على أربد صاعقة فقتله أخبرني عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد

جزء : 2 رقم الصفحة : 351
{ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [الرعد : 13] أي المماحلة وهي شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا إذا تكلف لاستعماله الحيلة واجتهد فيه ، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من يحث لا يحتسبون
جزء : 2 رقم الصفحة : 351
{ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ } [الرعد : 14] أضيفت إلى الحق الذي هو ضد الباطل للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق وأنها بمعزل من الباطل والمعنى أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقاً بأنه يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه واتصال شديد المحال وله دعوة الحق بما قبله على قصة أربد ظاهر لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر وقد دعا رسول الله عليه وعلى صاحبه بقوله : " اللهم اخسفهما بما شئت " فأجيب فيهما فكانت الدعوة
352

(203/2)

دعوة حق وعلى الأول وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم بحلول محاله بهم وإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيهم إن دعا عليهم { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ } [النحل : 20] { مِّن دُونِهِ } [يس : 23] من دون الله { لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ } [الرعد : 14] من طلباتهم { إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ } [الرعد : 14] الاستثناء من المصدر أي من الاستجابة التي دل عليها لا يستجيبون لأن الفعل بحروفه يدل على المصدر وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان والحال فجاز استثناء كل منها من الفعل فصار التقدير لا يستجيبون استجابة إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء أي كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم.
واللام في ليبلغ متعلق بباسط كفيه
جزء : 2 رقم الصفحة : 352
{ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ } [الرعد : 14] وما الماء ببالغ فاه { وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِى ضَلَالٍ } [الرعد : 14] في ضياع لا منفعة فيه لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الرعد : 15] سجود تعبد وانقياد { طَوْعًا } حال يعني الملائكة والمؤمنين { وَكَرْهًا } يعني المنافقين والكافرين في حال الشدة والضيق { وَظِلَالُهُم } معطوف على

من جمع ظل { بِالْغُدُوِّ } جمع غداة كقنىً وقناة { وَالاصَالِ } جمع أصل جميع أصيل قيل ظل كل شيء يسجد لله بالغدو والآصال وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره وظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع { قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ قُلِ اللَّهُ } [الرعد : 16] حكاية لاعترافهم لأنه إذا قال : لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا : الله ، دليله قراءة ابن مسعود وأبي قالوا الله أو هو تلقين أي فإن لم يجيبوا فلقنهم فإنه لا جواب إلا هذا

353

{ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ } [الرعد : 16] أبعد أن علمتموه رب السماوات والأرض اتخذتم من دونه آلهة { لا يَمْلِكُونَ لانفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا } [الرعد : 16] لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضرراً عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم { قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الاعْمَى وَالْبَصِيرُ } [الأنعام : 50] أي الكافر والمؤمن أو من لا يبصر شيئاً ومن لا يخفى عليه شيء { أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ } ملل الكفر والإيمان.

يستوي كوفي غير حفص { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ } [الرعد : 16] بل أجلعوا ومعنى الهمزة الإنكار { خَلَقُوا كَخَلْقِهِ } [الرعد : 16] خلقوا مثل خلقه وهو صفة لشركاء أي أنهم لم يتخذوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله { فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ } [الرعد : 16] فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق { قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ } [الرعد : 16] أي خالق الأجسام والأعراض لا خالق غير الله ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة ، ومن قال إن الله لم يخلق أفعال الخلق وهو خلقوها فتشابه الخلق على قولهم { وَهُوَ الْوَاحِدُ } [الرعد : 16] المتوحد بالربوبية { الْقَهَّارُ } لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور

جزء : 2 رقم الصفحة : 352

(204/2)

{ أُنزِلَ } أي الواحد القهار وهو الله سبحانه { مِنَ السَّمَآءِ } [الشعراء : 4] من السحاب { مَآءً } مطراً { فَسَالَتْ أَوْدِيَةُ } [الرعد : 17] جمع واد وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة وإنما نكر لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض { بِقَدَرِهَا } بمقدارها الذي علم الله أنه نافع للممطور عليهم ضار { فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ } [الرعد : 17] أي رفع { زَبَدًا } هو ما علا على وجه الماء من الرغوة والمعنى علاه زبد { رَّابِيًا } منتفخاً مرتفعاً على وجه السيل { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ } [الرعد : 17] بالياء كوفي غير أبي بكر ومن لابتداء الغاية أي ومنه ينشأ زبد

مثل زبد الماء أو للتبعيض أي وبعضه زبد { فِى النَّارِ } [ص : 61] حال من الضمير في عليه أي ومما توقدون عليه ثابتاً في النار
354
{ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ } [الرعد : 17] متبغين حلية فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في توقدون { أَوْ مَتَاعٍ } [الرعد : 17] من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الأواني وما يتمتع به في الحضر والسفر وهو معطوف على حلية أي زينة من الذهب والفضة { زَبَدٌ } خبث وهو مبتدأ { مِّثْلُهُ } نعت له ومما توقدون خبر له أي لهذه الفلزّات إذا أغليت زبد مثل زبد الماء { كَذَالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ } [الرعد : 17] أي مثل الحق والباطل { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً } [الرعد : 17] حال أي متلاشياً وهو ما تقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمي وجفأت الرجل صرعته { وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ } [الرعد : 17] من الماء والحلى والأواني { فَيَمْكُثُ فِى الارْضِ } [الرعد : 17] فيثبت الماء في العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى في الأرض مدة طويلة { كَذَالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الامْثَالَ } [الرعد : 17] ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفات وإن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً يثبت الماء في منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أطيب قال الجمهور وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان والأدوية للقلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هواجش النفس ووساوس الشيطان والماء الصافي المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع في الكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل
355
جزء : 2 رقم الصفحة : 354

واللام في { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا } [الرعد : 18] أي أجابوا متعلقة بيضرب أي كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا { لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى } [الرعد : 18] وهي صفة لمصدر استجابوا أي استجابوا الاستجابة الحسنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ } أي وللكافرين الذي لم يستجيبوا أي هما مثلاً الفريقين وقوله { لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الارْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ افْتَدَوْا بِهِ } [الرعد : 18] كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين أي لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله والوجه أن الكلام قد تم على الأمثال وما بعده كلام مستأنف والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا والمعنى لهم المثوبة الحسنى وهي الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما في حيزه { أُولئك لَهُمْ سُواءُ الْحِسَابِ } [الرعد : 18] المناقشة فيه في الحديث " من نوقش الحساب عذاب " { وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ } [التوبة : 95] ومرجعهم بعد المحاسبة الناس { وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران : 12] المكان الممهد والمذموم محذوف أي جهنم ، دخلت همزة الإنكار على الفاء في { أَفَمَن يَعْلَمُ } [الرعد : 19] لإنكار أن تقع شبهة ما بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم { أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ } [الرعد : 19] فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب وهو المراد بقوله : { كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } [الرعد : 19] كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الالْبَابِ } [الرعد : 19] أي الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ } [الرعد : 20] متبدأ والخبر أولئك لهم عقبى الدار كقوله { وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الارْضِ أُولئك لَهُمُ اللَّعْنَةُ } ، وقيل هو صفة لأولي الألباب والأول أوجه وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته وأشهدهم على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ألست بربكم قالوا بلى { وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ } [الرعد : 20] ما أوثقوه على أنفسهم

وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص

{ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ } [الرعد : 21] من الأَرحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان إنما المؤمنون إخوة بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وإفشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حق الأَصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر { وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } [الرعد : 21] أي وعيده كله { وَيَخَافُونَ سُواءَ الْحِسَابِ } [الرعد : 21] خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا { وَالَّذِينَ صَبَرُوا } [الرعد : 22] مطلق فيهما يصير عليه من المصائب في النفوس والأَموال

ومشاق التكاليف { ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ } [الرعد : 22] لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ولا لئلا يعاب في الجزع { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ } [الأعراف : 170] داوموا على إقامتها { وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } [الرعد : 22] أي من الحلال وإن كان الحرام رزقاً عندنا { سِرًّا وَعَلاَنِيَةً } [البقرة : 274] يتناول النوافل لأنها في السر أفضل والفرائض لأن المجاهرة بها أفضل نفياً للتهمة { وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } [الرعد : 22] ويدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم أو إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا وإذا أذنبوا تابوا وإذا هربوا أنابوا وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره فهذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة { أُولئك لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد : 22] عاقبة الدنيا وهي الجنة لأنها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها { جَنَّاتُ عَدْنٍ } [مريم : 61] بدل من عقبى الدار { يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ } [الرعد : 23] أي آمن { مِنْ ءَابَآ ئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } [غافر : 8] وقرىء صلُح والفتح أفصح ومن في محل الرفع بالعطف على الضمير في يدخلونها وساغ ذلك وإن لم يؤكد لأن ضمير المفعول صار فاصلاً وأجاز الزجاج أن يكون مفعولاً معه ووصفهم بالصلاح ليعلم أن الأنساب لا تنفع بنفسها والمراد أبو كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم

357

{ وَالْمَلَائكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ } [الرعد : 23] في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشاراة الرضا

جزء : 2 رقم الصفحة : 357

{ سَلَامٌ عَلَيْكُم } [النحل : 32] في موضع الحال إذ المعنى قائلين سلام عليكم أو مسلمين { بِمَا صَبَرْتُمْ } [الرعد : 24] متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أي هذا الثواب بسبب صبركم على الشهوات أو على أمر الله أو بسلام أي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والأول أوجه { فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد : 24] الجنات { وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ } [الرعد : 25] من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول { وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الارْضِ } [البقرة : 27] بالكفر والظلم { أُولئك لَهُمُ اللَّعْنَةُ } [الرعد : 25] الإبعاد من الرحمة { وَلَهُمْ سُواءُ الدَّارِ } [الرعد : 25] يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار وأن يراد بالدار جهنم وبسوئها عذابها { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد : 26] أي ويضيق لمن يشاء والمعنى الله وحده وهو يبسط الرزق ويقدر دون غيره { وَفَرِحُوا بِالْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [الرعد : 26] بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة { وَمَا الْحَيَواةُ الدُّنْيَا فِى الاخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ } [الرعد : 26] وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرا يتمتع به كعجلة الراكب وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ } [الرعد : 7] أي الآية المقترحة { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ } [الرعد : 27] باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات { وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ } [الرعد : 27]

ويرشد إلى دينه من رجع إليه بقلبه
358

(207/2)

جزء : 2 رقم الصفحة : 358

{ الَّذِينَ ءَامَنُوا } [محمد : 3] هم الذين أو محله النصب بدل مِن مَن { وَتَطْمَاإِنُّ قُلُوبُهُم } [الرعد : 28] تسكن { بِذِكْرِ اللَّهِ } [الرعد : 28] على الدوام أو بالقرآن أو بوعده { أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَاإِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد : 28] بسبب ذكر تطمئن قلوب المؤمنين { الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة : 25] مبتدأ

جزء : 2 رقم الصفحة : 359

{ طُوبَى لَهُمْ } [الرعد : 29] خبره وهو مصدر من طاب كبشرى ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيباً لك وطيب لك وسلاماً لك وسلام لك واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن والقراءة في { وَحُسْنُ مَاَابٍ } [الرعد : 29] مرجع.

بالرفع والنصب تدل على محليها { كَذَالِكَ أَرْسَلْنَاكَ } [الرعد : 30] مثل ذلك الإرسال أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات ثم فسر كيف أرسله فقال { فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ } [الرعد : 30] أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء { لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ } لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك { وَهُمْ يَكْفُرُونَ } [الرعد : 30] وحال هؤلاء أنهم يكفرون { بِالرَّحْمَانِ } بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء { قُلْ هُوَ رَبِّى } [الرعد : 30] ورب كل شيء { لا إِلَاهَ إِلا هُوَ } [البقرة : 255] أي هو ربي الواحد المتعالي عن الشركاء { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } [هود : 88] في نصرتي عليكم { وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [الرعد : 30] مرجعي فيثيبني على مصابرتكم.

متابي وعقابي ومآبي في الحالين يعقوب { وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ } [الرعد : 31] عن مقارّها { أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الارْضُ } [الرعد : 31]

359

حتى تتصدع وتتزايل قطعاً { أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى } [الرعد : 31] فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف فجواب لو محذوف أو معناه ولو أن قرآناً وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأَرض وتكليم الموتى وتنبيهم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله : { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَائكَةَ } [الأنعام : 111].

الآية { بَل لِّلَّهِ الامْرُ جَمِيعًا } [
جزء : 2 رقم الصفحة : 359
الرعد : 31] بل لله القدرة على كل شيء وهو قادر على الآيات التي اقترحوها { أَفَلَمْ يَا يْاَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا } أفلم يعلم وهي لغة قوم من النخع وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لأَن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون كما استعمل النسيان في معنى الترك لتضمن ذلك ، دليله قراءة علي رضي الله عنه أفلم يتبين وقيل إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوي السنات وهذه والله فرية ما فيها مرية { أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا } [الرعد : 31] من كفرهم وسوء أعمالهم { قَارِعَةٌ } داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم { أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ } [الرعد : 31] أو تحل القارعة قريباً منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها ويتعدى إليهم شرورها { حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ } [الرعد : 31] أي موتهم أو القيامة أو ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة لأن جيش رسول الله يغير حول مكة ويختطف منهم أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتي وعد الله أي فتح مكة { إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } [آل عمران : 9] أي لا خلف في موعده
جزء : 2 رقم الصفحة : 359
{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [الرعد : 32] الإملاء الإمهال وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن { ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [الرعد : 32] وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاءً به وتسلية له
360

(208/2)

جزء : 2 رقم الصفحة : 360
{ أَفَمَنْ هُوَ قَآ ئِمٌ } [الرعد : 33] احتجاج عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو رقيب { عَلَى كُلِّ نَفْس } [الرعد : 33] صالحة أو طالحة { بِمَا كَسَبَتْ } [الروم : 41] يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك ثم استأنف فقال { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ } [الأنعام : 100] أي الأصنام { قُلْ سَمُّوهُمْ } [الرعد : 33] أي سموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم ثم قال : { أَمْ تُنَبِّاُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِى الارْضِ } [الرعد : 33] على أم المنقطعة أي بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السماوات والأرض فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء والمراد نفي أن يكون له شركاء { أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ } [الرعد : 33] بل أتسمعونهم شركاء يظاهر من القول من غير أن يكون لذلك

حقيقة كقوله { ذَالِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ } [التوبة : 30].
{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ } كيدهم للإسلام بشركهم { وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ } [الرعد : 33] عن سبيل الله بضم الصاد كوفي وبفتحها غيرهم ومعناه وصدوا المسلمين عن سبيل الله { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الرعد : 33] من أحد يقدر على هدايته { لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [الرعد : 34] بالقتل والأسر وأنواع المحن { وَلَعَذَابُ الاخِرَةِ أَشَقُّ } [الرعد : 34] أشد لدوامه { وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ } [الرعد : 34] من حافظ من عذابه { مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ } [الرعد : 35] صفتها التي هي في غرابة المثل وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الجنة أو الخبر { تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ } [الرعد : 35] كما تقول صفة زيد أسمر { أُكُلُهَا دَآ ئِمٌ } [الرعد : 35] ثمرها دائم الوجود لا ينقطع { وَظِلُّهَا } دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس { تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا } [الرعد : 35] أي الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعني منتهى أمرهم { وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [الرعد : 35]

{ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } [الأنعام : 114] يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه ومن النصارى بأرض الحبشة { يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الاحْزَابِ } [الرعد : 36] أي ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالعداوة ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما { مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ } [الرعد : 36] لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم وكانوا ينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع { قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ } [الرعد : 36] هو جواب للمنكرين أي قل إنما أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله ولا أشرك به فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع إدعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به { إِلَيْهِ أَدْعُوا } خصوصاً لا أدعو إلى غيره { وَإِلَيْهِ } لا إلى غيره { مَآابِ } مرجعي وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لإنكاركم { وَكَذَالِكَ أَنزَلْنَاهُ } [الحج : 16] ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء { حُكْمًا عَرَبِيًّا } [الرعد : 37] حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى أمور يشاركهم فيها فقيل { وَلَـاِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } [الرعد : 37] أي بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة { مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا } أي لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق

وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين وأن لا يزال زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم من شدة الثبات بمكان وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً } [الرعد : 38] نساءاً وأولاداً

362

{ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِاَايَةٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ } [الرعد : 38] أي ليس في وسعه إتيان الآيات على ما يقترحه قومه وإنما ذلك إلى الله { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } [الرعد : 38] لكل وقت حكم يكتب على العباد أي يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته

جزء : 2 رقم الصفحة : 362

(210/2)

{ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ } [الرعد : 39] ينسخ ما يشاء نسخه { وَيُثْبِتُ } بدله ما يشاء أو يتركه غير منسوخ أو يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء ويثبت غيره أو يمحو كفر التائبين ويثبت إيمانهم أو يميت من حان أجله وعكسه ويثبّت مدني وشامي وحمزة وعلي { وَعِندَهُا أُمُّ الْكِتَابِ } [الرعد : 39] أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لأن كل كائن مكتوب فيه { وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ } [الرعد : 40] وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم أو توفيناك قبل ذلك { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } [النحل : 82] فيما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب { وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد : 40] وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الارْضَ } أرض الكفرة { نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [الأنبياء : 44] بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة ، والمعنى عليك البلاغ الذي حملته ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من النصرة والظفر { وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ } [الرعد : 41] لا راد لحكمه والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يعقبه أي يقفيه أي بالرد والإبطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس ، ومحل لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذاً حكمه كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة له تريد حاسراً { وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [الرعد : 41] فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا

363

جزء : 2 رقم الصفحة : 363

{ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [الرعد : 42] أي كفار الأمم الخالية بأنبيائهم والمكر إرادة المكروه في خفية ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال { فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا } [الرعد : 42] ثم فسر ذلك بقوله { يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ } [النور : 64-42] يعني العاقبة المحمودة لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة عما يراد بهم الكافر.

على إرادة الجنس حجازي وأبو عمرو { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلا } [الرعد : 43] المراد بهم كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود قالوا : لست مرسلاً ولهذا قال عطاء هي مكية إلا هذه الآية { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [الرعد : 43] بما أظهر من الأدلة على رسالتي والباء دخلت على الفاعل وشهيد تمييز { وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [الرعد : 43] قيل هو الله عز وجل ، والكتاب : اللوح المحفوظ دليله قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب أي ومن لدنه علم الكتاب لأن علم من علمه من فضله ولطفه ، وقيل ومن همو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم وقال ابن سلام : فيّ نزلت هذه الآية وقيل هو جبريل عليه السلام ومن في موضع الجر بالعطف على لفظ الله أو في موضع الرفع بالعطف على محل الجار والمجرور إذ التقدير كفى الله وعلم الكتاب يرتفع بالمقدر في الظرف فيكون فاعلاً لأن الظرف صلة لمن ومن هنا بمعنى الذي والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب وهذا لأن الظرف إذا وقع صلة يعمل عمل الفعل نحو مررت بالذي في الدار أخوه فأخوه فاعل كما تقول بالذي استقر في الدار أخوه وفي القراءة بكسر ميم من يرتفع العلم بالابتداء.

364

سورة إبراهيم

عليه السلام ، مكية : اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(211/2)

{ الار كِتَابٌ } [هود : 1] هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب يعني السورة والجملة التي هي { أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ } [إبراهيم : 1] في موضع الرفع صفة للنكرة { لِتُخْرِجَ النَّاسَ } [إبراهيم : 1] بدعائك إياهم { مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [إبراهيم : 1] من الضلالة إلى الهدى { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } [إبراهيم : 23] بتيسيره وتسهيله مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنحهم من التوفيق { إِلَى صِرَاطِ } [الصافات : 23] بدل من النور بتكرير العامل { الْعَزِيزُ } الغالب بالانتقام { الْحَمِيدِ } المحمود على الإنعام { اللَّهِ } بالرفع مدني وشامي على هو الله وبالجر غيرهما على أنه عطف بيان

للعزيز الحميد { الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الارْضِ } [إبراهيم : 2] خلقاً وملكاً ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك فقال : { وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [إبراهيم : 2] وهو مبتدأ وخبر ، وصفة { الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ } [إبراهيم : 3] يختارون ويؤثرون

365

{ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَواةَ الدُّنْيَا عَلَى الاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن } [إبراهيم : 3] عن دينه { وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا } [إبراهيم : 3] يطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجاً والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل. الذين مبتدأ خبره { أُولَئك فِى ضَلَال بَعِيدٍ } [إبراهيم : 3] عن الحق ووصف الضلال بالبعد من الإسناد والمجازي والبعد في الحقيقة للضال لأنه هو الذي يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده ، أو مجرور صفة للكافرين أو منصوب على الذم أو مرفوع على أعني الذين أوهم الذين

جزء : 2 رقم الصفحة : 365

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } [إبراهيم : 4] إلا متكلماً بلغتهم { لِيُبَيّنَ لَهُمُ } [النحل : 39] ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون له : لم نفهم ما خوطبنا به فإن قلت إن رسولنا صلى الله عليه وسلّم بعث إلى الناس جميعاً بقوله { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [آل عمران : 64-158] بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة قلت لا يخلو ما إن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا

حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فتعين أن ينزل بلسان واحد وكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم أقرب إليه ولأنه أبعد من التحريف والتبديل { فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ } [إبراهيم : 4] من آثر سبب الضلالة { وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ } [فاطر : 8] من آثر سبب الاهتداء { وَهُوَ الْعَزِيزُ } [إبراهيم : 4] فلا يغالب على مشيئته { الْحَكِيمُ } فلا يخذل إلا أهل الخذلان { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِاَايَاتِنَآ } [هود : 96] التسع { أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ } [إبراهيم : 5] بأن أخرج أو أي أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل أرسلناه وقلنا له أخرج قومك { مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكّرْهُم بِأَيَّاامِ اللَّهِ } [إبراهيم : 5] وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه أيام العرب لحروبها

366

وملاحمها أو بأيام الإنعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياَتٍ لّكُلّ صَبَّارٍ } [إبراهيم : 5] على البلايا { شَكُورٍ } على العطايا كأنه قال لكل مؤمن إذ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر

جزء : 2 رقم الصفحة : 366

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُواءَ الْعَذَابِ } [إبراهيم : 6] إذ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي إنعامه عليكم ذلك الوقت أو بدل اشتمال من نعمة الله أي اذكروا وقت إنجائكم { وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ } [إبراهيم : 6] ذكر في البقرة يذبحون وفي الأعراف يقتلون بلا واو وهنا مع الواو والحاصل أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث إنه زاد على جنس العذاب كأنه جنس آخر { وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَالِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } [البقرة : 49] الإشارة إلى العذاب والبلاء المحنة أو إلى الإنجاء والبلاء النعمة.

{ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الأنبياء : 35] { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ } [إبراهيم : 7] أي آذن ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل وإذ آذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك والشبه وهو من جملة ما قال موسى لقومه وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم كأنه قيل وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال : { لَـاإِن شَكَرْتُمْ } [إبراهيم : 7] يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها { لازِيدَنَّكُمْ } نعمة إلى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقيل إذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهبت للمزيد وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لئن شكرتم بالجد في الطاعة لأزيدنكم بالجد في المثوبة { وَلَـاإِن كَفَرْتُمْ } [إبراهيم : 7] ما أنعمت به عليكم { إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ } [إبراهيم : 7] لمن كفر نعمتي أما في الدنيا فسلب النعم وأما في العقبى فتوالى النقم

{ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ } [إبراهيم : 8] يا بني إسرائيل { وَمَن فِى الارْضِ جَمِيعًا } [المعارج : 14] والناس كلهم { فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ } [إبراهيم : 8] عن شكركم { حَمِيدٌ } وإن لم يحمده الحامدون وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ } [إبراهيم : 9] من كلام موسى لقومه أو ابتداء خطاب لأهل عصر محمد عليه السلام { وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللَّهُ } [إبراهيم : 9] جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولا يعلمهم إلا الله اعتراض والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما بين عدنان وإسمعيل ثلاثون أباً لا يعرفون.

وروى أنه عليه السلام قال عند نزول الآية كذب النسابون { جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ } [غافر : 83] بالمعجزات { فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ } [إبراهيم : 9] الضميران يعودان إلى الكفرة أي أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجباً أو عضوا عليها تغيظاً أو الثاني يعود إلى الأنبياء أي رد القوم أيديهم في أفواه الرسل

كيلا يتكلموا بما أرسلوا به
جزء : 2 رقم الصفحة : 367

(213/2)

{ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ } [إبراهيم : 9] من الإيمان بالله والتوحيد { مُرِيبٍ } موقع في الريبة { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ } [إبراهيم : 10] أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وهو جواب قولهم وإنا لفي شك { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ يَدْعُوكُمْ } إِلَى الإيمان { لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ } [إبراهيم : 10] إذا آمنتم ولم تجيء مع من إلا في خطاب الكافرين كقوله : { وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ } { طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَاقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن } وقال في خطاب المؤمنين : { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ } [الصف : 10] إلى أن قال : { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [الصف : 12] وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد { وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [نوح : 4] إلى وقت قد سماه وبين مقداره { قَالُوا } أي القوم { إِنْ أَنتُمْ } [إبراهيم : 10] ما أنتم { إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا } [إبراهيم : 10] لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا { تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا } [إبراهيم : 10] يعني الأصنام { فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [إبراهيم : 10] بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجا
جزء : 2 رقم الصفحة : 367
{ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } [إبراهيم : 11] تسليم قولهم إنهم بشر مثلهم { وَلَاكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } [إبراهيم : 11] بالإيمان والنبوة كما منّ علينا { وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ } [إبراهيم : 11] جواب لقولهم : فأتونا بسلطان مبين والمعنى أن الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [آل عمران : 122] أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً كأنهم قالوا ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وإيذائكم ألا ترى إلى قوله : { وَمَا لَنَآ أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ } [إبراهيم : 12] معناه وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه { وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا } [إبراهيم : 12] وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين قال أبو تراب : التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء { وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ ءَاذَيْتُمُونَا } [إبراهيم : 12] جواب قسم مضمر أي حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم { وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [إبراهيم : 12] أي فليثبت المتوكلون على
369
توكلهم حتى لا يكون تكرارا
جزء : 2 رقم الصفحة : 369

(214/2)

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ } [إبراهيم : 13] سبْلنا لرسْلهم أبو عمرو { لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ } [إبراهيم : 13] من ديارنا { أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا } [إبراهيم : 13] أي ليكونن أحد الأمرين إخراجكم أو عودكم وحلفوا على ذلك والعود بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } [إبراهيم : 13] القول مضمر أو أجرى الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه { وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الارْضَ مِن بَعْدِهِمْ } [إبراهيم : 14] أي أرض الظالمين وديارهم.
في الحديث : " من آذى جاره ورثه الله داره " { ذَالِكَ } الإهلاك والإسكان أي ذلك الأمر حق { لِمَنْ خَافَ مَقَامِى } [إبراهيم : 14] موقفي وهو موقف الحساب أو المقام مقحم أو خاف قيامي عليه بالعلم كقوله : { أَفَمَنْ هُوَ قَآ ئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد : 33] والمعنى أن ذلك حق للمتقين { وَخَافَ وَعِيدِ } [إبراهيم : 14] عذابي وبالياء يعقوب { وَاسْتَفْتَحُوا } واستنصروا الله على أعدائهم وهو معطوف على أوحى إليهم { وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ } [إبراهيم : 15] وخسر كل متكبر بطر { عَنِيدٍ } مجانب للحق.
معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وقيل الضمير للكفار ومعناه واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه { مِّن وَرَآ ئِهِ } [إبراهيم : 16] من بين يديه { جَهَنَّمَ } وهذا وصف حاله وهو في الدنيا لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف { وَيُسْقَى } معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى { مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ } [إبراهيم : 16] ما يسيل من جلود أهل النار ، وصديد عطف بيان
370
لماء لأنه مبهم فبين بقوله صديد
جزء : 2 رقم الصفحة : 370
{ يَتَجَرَّعُهُ } يشربه جرعة جرعة { وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ } [إبراهيم : 17] ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة كقوله : لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها { وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ }

[إبراهيم : 17] أي أسباب الموت من كل جهة أو من كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكاً { وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ } [إبراهيم : 17] لأنه لو مات لاستراح { وَمِن وَرَآ ئِهِ } [إبراهيم : 17] ومن بين يديه { عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود : 58] أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ وعن الفضيل هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد { مَثَلُ الَّذِينَ } [العنكبوت : 41] مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم مثل الذين { كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ } [إبراهيم : 18] والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله { أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ } [إبراهيم : 18] جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد { اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ } [إبراهيم : 18] الرياح مدني { فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ } [إبراهيم : 18] جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح كقولك : يوم ماطر ، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأسرى وعقر الإبل للأضياف وغير ذلك شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس وهو الإيمان بالله تعالى برماد طيرته الريح العاصف { لا يَقْدِرُونَ } [البقرة : 264] يوم القيامة { مِمَّا كَسَبُوا } [إبراهيم : 18] من أعمالهم { عَلَى شَىْءٍ } [المجادلة : 18] أي لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء { ذالِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } [إبراهيم : 18] إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب { أَلَمْ تَرَ } [الحج : 63] ألم تعلم الخطاب لكل أحد { أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ } [إبراهيم : 19] خالق مضافاً حمزة وعلي { بِالْحَقِّ } بالحكمة والأمر العظيم ولم يخلقها عبثاً { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [إبراهيم : 19] أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق

مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم إعلاماً بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم

(215/2)

جزء : 2 رقم الصفحة : 371

{ وَمَا ذَالِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [إبراهيم : 20] بمتعذر { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا } [إبراهيم : 21] ويبرزون يوم القيامة وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد. ونحوه { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ } [الأعراف : 44] ، { وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ } [الأعراف : 50] ، وغير ذلك ، ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز لهم أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه { فَقَالَ

الضُّعَفَاؤُا } [إبراهيم : 21] في الرأي وهم السفلة والأتباع وكتب بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو { لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا } [إبراهيم : 21] وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم { إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا } [إبراهيم : 21] تابعين. جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب أو ذوي تبع والتبع الأتباع يقال : تبعه تبعاً { فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ } [إبراهيم : 21] فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه ومن الأولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله أو هما للتبعيض أي فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخاً لهم وعتاباً على استغوائهم لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم { قَالُوا } لهم مجيبين معتذرين { لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ } [إبراهيم : 21] أي لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة { سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا } [إبراهيم : 21] مستويان
372
علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية روى أنهم يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر ثم يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا واتصاله بما قبله من حيث إن عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه فقالوا لهم : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر { مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ } [إبراهيم : 21] منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً

جزء : 2 رقم الصفحة : 372

{ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الامْرُ } [إبراهيم : 22] حكم بالجنة والنار لأهليهما وفرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وروى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً على منبر من نار فيقول لأهل النار { إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ } [إبراهيم : 22] وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم { وَوَعَدتُّكُمْ } بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء { فَأَخْلَفْتُكُمْ } كذبتكم { وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ } [إبراهيم : 22] من تسلط واقتدار { إِلا أَن دَعَوْتُكُمْ } [إبراهيم : 22] لكني دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني والاستثناء منقطع لأن الدعاء ليس من جنس السلطان { فَاسْتَجَبْتُمْ لِى } [إبراهيم : 22] فأسرعتم إجابتي { فَلا تَلُومُونِى } [إبراهيم : 22] لأن من تجرد للعداوة لا يلام إذا دعا إلى أمر قبيح مع أن الرحمن قد قال لكم : { لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ } [الأعراف : 27] { وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ } [إبراهيم : 22] حيث اتبعتموني بلا حجة ولا برهان وقول المعتزلة هذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين باطل لقوله : لو هدانا الله أي إلى الإيمان لهديناكم

كما مر { مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ } [إبراهيم : 22] لا
373

(216/2)

ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه والإصراخ الإغاثة بمصرخيّ حمزة اتباعاً للخاء غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة والياءان بعد كسرتين وهو جمع مصرخ فالياء الأولى يا الجمع والثانية ضمير المتكلم

جزء : 2 رقم الصفحة : 373

{ إِنّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ } [إبراهيم : 22] وبالياء بصري وما مصدرية { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] متعلق بأشركتموني أي كفرت اليوم بإشراككم إياي مع الله من قبل هذا اليوم أي في الدنيا كقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره بإشراكهم إياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله : { إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ } أو من قبل متعلق بكفرت وما موصولة أي كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل تقول : أشركني فلان أي جعلني له شريكاً ومعنى إشراكهم الشيطان بالله طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وهذا آخر قول الشيطان وقوله : { إِنَّ الظَّـالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [إبراهيم : 22] قول الله عز وجل وقيل هو من تمام إبليس وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفاً للسامعين

جزء : 2 رقم الصفحة : 373

{ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَـالِدِينَ فِيهَا } [إبراهيم : 23] عطف على برزوا { بِإِذْنِ رَبّهِمْ } [إبراهيم : 23] متعلق بأدخل أي أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره { تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـامٌ } [إبراهيم : 23] هو تسليم بعضهم على بعض في الجنة أو تسليم الملائكة عليهم { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا } [إبراهيم : 24] أي وصفه وبينه { كَلِمَةً طَيّبَةً } [إبراهيم : 24] نصب بمضمر أي جعل كلمة طيبة { كَشَجَرَةٍ طَيّبَةٍ } [إبراهيم : 24] وهو تفسر لقوله : ضرب الله مثلاً نحو شرف الأمي زيداً كساه حلة وحمله على فرس أو انتصب مثلاً وكلمة بضرب أي ضرب كلمة طيبة مثلاً يعني جعلها مثلاً ثم قال كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة طيبة { أَصْلُهَا ثَابِتٌ } [إبراهيم : 24] أي في الأرض ضارب بعروقه فيها { وَفَرْعُهَا } وأعلاها ورأسها { فِى السَّمَآءِ } [آل عمران : 5] والكلمة الطيبة كلمة التوحيد
374

أصلها تصديق بالجنان وفرعها إقرار باللسان وأكلها عمل الأركان وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملاً فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملاً ولكن الأشجار لا تراد إلا للثمار فما أقوات النار إلا من

الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الأثمار والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك والجمهور على أنها النخلة فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ذات يوم : " إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبياً فوقع في قلبي أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن أقولها وأنا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : " ألا إنها النخلة " فقال عمر : يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم

جزء : 2 رقم الصفحة : 374

(217/2)

{ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِين } [إبراهيم : 25] تعطي ثمرها كل وقت وقتها الله لإثمارها { بِإِذْنِ رَبِّهَا } [إبراهيم : 25] بتيسير خالقها وتكوينه { وَيَضْرِبُ اللَّهُ الامْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [إبراهيم : 25] لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ } [إبراهيم : 26] هي كلمة الكفر { كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ } [إبراهيم : 26] هي كل شجرة لا يطيب ثمرها وفي الحديث : أنها شجرة الحنظل { اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الارْضِ } [إبراهيم : 26] استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وهو في مقابلة أصلها ثابت { مَا لَهَا مِن قَرَارٍ } [إبراهيم : 26] أي استقرار يقال قر الشيء قراراً كقولك ثبت ثبوتاً شبه بها القول الذي لا يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا } [إبراهيم : 27] أي يديمهم عليه { بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ } [إبراهيم : 27] هو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم } [العنكبوت : 25] حتى إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود وغير ذلك { وَفِي الاخِرَةِ } [الأعراف : 156] الجمهور على

375

أن المراد به في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب فعن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ذكر قبض روح المؤمن فقال : " ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلّم فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ثم يقول الملكان عشت سعيداً ومت حميداً نم نومة العروس " { وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ } [إبراهيم : 27] فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء وهم في الآخرة أضل وأزل { وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ } [إبراهيم : 27] فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين

جزء : 2 رقم الصفحة : 375

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ } [إبراهيم : 28] أي شكر نعمة الله { كُفْرًا } لأن شكرها الذي

وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً وهم أهل مكة أكرمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله وجعل ما لزمهم من الشكر { وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ } [إبراهيم : 28] الذين تابعوهم على الكفر { دَارَ الْبَوَارِ } [إبراهيم : 28] دار الهلاك { جَهَنَّمَ } عطف بيان { يَصْلَوْنَهَا } يدخلونها { وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [إبراهيم : 29] وبئس المقر جهنم { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا } [إبراهيم : 30] أمثالا في العبادة أو في التسمية { لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ } [إبراهيم : 30] وبفتح الياء مكي وأبو عمرو { قُلْ تَمَتَّعُوا } [إبراهيم : 30] في الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية وقال ذو النون : التمتع أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته { فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [إبراهيم : 30] مرجعكم إليها { قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا } [إبراهيم : 31] خصهم بالإضافة إليه تشريفاً

376

{ يُقِيمُوا الصَّلَاوةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } [إبراهيم : 31] المقول محذوف لأن قل تقتضي مقولاً وهو أقيموا وتقديره قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا وقيل إنه أمر وهو المقول والتقدير ليقيموا ولينفقوا فحذف اللام لدلالة قل عليه ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز { سِرًّا وَعَلَانِيَةً } [البقرة : 274] انتصبا على الحال أي ذوي سر وعلانية يعني مسرين ومعلنين أو على الظرف أي وقتي سر وعلانية أو على المصدر أي إنفاق سر وإنفاق علانية والمعنى إخفاء التطوع وإعلان الواجب { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلَالٌ } [إبراهيم : 31] أي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة والخلال المخالة وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله.

بفتحهما مكي وبصري والباقون بالرفع والتنوين

{ اللَّهِ } مبتدأ { الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ } [الأنعام : 73] خبره { وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } [البقرة : 22] من السحاب مطراً { فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ } [البقرة : 22] من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقاً هو ثمرات أو من الثمرات مفعول أخرج ورزقاً حال من المفعول { دَآ ئِبَيْنِ } دائمين وهو حال من الشمس والقمر أي يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات { وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } [إبراهيم : 33] يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم { وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ } [إبراهيم : 34] من للتبعيض أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه أو وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه فما موصولة والجملة صفة لها وحذفت الجملة الثانية لأن الباقي يدل على المحذوف كقوله سرابيل تقيكم الحر.

من كلٍّ عن أبي عمرو وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير

سائليه أو ما موصولة أي وآتاكم من كل ذلك ما
377
احتجتم إليه فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال { وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَآ } [إبراهيم : 34] لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله { إِنَّ الانسَانَ لَظَلُومٌ } [إبراهيم : 34] بظلم النعمة بإغفال شكرها { كَفَّارٌ } شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والإنسان للجنس فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه

جزء : 2 رقم الصفحة : 377

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِ مُ } [البقرة : 126] واذكر إذ قال إبراهيم { رَبِّ اجْعَلْ هَاذَا الْبَلَدَ } [إبراهيم : 35] أي البلد الحرام { مِنْ } ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما في البقرة أنه قد سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها وفي الثاني أن يخرجه من صفة الخوف إلى الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمناً { وَاجْنُبْنِى } وبعدني أي ثبتني وأدمني على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك أي ثبتنا على الإسلام { وَبَنِىَّ } أراد بنيه من صلبه { أَن نَّعْبُدَ الاصْنَامَ } [إبراهيم : 35] من أن نعبد الأصنام { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ } [إبراهيم : 36] جعلن مضلات على طريق التسبيب لأن الناس ضلوا بسببهن فكأنهم أضللنهم { فَمَن تَبِعَنِى } [إبراهيم : 36] على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي { فَإِنَّهُ مِنِّى } [البقرة : 249] أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي { وَمَنْ عَصَانِى } [إبراهيم : 36] فيما دون الشرك { فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [إبراهيم : 36] أو ومن عصاني عصيان شرك فإنك غفور رحيم إن تاب وآمن { رَّبَّنَآ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى } [إبراهيم : 37] بعض أولادي وهم إسمعيل ومن ولد منه { بِوَادٍ } هو واد مكة { غَيْرِ ذِى زَرْعٍ } [إبراهيم : 37] لا يكون فيه شيء من زرع قط { عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 378

إبراهيم : 37] هو بيت الله سمي به لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه أولأنه لم يزل ممنعاً يهابه كل جبار أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها أو لأنه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه { رَّبَّنَآ إِنِّى أَسْكَنتُ } [إبراهيم : 37] اللام متعلقة بأسكنت أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلا
378

ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك { فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مَّنَ النَّاسِ } [إبراهيم : 37] أفئدة من أفئدة الناس ومن للتبعيض لما روى عن مجاهد لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند أو للابتداء كقولك : القلب مني سقيم تريد قلبي فكأنه قيل أفئدة ناس ونكر المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة { تَهْوِى إِلَيْهِمْ } [إبراهيم : 37] تسرع إليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقاً { وَارْزُقْهُم مّنَ الثَّمَرَاتِ } [إبراهيم : 37] مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد الشاسعة { لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم : 37] النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات في واد ليس فيه شجر ولا ماء

جزء : 2 رقم الصفحة : 378

{ رَبَّنَآ } النداء المكرر دليل التضرع واللجإ إلى الله { إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ } [إبراهيم : 38] تعلم السر كما تعلم العلن { وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى الارْضِ وَلا فِى السَّمَآءِ } [إبراهيم : 38] من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام أو من كلام إبراهيم ومن للاستغراق كأنه قيل وما يخفى على الله شيء ما { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ } [إبراهيم : 39] على بمعنى مع وهو في موضع الحال أي وهب لي وأنا كبير { إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } [إبراهيم : 39] روي أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة وروى أنه ولد له إسمعيل لأربع وستين وإسحاق لتسعين وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم لأنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم { إِنَّ رَبّى لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ } [إبراهيم : 39] مجيب الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان إذا تلقاه بالإجابة والقبول ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال : { رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات : 100] فشكر الله له ما أكرمه به من إجابته وإضافة السميع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها وأصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلا في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك هذا رحيم أباه

379

جزء : 2 رقم الصفحة : 379

(220/2)

{ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَواةِ وَمِن ذُرّيَّتِى } [إبراهيم : 40] وبعض ذريتي عطفاً على المنصوب في اجعلني وإنما بعض لأنه علم بأعلام الله أنه يكون في ذريته كفار ، عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة { رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ } [إبراهيم : 40] بالياء في الوصل والوقف مكي ، وافقه أبو عمرو وحمزة في الوصل الباقون بلا ياء أي استجب

دعائي أو عبادتي وأعتزلكم وما تدعون من دون الله { رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ } [إبراهيم : 41] أي آدم وحواء أو قاله قبل النهي واليأس عن إيمان أبويه { وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } [إبراهيم : 41] أي يثبت أو أسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً مثل واسأل القرية { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [إبراهيم : 42] تسلية للمظلوم وتهديد للظالم والخطاب لغير الرسول عليه السلام وإن كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله : { وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 14] ، { وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا ءَاخَرَ } [القصص : 88] وكما جاء في الأمر { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } وقيل المراد به الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شيء وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله : { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [البقرة : 283] { إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ } [إبراهيم : 42] أي عقوبتهم { لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الابْصَارُ } [إبراهيم : 42] أي أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى { مُهْطِعِينَ } مسرعين إلى الداعي { مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ } رافعيها { لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ } [إبراهيم : 43] لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم { وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ } [إبراهيم : 43] صفر من الخير لا تعي شيئاً من الخوف والهواء الذي لم تشغله الأجرام فوصف به

فقيل : قلب فلان هوا إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة وقيل : جُوف لا عقول لهم

{ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ } [إبراهيم : 44] أي يوم القيامة ويوم مفعول ثان لأنذر لا ظرف إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم { فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا } [إبراهيم : 44] أي الكفار { رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } [إبراهيم : 44] أي ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم : { أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ } [إبراهيم : 44] أي حلفتم في الدنيا أنكم إذا متم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون إلى دار أخرى يعني كفرتم بالبعث كقوله : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ } [النحل : 38] وما لكم جواب القسم وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله : أقسمتم ولو حكى لفظ المقسمين لقيل ما لنا من زوال أو أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فإنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب.

يقال : سكن الدار وسكن فيها ومنه { وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ } [إبراهيم : 45] بالكفر لأن السكنى من السكون وهو اللبث والأصل تعديته بفي نحو قر في الدار وأقام فيها ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل : سكن الدار كما قيل تبوأها ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أي قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا { وَتَبَيَّنَ لَكُمْ } [إبراهيم : 45] بالأخبار أو المشاهدة وفاعل تبين مضمر دل عليه الكلام أي تبين لكم حالهم و

جزء : 2 رقم الصفحة : 381
{ كَيْفَ } ليس بفاعل لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما
381

(221/2)

قبله وإنما نصب كيف بقوله { فَعَلْنَا بِهِمْ } [إبراهيم : 45] أي أهلكناهم وانتقمنا منهم { وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامْثَالَ } [إبراهيم : 45] أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم { وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ } [إبراهيم : 46] أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وبطلان الإسلام { وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ } [إبراهيم : 46] وهو مضاف إلى الفاعل كالأول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه أو إلى المفعول أي عند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون { وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } [إبراهيم : 46] بكسر اللام الأولى ونصب الثانية والتقدير وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبي صلى الله عليه وسلّم فعبر عن النبي عليه السلام بالجبال لعظم شأنه وكان تامة وإن نافية واللام مؤكدة لها كقوله { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ } [الانفال : 33] والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً دليله قراءة ابن مسعود وما كان مكرهم وبفتح اللام الأولى ورفع الثانية عليٌ ، أي وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها فإن مخففة من إن واللام مؤكدة { فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُا } [إبراهيم : 47] يعني قوله : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا } [غافر : 51] { كَتَبَ اللَّهُ لاغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى } [المجادلة : 21].

مخلف مفعول ثاني لتحسبن وأضاف مخلف إلى وعده وهو المفعول الثاني له والأول رسله والتقدير مخلف رسله وعده وإنما قدم المفعول الثاني على الأول ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله : إن الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته { أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } [البقرة : 209] غالب لا يماكر

جزء : 2 رقم الصفحة : 381
{ ذُو انتِقَامٍ } [آل عمران : 4] لأوليائه من أعدائه وانتصاب { يَوْمَ تُبَدَّلُ الارْضُ غَيْرَ الارْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } [إبراهيم : 48] على الظرف للانتقام أو على إضمار اذكر والمعنى يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير
382
هذه المعروفة وتبدل السماوات غير السماوات وإنما حذف لدلالة ما قبله عليه والتبديل التغيير وقد

يكون في الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير وفي الأوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل واختلف في تبديل الأرض والسماوات فقيل تبدل أوصافها وتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي تلك الأرض وإنما تغير.

وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً وقيل تخلق بدلها أرض وسماوات أخر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة

وعن علي رضي الله عنه : تبدل أرضاً من فضة وسماوات من ذهب { وَبَرَزُوا } وخرجوا من قبورهم { لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [إبراهيم : 48] هو كقوله : { لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر : 16] لأن الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره كان الأمر في غاية الشدة

{ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ } [إبراهيم : 49] الكافرين { يَوْمَاإِذٍ } يوم القيامة { مُقْرِنِينَ } قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين { فِى الاصْفَادِ } [إبراهيم : 49] متعلق بمقرنين أي يقرنون في الأصفاد أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين ، والأصفاد القيود أو الأغلال { سَرَابِيلُهُم } قمصهم { مِّن قَطِرَانٍ } [إبراهيم : 50] هو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ فيهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة نعوذ بالله من سخطه

383

وعذابه من " قِطرٍ آن " زيد عن يعقوب نحاس مذاب بلغ حره إناه { وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ } [إبراهيم : 50] تعلوها باشتعالها وخص الوجه لأنه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ولذا قال تطلع على الأفئدة

{ لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ } [إبراهيم : 51] أي يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ما كسبت أو كل نفس من مجرمة أو مطيعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه

يثيب المؤمنين بطاعتهم { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [آل عمران : 199] يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر { هَاذَآ } أي ما وصفه في قوله : ولا تحسبن إلى قوله : سريع الحساب { بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ } [إبراهيم : 52] كفاية في التذكير والموعظة { وَلِيُنذَرُوا بِهِ } [إبراهيم : 52] بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا { وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَاهٌ وَاحِدٌ } [إبراهيم : 52] لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد لأن الخشية أم الخير كله { وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الالْبَابِ } [إبراهيم : 52] ذوو العقول.

384

سورة الحجر

تسع وتسعون آية مكية

{ الرَ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ } [يونس : 1] تلك إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب والقرآن المبين السورة وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال وللغرابة في البيان { رُّبَمَا } بالتخفيف مدني وعاصم وبالتشديد غيرهما وما هي الكافة لأنها حرف يجر ما بعده ويختص الاسم النكرة فإذا كفت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم وإنما جاز { يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الحجر : 2] لأن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ود ووداتهم تكون عند النزع أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ، وإذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلماً كذا روى عن ابن عباس رضي الله عنهما { لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ } [الحجر : 2] حكاية ودادتهم وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم كقولك : حلف بالله ليفعلن ولو قيل : حلف يالله لأفعلن ولو كنا مسلمين لكان حسناً وإنما قلل برب لأن أهوال القيامة تشغلهم عن التمني فإذا أفاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين وقول من قال : إن رب يعني بها الكثرة سهو لأنه ضد ما يعرفه

385

أهل اللغة لأنها وضعت للتقليل

جزء : 2 رقم الصفحة : 385

(223/2)

{ ذَرْهُمْ } أمر إهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم { يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا } [الحجر : 3] بدنياهم { وَيُلْهِهِمُ الامَلُ } [الحجر : 3] ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر : 3] سوء صنيعهم وفيه تنبيه على

أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ } [الحجر : 4] ولها كتاب جملة واقعة صفة لقرية والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنذِرُونَ } [الشعراء : 208] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف إذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو فجيء بالواو تأكيداً لذلك والوجه أن تكون هذه الجملة حالاً لقرية لكونها في حكم الموصوفة كأنه قيل : وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفاً وقوله : كتاب معلوم أي مكتوب معلوم وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ وبين ألا ترى إلى قوله : { مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا } [الحجر : 5] في موضع كتابها { وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } أي عنه وحذف لأنه معلوم وأنث الأمة أولاً ثم ذكرها آخراً حملاً على اللفظ والمعنى { وَقَالُوا } أي الكفار { يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر : 6] أي القرآن { إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر : 6] يعنون محمداً عليه السلام وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } [الشعراء : 27] وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ ومنه { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [آل عمران : 21].

{ إِنَّكَ لانتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود : 87] والمعنى إنك لتقول قول المجانين حيث تدعى أن الله نزل عليك الذكر

{ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الحجر : 7] لو ركبت مع لا وما لامتناع الشيء لوجود غيره أو للتحضيض وهل ركبت مع لا للتحضيض فحسب والمعنى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً { مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائكَةَ } [الحجر : 8] كوفي غير أبي ، تُنَزَّل الملائكة أبو بكر تَنَزَّل الملائكة أي تتنزل غيرهم { إِلا بِالْحَقِّ } [الأنعام : 151] إلا تنزيلاً ملتبساً بالحكمة { وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ } [الحجر : 8] إذا جواب لهم وجزاء الشرط مقدر تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين إذا وما أخر عذابهم { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ } [الحجر : 9] القرآن { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [يوسف : 12] وهو رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ولذلك قال : إنا نحن فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع وأنه هو الذي نزله محفوظاً من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فوقع التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه وقد جعل قوله : وإنا له لحافظون دليلاً على أنه منزل من عنده آية إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه أو الضمير في له لرسول الله صلى الله عليه وسلّم كقوله : { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ } [المائدة : 67] { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الاوَّلِينَ } [الحجر : 10] أي ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً في الفرق الأولين ، والشيعة : الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة { وَمَا يَأْتِيهِم }

[الشعراء : 5] حكاية حالة ماضية لأن ما لا تدخل على المضارع إلا وهو في معنى الحال وعلى ماض إلا وهو قريب من الحال { مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } يعزي نبيه عليه السلام
387
جزء : 2 رقم الصفحة : 387

(224/2)

{ كَذَالِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } أي كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء في شيع الأولين نسلكه أي الكفر أو الاستهزاء في قلوب المجرمين من أمتك من اختار ذلك يقال : سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة في الأصلح وخلق الأفعال { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } [الشعراء : 201] بالله أو بالذكر وهو حال { وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الاوَّلِينَ } [الحجر : 13] مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسله وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ } [الحجر : 14] ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء { فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ } [الحجر : 14] يصعدون { لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا } [الحجر : 15] حيرت أو حبست من الإبصار أو من السكر ، سكِرت مكي أي حبست كما يحبس النهر من الجري والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا هو شيء نتخايله لا حقيقة له ولقالوا { بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ } [الحجر : 15] قد سحرنا محمد بذلك أو الضمير للملائكة أي لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون وقال : إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَآءِ } [الحجر : 16] خلقنا فيها { بُرُوجًا } نجوماً أو قصوراً فيها الحرس أو منازل للنجوم { وَزَيَّنَّاهَا } أي السماء { لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا } أي السماء { مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ } [الحجر : 17] ملعون أو مرمي بالنجوم { إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ } [الحجر : 18] أي المسموع ومن في محل النص على الاستثناء { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ } [الصافات : 10] نجم ينقض فيعود { مُّبِينٍ } ظاهر للمبصرين قيل كانوا لا
388
يحجبون عن السماوات كلها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلّم منعوا من السماوات كلها
جزء : 2 رقم الصفحة : 388

(225/2)

{ وَالارْضَ مَدَدْنَاهَا } [ق : 7] بسطناها من تحت الكعبة ، والجمهور على أنه تعالى مدها على وجه الماء { وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ } [الحجر : 19] في الأرض جبالاً ثوابت { وَأَنابَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ } [الحجر : 19] وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان أوله وزن وقدر في أبواب المنفعة والنعمة أو ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها وخص ما يوزن لانتهاء الكيل إلى الوزن { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا } [الأعراف : 10] في الأرض { مَعَايِشَ } ما يعاش به من المطاعم جمع معيشة وهي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فإن تصريح الياء فيها خطأ { وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } [الحجر : 20] من في محل النصب بالعطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين أو جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون أنهم يرزقونهم ويخطئون فإن الله هو الرزاق يرزقهم وإياهم ويدخل فيه الأنعام والدواب ونحو ذلك ولا يجوز أن يكون محل من جرا بالعطف على الضمير المجرور في لكم لأنه لا يعطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار { وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَآ ائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُا إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به وما نعطيه إلا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلاً لاقتدار على كل مقدور { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ } [الحجر : 22] جمع لاقحة أي وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل السحاب في جوفها كأنها لاقحة بها من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم.

الريح حمزة { فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ } [الحجر : 22] فجعلناه لكم سقياً { وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [الحجر : 22] نفى عنهم ما أبته لنفسه في قوله : وإن من شيء إلا عندنا خزائنه كأنه قال : نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في

السماء وإنزاله منها وما أنتم عليه بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم

{ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ } [الحجر : 23] أي نحيي بالإيجاد ونميت بالإفناء أو نميت عند انقضاء الآجال ونحيي لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ الواو للجمع المطلق { وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } [الحجر : 23] الباقون بعد هلاك الخلق كلهم وقيل للباقي وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه { وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ } [الحجر : 24] من تقدم ولادة وموتاً ومن تأخر أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم في الإسلام أو في الطاعة أو في صف الجماعة أو في صف الحرب ومن تأخر { وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ } [الحجر : 25] أي هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم { إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [الأنعام : 139] باهر

الحكمة واسع العلم { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانسَانَ } [المؤمنون : 12] أي آدم { مِن صَلْصَالٍ } [الرحمن : 14] طين يابس غير مطبوخ { مِّنْ حَمَإٍ } [الحجر : 26] صفة لصلصال أي خلقه من صلصال كائن من حمإ أي طين أسود متغير { مَّسْنُونٍ } مصور

(226/2)

وفي الأول كان تراباً فعجن بالماء فصار طيناً فمكث فصار حمأ فخلص فصار سلالة فصوّر ويبس فصار صلصالاً فلا تناقض { وَالْجَآنَّ } أبا الجن كآدم للناس أو هو إبليس وهو منصوب بفعل مضمر يفسره { خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ } [الحجر : 27] من قبل آدم { مِن نَّارِ السَّمُومِ } [الحجر : 27] من نار الحر الشديد النافذ في المسام قيل هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التي خلق الله منها الجان { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ } [الحجر : 28] واذكر وقت قوله { لِلْمَلَائكَةِ إِنِّى خَالِقُ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ } أتممت خلقته وهيأتها النفخ الروح فيها { وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى } [الحجر : 29] وجعلت فيه الروح وأحييته وليس ثمة نفخ وإنما هو تمثيل والإضافة للتخصيص { فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29] هو أمر من وقع يقع أي اسقطوا على الأرض يعني
390
اسجدوا له ودخل الفاء لأنه جواب إذا وهو دليل على أنه يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل
جزء : 2 رقم الصفحة : 390
{ فَسَجَدَ الْمَلَائكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } [الحجر : 30] فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله كلهم وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله أجمعون { إِلا إِبْلِيسَ } [طه : 116] ظاهر الإستثناء يدل على أنه كان من الملائكة لأن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه وعن الحسن أن الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة قلنا غير المأمور لا يصير بالترك ملعوناً و في الكشاف كان بينهم مأمورا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب كقولك رأيتهم إلا هنداً { أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } [الحجر : 31] امتنع أن يكون معهم وأبى استئناف على تقدير قول قائل يقول هلا سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه وقيل معناه ولكن إبليس أبى { قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } حرف الجر مع أن محذوف تقديره مالك في أن لا تكون مع الساجدين أي أي غرض لك في إبائك السجود { قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ } [الحجر : 33] اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني أن أسجد { لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا } من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة { فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } [الحجر : 34] مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون لأن اللعنة هي الطرد من الرحمة والإبعاد منها { وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [الحجر : 35] ضرب يوم الدين حداً للعنة لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به إنك

مذموم مدعو عليك باللعنة في السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه
391
جزء : 2 رقم الصفحة : 391

(227/2)

{ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى } [الحجر : 36] فأخرني { إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة وقيل إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب إلى ذلك وانظر إلى آخر أيام التكليف { قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى } [الحجر : 39] الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم ومعنى أقسم بإغوائك إياي { لاَزَيِّنَنَّ لَهُمْ } [الحجر : 39] المعاصي ونحو قوله بما أغويتني لأزينن لهم.
{ فَبِعِزَّتِكَ لاغْوِيَنَّهُمْ } [ص : 82] في أنه إقسام إلا أن أحدهما إقسام بصفه الذات والثاني بصفة الفعل وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين والأصح أن الأيمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يميناً ومالاً فلا والآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال.
وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر { فِى الارْضِ } [السجدة : 10] في الدنيا التي هي دار الغرور وأراد إني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر { قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لاَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الارْضِ وَلاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } وبكسر اللام بصري ومكي وشامي استثنى المخلص لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه { قَالَ هَاذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ } [الحجر : 41] { إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر : 42] أي هذا طريق حق عليّ أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته وقيل معنى على إلي.
عليٌّ يعقوب من علو الشرف والفضل
392
جزء : 2 رقم الصفحة : 392
{ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر : 43] الضمير للغاوين { لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ } [الحجر : 44] من أتباع إبليس { جُزْءٌ مَّقْسُومٌ } [الحجر : 44] نصيب معلوم مفرزقيل أبواب النار أطباقها وأدراكها فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون والثاني لليهود والثالث للنصارى

والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الحجر : 45] وبضم العين مدني وبصري وحفص.
المتقي على الإطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه وقال في الشرح إن دخل أهل الكبائر في قوله لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر وإلا فالمراد به الذين اتقوا الشرك { ادْخُلُوهَا } أي يقال لهم ادخلوها { بِسَلَامٍ } حال أي سالمين أو مسلماً عليكم تسلم عليكم الملائكة { ءَامِنِينَ } من الخروج منهما والآفات فيها وهو حال أخرى { وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ } [الأعراف : 43] وهو الحقد الكامن في القلب أي إن كان لأحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن علي رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم وقيل معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحابب { إِخْوَانًا } حال { عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } [الحجر : 47] كذلك قيل تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضاً { لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ } [الحجر : 48] في الجنة تعب { وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ } [الحجر : 48] فتمام النعمة بالخلود ، ولما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه

(228/2)

{ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الاليمُ } تقريراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس قال عليه السلام : " لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه في العبادة ولم أقدم على ذنب " وعطف { وَنَبِّئْهُمْ } وأخبر أمتك.
عطفه على نبىء عبادي ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم { عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } [الحجر : 51] أي أضيافه وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكاً والضيف يجىء واحداً وجمعاً لأنه مصدر ضافه { إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا } [الحجر : 52] أي نسلم عليك سلاماً أو سلمنا سلاماً { قَالَ } أي إبراهيم { إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ } [الحجر : 52] خائفون لامتناعهم من الأكل أو لدخولهم بغير إذن وبغير وقت { قَالُوا لا تَوْجَلْ } [الحجر : 53] لا تخف { إِنَّا نُبَشِّرُكَ } [مريم : 7] استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل أي إنك مبشر آمن فلا توجل.
وبالتخفيف وفتح النون حمزة { بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } [الحجر : 53] هو إسحاق لقوله في سورة هود فبشرناها بإسحاق { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ } [الحجر : 54] أي أبشرتموني مس الكبر بأن يولد

لي أي إن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر { فَبِمَ تُبَشِّرُونَ } [الحجر : 54] هي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قيل فبأي أعجوبة تبشرون ، وبكسر النون والتشديد مكي والأصل تبشرونني فأدغم نون الجمع من نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلاً عليها.
تبشرون بالتخفيف نافع والأصل تبشرونني فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين ، والباقون بفتح النون وحذف المفعول والنون نون الجمع
394
جزء : 2 رقم الصفحة : 394
{ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ } [الحجر : 55] باليقين الذي لا لبس فيه { فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ } [الحجر : 55] من الآيسين من ذلك { قَالَ } أي إبراهيم { وَمَن يَقْنَطُ } [الحجر : 56] وبكسر النون بصري وعلى { مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّآلُّونَ } [الحجر : 56] إلا المخطئون طريق الصواب أو إلا الكافرون كقوله : { يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَا يـَاسُواْ مِن } [يوسف : 87] أي لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ } [الحجر : 57] فما شأنكم { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ } أي قوم لوط { إِلا ءَالَ لُوطٍ } [الحجر : 59] يريد أهله المؤمنين والاستثناء منقطع لأن القوم موصوفون بالإجرام والمستثني ليس كذلك أو متصل فيكون استثناء من الضمير في مجرمين كأنه قيل إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم والمعنى يختلف باختلاف الاستثناثية لأن آل لوط مخرجون في منقطع من حكم الإرسال ويعنى أنهم ارسلوا إلى القوم المجرمين أصلاً ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا كإرسال السهم إلى المرمى في أنه في معنى التعذيب والإهلاك كأنه قيل إنا أهلكنا قوماً مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال يعني أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء وإذا انقطع الاستثناء جرى { إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر : 59] مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط لأن المعنى لكن آل لوط منجون وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم فما حال آل لوط فقالوا إنا لمنجوهم { إِلا امْرَأَتَهُ } [الحجر : 60] مستثنى من الضمير المجرور في لمنجوهم وليس باستثناء من الاستثناء لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه بأن يقول أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته وهنا قد اختلف الحكمان لأن إلا آل لوط متعلق
395

بأرسلنا أو بمجرمين وإلا امرأته متعلق بمنجوهم فكيف يكون استثناء من استثناء.
لمنجوهم بالتخفيف حمزة وعلى { قَدَّرْنَآ } وبالتخفيف أبو بكر { إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ } [الحجر : 60] الباقين في العذاب قيل لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح إن لأنه مع اسمه وخبره مفعول قدرنا ولكنه كقوله { وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات : 158] وإنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك.
جزء : 2 رقم الصفحة : 395
{ مُّنكَرُونَ } أي لا أعرفكم أي ليس عليكم زي السفر ولا أنتم من أهل الحضر فأخاف أن تطرقوني بشر { قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ } [الحجر : 63] أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه سرورك وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه أي يشكون ويكذبونك { وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ } [الحجر : 64] باليقين من عذاب { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [الأنعام : 146] في الإخبار بنزوله بهم { قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ } [هود : 81] في آخر الليل أو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل { وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ } [الحجر : 65] وسر خلفهم لتكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم { وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ } [هود : 81] لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لأن من يلتفت لا بد له من ذلك من أدنى وقفة { وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ } [الحجر : 65] حيث أمركم الله بالمضي إليه وهو الشام أو مصر { وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَالِكَ الامْرَ } [الحجر : 66] عدى قضينا بإلى لأنه ضمن معنى أوحينا
396
كأنه قيل وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً وفسر ذلك الأمر بقوله { أَنَّ دَابِرَ هؤلاء مَقْطُوعٌ } [الحجر : 66] وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر ودابرهم آخرهم أي يستأصلون عن آخر حتى لا يبقى منهم أحد { مُّصْبِحِينَ } وقت دخولهم في الصبح وهو حال من هؤلاء
جزء : 2 رقم الصفحة : 396
{ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ } [الحجر : 67] سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور { يَسْتَبْشِرُونَ } بالملائكة طمعاً منهم في ركوب الفاحشة { قَالَ } لوط { إِنَّ هؤلاء ضَيْفِى فَلا تَفْضَحُونِ } [الحجر : 68] بفضيحة ضيفي لأن من أساء إلى ضيفي فقد أساء إليّ { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ } [الحجر : 69] أي ولا تذلوني بإذلال ضيفي من الخزي وهو الهوان.
وبالياء فيهما بعقوب { قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ } [الحجر : 70] عن أن نجير منهم أحداً أو تدفع عنهم فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فأوعدوه وقالوا { لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ } أو عن ضيافة الغرباء { قَالَ هؤلاء بَنَاتِى } [الحجر : 71] فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزاً ولا تتعرضوا لهم { إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } [يوسف : 10] إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما

حرم فقالت الملائكة للوط عليه السلام { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ } [الحجر : 72] أي في غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطإ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات { يَعْمَهُونَ } يتحيرون فيكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك أو الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو قسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط تعظيماً له والعُمر والعَمر واحد وهو البقاء إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح إيثاراً للأخف لكثرة دور الحلف على

397

ألسنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمي

جزء : 2 رقم الصفحة : 397

(230/2)

{ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [المؤمنون : 41] صيحة جبريل عليه السلام { مُشْرِقِينَ } داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } [الحجر : 74] رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط { لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } للمتفرسين المتأملين كأنهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة { وَإِنَّهَا } وإن هذه القرى يعني آثارها { لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ } [الحجر : 76] ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد.

وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ } { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر : 77] لأنهم المنتفعون بذلك { وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الايْكَةِ } [الحجر : 78] وإن الأمر والشأن كان أصحاب الأيكة أي الغيضة { لَظَالِمِينَ } لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام { فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ } [الأعراف : 136] فأهلكناهم لما كذبوا شعيباً { وَإِنَّهُمَا }

جزء : 2 رقم الصفحة : 398

يعني قرى قوم لوط والأيكة { لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ } [الحجر : 79] لبطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به فسمى به الطريق ومِطمر البناء لأنهما مما يؤتم به { وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ } [الحجر : 80] هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين يعني بتكذيبهم صالحاً لأن كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً فمن كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً أو أراد صالحاً

398

ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه { وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [الحجر : 81] أي أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها { وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا } [الحجر : 82] أي ينقبون في الجبال بيوتاً أو يبنون من الحجارة { ءَامِنِينَ } لوثاقة البيوت

واستحكامها من أن تنهدم ومن نقب اللصوص والأعداء أو آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم منه { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [المؤمنون : 41] العذاب { مُّصْبِحِينَ } في اليوم الرابع وقت الصبح { فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الحجر : 84] من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الأموال النفيسة { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلا بِالْحَقّ } [الحجر : 85] إلا خلقاً ملتبساً بالحق لا باطلاً وعبثا أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال { وَإِنَّ السَّاعَةَ } [الحج : 7] أي القيامة لتوقعها كل ساعة { لاتِيَةٌ } وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم فإنه ما خلق السموات والأَرض وما بينهم إلا لذلك

جزء : 2 رقم الصفحة : 398

{ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [الحجر : 85] فاعرض عنهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء قيل هو منسوخ بآية السيف وإن أريد به المخالفة فلا يكون منسوخاً { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ } [الحجر : 86] الذي خلقك وخلقهم { الْعَلِيمُ } بحالك وحالهم فلا يخفي عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا } [الحجر : 87] أي سبع آيات وهي الفاتحة أو سبع سور وهي الطوال واختلف في السابعة فقيل الأنفال وبراءة لأنهما في حكم سورة بدليل عدم

399

(231/2)

التسمية بينهما وقيل سورة يونس أو أسباع القرآن { مِّنَ الْمَثَانِي } [الحجر : 87] هي من التثنية وهي التكرير لأن الفاتحة مما يتكرر في الصلاة أو من الثناء لاشتمالهما على ما هو ثناء على الله والواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كأنها تثني على الله وإذا جعلت السبع مثاني فمن للتبيين وإذا جعلت القرآن مثاني فمن للتبعيض { وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ } [الحجر : 87] هذا ليس بعطف الشيء على نفسه لأنه إذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله { بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَاذَا الْقُرْءَانَ } [يوسف : 3] يعني سورة يوسف وإذا أريد به الأَسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم أي الجامع لهذين النعتين وهو التثنية أو الثناء والعظم ثم قال لرسوله

جزء : 2 رقم الصفحة : 398

{ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } [الحجر : 88] أي لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له { إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ } [الحجر : 88] أصنافاً من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعني قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة وهي القرآن العظيم فعليك أن تستغني به

ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا وفي الحديث " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " وحديث أبي بكر " من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغّر عظيماً وعظم صغيراً " { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } [الحجر : 88] أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام والمسلمون { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر : 88] وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطب نفساً عن إيمان الأغنياء { وَقُلْ } لهم { إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ } [الحجر : 89] أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم

400

جزء : 2 رقم الصفحة : 400

{ كَمَآ أَنزَلْنَا } [الحجر : 90] متعلق بقوله ولقد آتيناك أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا { عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ } [الحجر : 90] وهم أهل الكتاب { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ } [الحجر : 91] أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء حيث قالوا بعنادهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه وقيل كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول الآخر سورة آل عمران لي أو أريد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم وقد اقتسموه فاليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير أي أنذر المعضين الذين يجزّئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر يقول الآخر كذاب والآخر شاعر فأهلكهم الله.

ولا تمدن عينيك على الوجه الأول اعتراض بينهما لأنه لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلّم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الإلتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الأمر بأن يقبل بكليته على المؤمنين { فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في رسول الله صلى الله عليه وسلّم أو في القرآن أو في كتب الله { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } [الحجر : 94] فاجهر به وأظهره يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً من الصديع وهو الفجر أو فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو الإبانة بما تؤمر من الشرائع فحذف الجار كقوله : أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

{ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 106] هو أمر استهانة بهم

401

جزء : 2 رقم الصفحة : 401

{ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ } الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم الوليد بن المغيرة مر بنبّال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، والعاص ابن وائل دخل في أخمصه شوكة فانفتخت رجله فمات ، والأسود بن عبد المطلب عمي ، والأسود ابن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ، والحارث بن قيس امتخط قيحاً ومات { الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } عاقبة أمرهم يوم القيامة { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } [الحجر : 97] فيك أو في القرآن أو في الله { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ } [الحجر : 98] فافزع فيما نابك إلى الله والفزع إلى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم { وَاعْبُدْ رَبَّكَ } [الحجر : 99] ودم على عبادة ربك { حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر : 99] أي الموت يعني ما دمت حياً فاشتغل بالعبادة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا حزَّبه أمر فزع إلى الصلاة.

402

سورة النحل

مكية ، وهي مائة وثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيباً بالوعيد فقيل لهم

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل : 1] أي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه { فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل : 1] تبرأ جل وعز عن أن يكون له شريك وعن إشراكهم ، فما موصولة أو مصدرية واتصال هذا باستعجالهم من حيث إن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك { يُنَزِّلُ الْمَلَائكَةَ } [النحل : 2] وبالتخفيف مكي وأبو عمرو { بِالرُّوحِ } بالوحي أو بالقرآن لأن كلا منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد أو يحيي القلوب الميتة بالجهل { مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا } [النحل : 2] أن مفسرة لأن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى أنذروا { أَنَّهُ لا إِلَـاهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ } [النحل : 2] أعلموا بأن الأمر ذلك من نذرت بكذا إذا علمته والمعنى أعلموا الناس قولي لا إله إلا أنا فاتقون فخافون.

وبالياء يعقوب ، ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السماوات والأرض وهو قوله

403

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل : 3] وبالتاء في الموضعين حمزة وعلي ، وخلق الإنسان وما يكون منه وهو قوله { خَلَقَ الانسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } [النحل : 4] أي فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح لخصومه مبين لحجته بعدما كان نطفة لا حس به ولا حركة أو فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيى العظام وهي رميم وهو وصف للإنسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة وخلق ما لا بد منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وحمل أثقاله وسائر حاجاته وهو قوله { وَالانْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ } [النحل : 5] وهي الأزواج الثمانية وأكثر ما يقع على الإبل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله و { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ } أو بالعطف على الإنسان أي خلق الإنسان والأنعام ثم قال خلقها لكم أي ما خلقها إلا لكم يا جنس الإنسان { فِيهَا دِفْءٌ } [النحل : 5] هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر { وَمَنَافِعُ } وهي نسلها ودرها { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } [النحل : 5] قدم الظرف وهو يؤذن بالاحتصاص وقد يؤكل من غيرها لأن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم وما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المتغذى به كالجاري مجرى التفكه { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ } [النحل : 6] تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي { وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل : 6] ترسلونها بالغداة إلى مسارحها منّ الله تعالى بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها لأَنه من أغراض أصحاب المواشي لأَن الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الأَفنية وفرحت أربابها وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس وإنما قدمت الإراحة على التسريح لأَن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع

{ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ } [النحل : 7] أحمالكم { إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الانفُسِ } [النحل : 7] وبفتح الشين أبو جعفر وهما لغتان في معنى المشقة وقيل المفتوح مصدر شق الأمر عليه وشقا وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد والمعنى وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تخلق الإبل إلا بجهد ومشقة فضلاً أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم أو معناه لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس وقيل أثقالكم أبدانكم ومنه الثقلان للجن والإنس ومنه وأخرجت الأرض أثقالها أي بني آدم { إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 7] حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح { وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً } [النحل : 8] معطوف على الأنعام أي وخلق هذه للركوب والزينة وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله على حرمة أكل لحم الخيل بأنه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الأكل بعدما ذكره في الأنعام ومنفعة الأكل أقوى والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكم أن يذكر في مواضع المنة أدنى النعمتين

ويترك أعلاهما وانتصاب زينة على المفعول له عطفاً على محل لتركبوها وخلق مالا تعلمون من أصناف خلائقه وهو قوله { وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ } ومنْ هذا وصفه يتعالى عن أن يشرك به غيره { وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } [النحل : 9] المراد به الجنس ولذا قال { وَمِنْهَا جَآئِرٌ } [النحل : 9] والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق عليه كقوله { إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } وليس ذلك للوجوب إذ لا يجب على الله شيء ولكن يفعل ذلك تفضلاً وقيل معناه وإلى الله وقال الزجاج معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء إليه بالحجج ومنها جائر أي من السبيل مائل

عن الاستقامة { وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [النحل : 9] أراد هداية اللطف بالتوفيق والإنعام بعدالهدى العام

(234/2)

{ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ } [النحل : 10] لكم متعلق بأنزل أو خبر لشراب وهو ما يشرب { وَمِنْهُ شَجَرٌ } [النحل : 10] يعني الشجر الذي ترعاه المواشي { فِيهِ تُسِيمُونَ } [النحل : 10] من سامت الماشية إذا رعت فهي سائمة وأسامها صاحبها وهي من السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض { يُنابِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالاعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } [النحل : 11] ولم يقل كل الثمرات لأن كلها لا تكون إلا في الجنة وإنما أنبت في الأرض بعض من كل للتذكرة { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : 11] فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته والآية الدلالة الواضحة { وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآ ئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ } [إبراهيم : 33] بنصب الكل عليّ وجعل النجوم مسخرات والنجوم مسخرات فقط حفص والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخرات شامي على الابتداء والخبر { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الرعد : 4] جمع الآية وذكر العقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة { وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الارْضِ } [النحل : 13] معطوف على الليل والنهار أي ما خلف فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك { مُخْتَلِفًا } حال { أَلْوَانُهُا إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } [النحل : 13] يتعظون

{ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا } [النحل : 14] هو السمك ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه فيؤكل سريعاً طرياً خيفة الفساد وإنما لا يحنث بأكله إذا حلف لا يأكل لحماً لأن مبني الإيمان على العرف ومن قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار { وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً } [النحل : 14] هي اللؤلؤ والمرجان { تَلْبَسُونَهَا } المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن إنما يتزين بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم { وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ } [النحل : 14] جواري تجري جرياً وتشق الماء شقاً والمخرشق الماء بحيزومها { فِيهِ } في البحر { اللَّهَ مِن فَضْلِهِ } هو عطف على محذوف أي لتعتبروا ولتبتغوا وابتغاء الفضل التجارة { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة : 185] الله على ما أنعم عليكم به { وَأَلْقَى فِى الارْضِ رَوَاسِىَ } [النحل : 15] جبالاً ثوابت { أَن تَمِيدَ بِكُمْ } [النحل : 15] كراهية أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم لكن حذف المضاف أكثر قيل خلق الله الأرض فجعلت تميد فقالت الملائكة ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت { وَأَنْهَارًا } وجعل فيها أنهاراً لأن ألقى فيه معنى جعل { وَسُبُلا } طرقاً { لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [البقرة : 53] إلى مقاصدكم أو إلى توحيد ربكم { وَعَلَامَاتٍ } هي معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك { وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل : 16] المراد بالنجم الجنس أو هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى فإن قلت وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم كأنه قيل وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون فمن المراد بهم قلت كأنه أراد قريشاً فلهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ولهم بذلك علم لم

يكن مثله لغيرهم فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا

(235/2)

{ أَفَمَن يَخْلُقُ } [النحل : 17] أي الله تعالى { كَمَن لا يَخْلُقُ } [النحل : 17] أي الأصنام وجيء بمن الذي هو لأولى العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم ، أو لأن المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده وإنما لم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره إياه لكونه إلزاماً للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله لأنهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها فأنكر عليهم ذلك بقوله أفمن يخلق كمن لا يخلق وهو حجة على المعتزلة في خلق الأفعال { أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [يونس : 3] فتعرفون فساد ما أنتم عليه { وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَآ } [إبراهيم : 34] لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء

الشكر وإنما اتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيهاً على أن ما رواءها لا ينحصر ولا يعد { إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 18] يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتفريطكم { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [النحل : 19] من أقوالكم وأفعالكم وهو وعيد { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ } [النحل : 20] والآلهة الذين يدعوهم الكفار { مِن دُونِ اللَّهِ } [يس : 74] وبالتاء غير عاصم { لا يَخْلُقُونَ شيئا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [النحل : 20] { أَمْوَاتٌ } أي هم أموات { غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [النحل : 21] نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات جاهلون بالبغيب ، ومعنى أموات غير أحياء أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لو كانوا أحياء غير أموات أي غير جائز عليها الموت وأمرهم بالعكس من ذلك والضمير في يبعثون للداعين أي لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت
408
بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم وفيه دلالة على أنه لا بد من البعث
جزء : 2 رقم الصفحة : 408
{ إِلَـاهُكُمْ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ } [فصلت : 6] أي ثبت بما مر أن الإلهية لا تكون لغير الله وأن معبودكم واحد { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ } [النحل : 22] للوحدانية { وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ } [النحل : 22] عنها وعن الإقرار بها { لا جَرَمَ } [النحل : 23] حقا { أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } [البقرة : 77] أي سرهم وعلانيتهم فيجازيهم وهو وعيد { إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ } [النحل : 23] عن التوحيد يعني المشركين { وَإِذَا قِيلَ لَهُم } [البقرة : 91] لِهؤلاء الكفار { مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الاوَّلِينَ } [النحل : 24] ماذا منصوب بأنزل أي أي شيء أنزل ربكم أو مرفوع على الابتداء أي أي شيء أنزله ربكم وأساطير خبر مبتدأ محذوف قيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفّرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم قالوا أساطير الأولين أي أحاديث الأولين وأباطيلهم واحدتها أسطورة وإذا رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم يخبرونهم بصدقه وأنه نبي فهم الذين قالوا خيراً { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم } [النحل : 25] أي قالوا ذلك إضلالاً للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة وبعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الإضلال أن المضل والضال شريكان واللام للتعليل
جزء : 2 رقم الصفحة : 409
{ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : 25] حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال { أَلا سَآءَ مَا يَزِرُونَ } [الأنعام : 31] محل ما رفع { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ } [النحل : 26] أي من جهة القواعد وهي الأساطين وهذا تمثيل يعني أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها
409

رسل الله فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فأتاه البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا ، والجمهور على أن المراد به نمرود بن كنعان حين بني الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا فأتى الله أي أمره بالاستئصال { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [النحل : 26] من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون

جزء : 2 رقم الصفحة : 409

{ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ } [النحل : 27] يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا { وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ } [النحل : 27] على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم { الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ } [النحل : 27] تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم تشاقون نافع أي تشاقونني فيهم لأن مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله { قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [النحل : 27] أي الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم فلا يلتفتون إليهم ويشاقونهم يقولون ذلك شماتة بهم أو هم الملائكة { إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ } [النحل : 27] الفضيحة { وَالسُّواءَ } العذاب { عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائكَةُ } وبالياء حمزة وكذا ما بعده { ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ } [النحل : 28] بالكفر بالله { فَأَلْقَوُا السَّلَمَ } [النحل : 28] أي الصلح والاستسلام أي أخبتوا وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق وقالوا { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُواء } [النحل : 28] وجحدوا ما وجد منهم من الكفران والعدوان فرد عليهم أولو العلم وقالوا { بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 28] فهو يجازيكم عليه وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك { فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبّرِينَ } [النحل : 29] جهنم

410

جزء : 2 رقم الصفحة : 410

(237/2)

{ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا } [النحل : 30] الشرك { مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا } [النحل : 30] وإنما نصب هذا ورفع أساطير لأن التقدير هنا أنزل خيراً فأطبقوا الجواب على السؤال وثمة التقدير هو أساطير الأولين فعدلوا بالجواب عن السؤال { لّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَاذِهِ الدُّنْيَا } [النحل : 30] أي آمنوا وعملوا الصالحات أو قالوا لا إله إلا الله { حَسَنَةً } بالرفع أي ثواب وأمن وغنيمة وهو بدل من خيراً حكاية لقول الذين اتقوا أي قالوا هذا القول فقدم عليه تسميته خيراً ثم حكاه أو هو كلام مستأنف عدة للقائلين

وجعل قولهم من جملة إحسانهم { وَلَدَارُ الاخِرَةِ خَيْرٌ } [يوسف : 109] أي لهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله { فَاَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الاخِرَةِ } [آل عمران : 148] { وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } [النحل : 30] دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره { جَنَّاتُ عَدْنٍ } [مريم : 61] خبر لمبتدأ محذوف أو هي المخصوص بالمدح { يَدْخُلُونَهَا } حال { تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَالِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائكَةُ طَيِّبِينَ } طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم { يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ } [النحل : 32] قيل إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك ، فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام ، ويبشره بالجنة ويقال لهم في الآخرة { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32] بعملكم { هَلْ يَنظُرُونَ } [الأنعام : 158] ما ينتظر هؤلاء الكفار { إِلا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائكَةُ } [الأنعام : 158] لقبض أرواحهم.

وبالياء علي وحمزة { أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبّكَ } [النحل : 33] أي العذاب المستأصل أو القيامة { كَذَالِكَ } مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب { فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ } [النحل : 33] بتدميرهم { وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57] حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير

{ فَأَصَابَهُمْ سيئات مَا عَمِلُوا } [النحل : 34] جزاء سيئات أعمالهم { وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ } وأحاط بهم جزاء استهزائهم { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلا ءَابَآؤُنَا } [النحل : 35] هذا كلام صدر منهم استهزاء ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً { وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ } [النحل : 35] يعني البحيرة والسائبة ونحوهما { كَذَالِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [النحل : 33] أي كذبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل قولهم استهزاء { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [النحل : 35] إلا أن يبلغوا الحق ويطّلعوا على بطلان الشرك وقبحه { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ } [النحل : 36] بأن وحدوه { وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل : 36] الشيطان يعني طاعته { فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ } [النحل : 36] لاختيارهم الهدى { وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } [

النحل : 36] أي لزمته لاختياره إياها { فَسِيرُوا فِى الارْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [آل عمران : 137] حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلّم على إيمانهم وأعلمه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة فقال { إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَن يُضِلُّ } [النحل : 37] بفتح الياء وكسر الدال كوفي الباقون بضم الياء وفتح الدال والوجه فيه أن من يضل مبتد ولا يهدي خبره { وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ } [آل عمران : 22] يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذي أعد لهم { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ

} [الأنعام : 109] معطوف على وقال الذي أشركوا
412

(238/2)

{ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى } [النحل : 38] هو إثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم { وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا } [التوبة : 111] وهو مصدر مؤكد لما دل عليه بلى لأن يبعث موعد من الله وبين أن الوفاء بهذا الوعد حق { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] أو وعده حق أو أنهم يبعثون
جزء : 2 رقم الصفحة : 412
{ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ } [النحل : 39] متعلق بما دل عليه بلى أي يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو يشمل المؤمنين والكافرين { الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ } [النحل : 39] هو الحق { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ } [النحل : 39] في قولهم لا يبعث الله من يموت { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [النحل : 40] أي فهو يكون وبالنصب شامي وعلي ، على جواب.
كن قولنا مبتدأ وأن نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أي إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له أحدث فهو يحدث بلا توقف وهذه عبارة عن سرعة الإيجاد تبين أن مراداً لا يمتنع عليه وأن وجود عند إرادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع المتمثل ولا قول ثَم والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ } [النحل : 41] في حقه ولوجهه { مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } [النحل : 41] هم رسول الله وأصحابه ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين ومنهم من هاجر إلى المدينة { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً } [النحل : 41] صفة للمصدر أي تبوئة حسنة أو لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم { وَلاجْرُ الاخِرَةِ أَكْبَرُ } [النحل : 41] الوقف لازم عليه لأن جواب { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [البقرة : 102] محذوف والضمير للكفار أي لو علموا ذلك لرغبوا في الدين أو للمهاجرين أي لو كانوا يعلمون لزادوا في اجتهادهم وصبرهم { الَّذِينَ صَبَرُوا } [النحل : 96] أي هم الذين صبروا أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي صبروا على مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب فكيف
413
بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الانفال : 2] أي يفوضون الأمر إلى ربهم ويرضون بما أصابهم في دين الله.
ولما قالت قريش : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً نزل

جزء : 2 رقم الصفحة : 413
{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُّوحِى إِلَيْهِمْ } [يوسف : 109] على ألسنة الملائكة.
نوحي حفص { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن } أهل الكتاب ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً وقيل للكتاب الذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين { إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } أي بالمعجزات والكتب والباء يتعلق برجالاً صفة له أي رجالاً ملتبسين بالبينات أو بأرسلنا مضمراً كأنه قيل بم رسل فقيل بالبينات أو بيوحي أي يوحى إليهم بالبينات أو بلا تعلمون ، وقوله : فاسألوا أهل الذكر اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله { وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ } [النحل : 44] القرآن { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل : 44] في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا به وأوعدوا { وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : 44] في تنبيهاته فينتبهوا { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّاَاتِ } [النحل : 45] أي المكرات السيئات وهم أهل مكة وما مكروا به رسول الله عليه السلام { أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الارْضَ } [النحل : 45] كما فعل بمن تقدمهم { أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [النحل : 45] أي بغتة { أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ } [النحل : 46] متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم { فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ } [النحل : 46] { أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ } [النحل : 47] متخوفين وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا 414

(239/2)

فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون وهو خلاف قوله من حيث لا يشعرون { فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُافٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 47] حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم والمعنى أنه إذا لم يأخذكم مع ما فيكم فإنما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم
جزء : 2 رقم الصفحة : 414
{ أَوَلَمْ يَرَوْا } [الإسراء : 99] وبالتاء حمزة وعلي وأبو بكر { إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ } [النحل : 48] ما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه { مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـالُهُ } أي يرجع من موضع إلى موضع.
وبالتاء بصري { عَنِ الْيَمِينِ } [الصافات : 28] أي الأيمان { وَالشَّمَآ ئِلِ } جمع شمال { سُجَّدًا لِّلَّهِ } [النحل : 48] حال من الظلال.
عن مجاهد إذا زالت الشمس سجد كل شيء { وَهُمْ دَاخِرُونَ } [النحل : 48] صاغرون وهو حال من الضمير في ظلاله لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل وجمع بالواو والنون لأن الدخور من أوصاف العقلاء أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب والمعنى أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً

صاغرة منقادة لأفعال الله فيها غير ممتنعة { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الارْضِ مِن دَآبَّةٍ } [النحل : 49] من بيان لما في السماوات وما في الأرض جميعاً على أن في السماوات خلقاً يدبون فيها كما تدب الأناسي في الأرض أو بيان لما في الأرض وحده والمراد بما في السماوات ملائكتهن وبقوله { وَالْمَلَائكَةُ } ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم قيل المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقيادهم لإرادة الله ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا فلذا جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد وجيء بما إذ هو صالح للعقلاء وغيرهم ولو جيء بمن لتناول العقلاء خاصة { وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ } [النحل : 49] { يَخَافُونَ رَبَّهُم } [النحل : 50] هو حال من الضمير في لا يستكبرون أي لا يستكبرون خائفين { مِن فَوْقِهِمْ } [الزمر : 16] إن علقته بيخافون فمعناه يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم وإن علقته بربهم حالاً منه فمعناه يخافون ربهم غالباً لهم قاهراً كقوله 415
{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام : 18] { وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [النحل : 50] وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي وأنهم بين الخوف والرجاء

جزء : 2 رقم الصفحة : 415

{ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـاهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ } [النحل : 51] فإن قلت إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان قلت الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المعنيّ به منهما هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [النحل : 51] نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترغيب من قوله فإياي فارهبوه.

فارهبوني يعقوب { وَلَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَلَهُ الدِّينُ } أي الطاعة { وَاصِبًا } واجباً ثابتاً لأن كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه وهو حال عمل فيه الظرف أو وله الجزاء دائماً يعني الثواب والعقاب { اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ }

جزء : 2 رقم الصفحة : 416

(240/2)

وأي شيء اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب { فَمِنَ اللَّهِ } [النحل : 53] فهو من الله { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ } [النحل : 53] المرض والفقر والجدب { فَإِلَيْهِ تَجْـَرُونَ } [النحل : 53] فما تتضرعون

إلا إليه والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة { ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [النحل : 54] الخطاب في وما بكم من نعمة إن كان عاماً فالمراد بالفريق الكفرة وإن كان الخطاب للمشركين فقوله منكم للبيان لا للتبعيض كأنه قال فإذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ } [لقمان : 32]

416

{ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ } [النحل : 55] من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ثم أوعدهم فقال { فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 55] هو عدول إلى الخطاب على التهديد { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ } [النحل : 56] أي لآلهتهم ومعنى لا يعلمون أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لأنها جماد لا تضر ولا تنفع أو الضمير في لا يعلمون للآلهة أي لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرباً إليهم { تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ } [النحل : 56] وعيد { عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ } [النحل : 56] من أنها آلهة وأنها أهل للتقرب إليها { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } [النحل : 57] كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله { سُبْحَانَهُ } تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه أو تعجب من قولهم { وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ } [النحل : 57] يعني البنين ويجوز في ما الرفع على الابتداء ولهم الخبر والنصب على العطف على البنات ، وسبحانه اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه أي وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالانثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا } [النحل : 58] أي صار فظل وأمسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصيرورة لأن أكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتماً مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس { وَهُوَ كَظِيمٌ } [النحل : 58] مملوء حنقاً على المرأة { يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُواءِ مَا بُشِّرَ بِهِ } [النحل : 59] يستخفى منهم من أجل سوء

417

المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر { أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ } [النحل : 59] أيمسك ما بشر به على هون وذل { أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ } [النحل : 59] أم يئده { أَلا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } [النحل : 59] حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف

جزء : 2 رقم الصفحة : 416

{ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ } [النحل : 60] صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ، ووأدهن خشية الإملاق { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الاعْلَى } [النحل : 60] وهو الغني عن العالمين والنزاهة عن صفات المخلوقين { وَهُوَ الْعَزِيزُ } [إبراهيم : 4] الغالب في تنفيذ ما أراد { الْحَكِيمُ } في إمهال العباد { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم } [النحل : 61] بكفرهم ومعاصيهم { مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا } [النحل : 61] على الأرض { مِن دَآبَّةٍ } [الجاثية : 4] قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه : إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضي الله عنه كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم وعن ابن عباس رضي الله عنهما من دابة من مشرك يدب { وَلَـاكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّىً } [النحل : 61] أي أجل كل أحد أو وقت تقتضيه الحكمة أو القيامة { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } ما يكرهونه لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها { وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ } [النحل : 62] مع ذلك أي ويقولون الكذب { أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى } [النحل : 62] عند الله وهي الجنة إن كان البعث حقاً كقوله

418

(241/2)

{ وَلَـاإِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبّى إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَى } [فصلت : 50] وأن لهم الحسنى بدل من الكذب { لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ } [النحل : 62] مفرِطون نافع مفرّطون أبو جعفر فالمفتوح بمعنى مقدمون إلى النار معجلون إليها من أفرطت فلاناً وفرطته في طلب الماء إذا قدمته أو منسيون متروكون من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي والمشدد من التفريط في الطاعات أي التقصير فيها

جزء : 2 رقم الصفحة : 418

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ } [النحل : 63] أي أرسلنا رسلاً إلى من تقدمك من الأمم { فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـانُ أَعْمَالَهُمْ } [النحل : 63] من الكفر والتكذيب بالرسل { فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ } [النحل : 63] أي قرينهم في الدنيا تولى إضلالهم بالغرور أو الضمير لمشركي قريش أي زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم أو هو على حذف المضاف أي فهو ولي أمثالهم اليوم { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة : 174] في القيامة { وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـابَ } [النحل : 64] القرآن { إِلا لِتُبَيّنَ لَهُمُ } [النحل : 64] للناس { الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ } [النحل : 64] هو البعث لأنه كان فيهم من يؤمن به { وَهُدًى وَرَحْمَةً } [الأنعام : 157] معطوفان على محل لتبين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبيين لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 99] { وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [النحل : 65] سماع إنصاف وتدبر لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه لا يسمع { وَإِنَّ لَكُمْ فِى الانْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 419

النحل : 66] وبفتح النون نافع وشامي وأبو بكر.

فال الزجاج سقيته وأسقيته بمعنى واحد ذكر سيبويه الأنعام في الأسماء المفردة الواردة على أفعال ولذا رجع الضمير إليه مفرداً وأما في بطونها في سورة المؤمنين فلأن معناه الجمع وهو استئناف كأنه قيل كيف العبرة فقال نسقيكم مما

419

في بطونه { مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا } [النحل : 66] أي يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله قيل إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش ثم ينحدر وفي ذلك عبرة لمن اعتبر وسئل شقيق عن الإخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم { سَآ ئِغًا لِّلشَّارِبِينَ } [النحل : 66] سهل المرور في الحلق ويقال لم يغص أحد باللبن قط ومن الأولى للتبعيض لأن اللبن بعض ما في بطونها والثانية لابتداء الغاية

جزء : 2 رقم الصفحة : 419

(242/2)

ويتعلق { وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالاعْنَابِ } [النحل : 67] بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله { تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا } [النحل : 67] بيان وكشف عن كنه الإسقاء أو تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد والضمير في منه يرجع إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير ، والسكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً نحو رشد رشداً ورشداً ثم فيه وجهان أحدهما أن الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة وثانيهما أن يجمع بين العتاب والمنة وقيل السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله إلى حد السكر ويحتجان بهذه الآية وبقوله عليه السلام : " الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب " وبأخبار جمة { وَرِزْقًا حَسَنًا } [النحل : 67] هو الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك { إِنَّ فِى ذالِكَ لاَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [النحل : 67] { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } [النحل : 68] وألهم { أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا } [النحل : 68] هي أن المفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول قال الزجاج : واحد النحل نحلة كنخل ونخلة والتأنيث

420

باعتبار هذا ومن في من الجبال { وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } [النحل : 68] يرفعون من سقوف

البيت أو ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تعسل فيها للتبعيض لأنها لا تبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش والضمير في يعرشون للناس وبضم الراء شامي وأبو بكر

جزء : 2 رقم الصفحة : 420

{ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } [النحل : 69] أي ابني البيوت ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها { فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ } [النحل : 69] فادخلي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها { ذُلُلا } جمع ذلول وهي حال من السبل لأن الله تعالى ذللها وسهلها أو من الضمير في فاسلكي أي وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة { يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ } [النحل : 69] يريد العسل لأنه مما يشرب تلقيه من فيها { مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ } [النحل : 69] منه أبيض وأصفر وأحمر من الشباب والكهول والشيب أو على ألوان أغذيتها { فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ } [النحل : 69] لأنه من جملة الأدوية النافعة وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل.

وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض كما أن كل دواء كذلك وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه أو لأن فيه بعض الشفاء لأن النكرة في الإثبات تخص وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال عليه السلام : " اسقه عسلاً " فجاءه وقال زاده شراً فقال عليه السلام : " صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً " فسقاه فصح وعن ابن مسعود رضي الله عنه العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل ومن بدع الروافض أن المراد بالنحل عليّ وقومه وعن بعضهم أن رجلاً قال عند المهدي إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : 11] في عجيب

421

أمرها فيعلمون أن الله أودعها علماً بذلك وفطنها كما أعطى أولي العقول عقولهم

جزء : 2 رقم الصفحة : 421